دورة الأئمة والخطباء

الكتاب الثاني

- التفسير
- الثقافة الإسلامية
- السيرة النبوية

التفسير

لدورات الأئمة والخطباء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين أمَّا بعد

فهذا منهج التفسير المقرَّر لدورات الأئمَّة والخطباء، ويهدف إلى:

١ - تحقيق الصلة بكتاب اللهِ ﷻ من خلال الحثِّ على إدامة القراءة له.

٢- تيسير الفهم للكتاب الكريم مع تحقيق ذلك فعليًّا بتفسير ما تكثر قراءته مِن السُّور والآيات.

٣- التأدُّب بآداب القرآن الكريم في النفس والمجتمع.

٤ - تعميق المحبَّة للإسلام والصبر والثبات على شرائعه.

والمقرَّر مختارٌ ليناسب الملتحقين بالدورات من حيث المحتوى وسهولة مفرداته، ومن حيث اشتمالُه على أهمِّ ما يحتاج الطالبُ معرفته في هذه المرحلة من تفسير بعض سور القرآن الكريم.

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

أولا: مدخل

١-فضل القرآن:

أ-فضل تلاوته:

إنَّ المتدبِّر لآي الذِّكر الحكيم يجد الآيات الكثيرةَ الآمرة بتلاوته وقراءته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ١٢١].فامتدح اللهُ هؤلاء المؤمنين لتلاوتهم الكتاب حقَّ التلاوة.

وقال تعالى آمراً نبيَّه بتلاوة القرآن: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[الكهف: ٢٧].

والأمر للرسول ﷺ أمرٌ لأمَّته بالتبع.

وقال تعالى مخبراً عن امتثال نبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[النمل: ٩١ - ٩٢].

وقال تعالى آمراً عباده بقراءة القرآن: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[المزمل: ٢٠].

ففي هذه الآيات المتقدِّمة الأمرُ الصريح بالإقبال على هذا القرآن العظيم بالتلاوة.

ولقد بيَّن الله ﷻ ما أعدَّه من الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن تلا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٢٩ - ٣٠].

فهذه الآية وغيرُها من الآيات تدلُّ على فضل تلاوة القرآن الكريم.

وأمَّا ما ورد عن الرسول ﷺ في فضل تلاوة القرآن الكريم فكثيرٌ جداً، نختار منه ما تيسَّر، فمن ذلك:

أ- أنه يشفع لأصحابه الذين يُديمون قراءته وتلاوته:

فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ**»[(١)].

فالله ﷻ بفضله وكرمه يأذن للقرآن يومَ القيامة أن يشفعَ لأهله الذين كانوا يكثرون من تلاوته وقراءته في الدنيا، يقول القرآن: «**أي ربِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِالليلِ؛ فَشَفِّعْنِي فيهِ**»[(٢)].

(١) رواه مسلم، في باب فضل قراءة القرآن، رقم (٨٠٤).
(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٧٤) وصححه السيوطي في الجامع الصغير.انظرفيض القدير (٤/ ٢٥٢).

ولو لم يردْ في فضل تلاوة القرآن الكريم إلا هذا الفضل لكفى دافعاً للمداومة على تلاوته.

ب- مضاعفة الأجر لقارئ القرآن الكريم:

فعن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الم﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ وميمٌ حَرفٌ**)[1].

والذي يدلُّ على مضاعفة الأجر أكثر هو قول الرسول ﷺ فيما روته عنه عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**)[2].

ج- علوُّ منزلتِه ودرجتِه في الدار الآخرة:

وممَّا يدلُّ على هذا ما رواه الصحابي الجليل عبدُ الله بن عمرو ابن العاص عن النبي ﷺ قالَ: (**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تقرأُ بِها**)[3].

وصاحبُ القرآن هو الملازم لتلاوته فهو يتبوَّأ المنزلة العاليةَ والدرجة الرَّفيعة في الجنَّة بحسب ما معه من آيات القرآن -اقرأ وارتق- فيا له من فضلٍ عظيم مِن أجلِه يشمِّر المتسابقون.

ولهذا ورد في فضل الاجتماع على تلاوته ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه

(١) رواه الترمذي في ثواب القرآن (٥/ ١٦١) رقم (٢٩١٠).
(٢) رواه البخاري في باب التفسير (٦/ ١٣٨)، ومسلم (٤/ ٥٤٩ - ٥٥٠) ي صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن.
(٣) رواه الترمذي في سننه، باب ثواب القرآن (٨/ ١١٧) وقال حديث حسن صحيح.

قال: قال رسول الله ﷺ: «...ما اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ تَعالى يَتلونَ كِتابَ اللهِ وَيَتَدارَسُونَه بَينَهم، إلَّا نَزَلَتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتهمُ الرَّحمةُ، وحَفَّتهمُ المَلائكةُ، وذكَرَهمُ اللهُ فيمَن عندَه»[1].

فانظرْ أخي الفاضل ما أُعِدَّ لهؤلاء القومِ الذين اجتمعوا لتلاوة هذا الكتاب العظيم وفي بيت من بيوت اللهِ، اجتمعوا لمدارستِه، تتنزل عليهم السَّكينةُ والطمأنينة والرَّاحة النفسيَّة، فلا يصيبهم قلقٌ أو اضطراب أو أمراض نفسيَّة، ملئت قلوبهم إيماناً، وتغشاهم الرَّحمة والرضوان، وتحفُّهم الملائكة بأجنحتها تعظيماً لهم وتشريفاً لشرفِ ما اجتمعوا مِن أجله -مدارسة القرآن وتلاوته- ومع هذا الفضل العظيم يباهي اللهُ بهم مَن عندَه.

فهنيئاً لمن هذه صفته ورُزِق الإخلاصَ في قراءته وعملِه، هنيئاً له هذه المنزلة الرفيعة.

ب- فضل تدبره:

لم يقتصر الأمر بتلاوة القرآن الكريم فحسب بل ورد الأمرُ بتدبره والتفكر فيه، يقول اللهُ ﷻ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

والمقصود الأعظمُ والمطلوبُ الأهمُّ، هو تدبُّر القرآن وتفهمُه، فيه تنشرح الصُّدور، وتستنير القلوبُ، قال تعال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص: ٢٩].

ولقد كانت قراءةُ رسولِنا ﷺ بتدبرٍ وتخشعٍ، قال حذيفة رضي الله عنه: صلَّيتُ

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن حديث رقم(٢٦٩٩).

مع النبي ﷺ ذات ليلةٍ فافتتح البقرة، ثمَّ النِّساء فقرأها، ثمَّ آل عمران فقرأَها، يقرأ مسترسلاً إذا مر بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسؤال سأَلَ، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ.

وهذا أكبر دليلٍ على تدبر رسول الله ﷺ ما يقرأه من القرآن، يقول السَّخاوي في كتابه: (جمال القراءِ) فيما ينبغي لمن يقرأ القرآن: (إن درس القرآنَ فبحضورِ فهمٍ وعقلٍ همته إيقاعُ الفَهم لما أنزلَه الله ﷻ من إتباع ما أمر والانتهاء عما نهى، ليس همَّته متى أختمُ السورةَ)[1] ولذا وردَ النَّهي عن الإسراع في القراءة وعدم تفهمه وتدبره، ولا شك أنَّ ممَّا يزيد الخشوعَ التفكر في المعاني، والتأني وعدم الإسراع في التلاوة، وتفريغ الذِّهن من المشاغل والهموم، وعلى هذا كان السلف الصالح يتلون القرآن الكريم بخشوعٍ وتدبر، بل وردَ عنهم أنَّهم يردِّدون بعض الآيات للتدبر.

وقد أورد الإمام النَّوويُّ رحمه الله في كتابه: (التبيان) رواياتٍ كثيرةً تدلُّ على ذلك[2].

ج- فضل الحفظ:

لقد أنزلَ الله القرآنَ الكريمَ، وتكفَّل بحفظِه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

وتلقَّاه الصحابة رضي الله عنهم عن النبيِّ ﷺ، وحفظوه في صدورِهم، ولقد يسَّر الله حفظَه وتعلُّمه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٧]. بل الاعتماد في نقلِ القرآن على حفظ الصدورِ

(١) جمال القراء (١/ ١٧).
(٢) انظر التبيان في آداب حملة القرآن -النووي- ص (٦٧).

لا على المكتوب، يقول الإمام ابن الجزريّ رحمه الله: إنَّ الاعتماد في نقل القرآنِ على حفظ القلوبِ والصدور لا على حفظ المصاحف والكتبِ، وهذه أشرفُ خصيصةٍ من الله تعالى لهذه الأمَّة.. ولما خص الله تعالى بحفظه مَن شاء مِن أهله أقام له أئمَّةً ثقاتٍ تجرَّدوا لتصحيحه، وبذلوا أنفسَهم في إتقانه وتلقوه مِن النَّبي ﷺ حرفاً حرفاً و لم يهملوا منه حركةً ولا سكوناً[1].

يقولُ الأستاذ فهد الرُّومي: ولم يترك الرَّسول ﷺ أمراً فيه حثٌّ على حفظ القرآنِ إلا وسلكه، فكان يفاضل بين أصحابه في حفظِ القرآن، فيعقدُ الرَّاية لأكثرهم حفظاً للقرآن، وإذا بعث بعثاً جعل إمامَهم في صلاتهم أكثرَهم قراءة للقرآن، ويقدِّم للَّحدِ في القبرِ أكثرَهم أخذاً للقرآن، ويزوج الرَّجلَ المرأةَ ومهرها ما مع الرَّجل مِن القرآن، وصور ذلك كثيرة جدًّا، فتوافرت الدَّواعي لحفظه في الصدور[2].

ولقد وردَ في فضل الحفظ الشيء الكثير، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ..**»[3] الحديث.

فحافظُ القرآنِ يستحق الغبطة ويستحقُّ أن يتبوَّأ هذه المكانة، فهو حامل كتابه.

وقال ﷺ: «**...وَأَحَقُّهُمْ بِالإِمَامَةِ أَقْرَؤُهُمْ**»[4]

(١) النشر (١/ ٦).
(٢) خصائص القرآن ص (١٦٧).
(٣) رواه البخاري (٥٢٦).
(٤) رواه مسلم (٦٧٢).

فإذا كان الذي يُقدَّم لإمامة النَّاس في الصَّلاة ذات المنزلة المعلومة في الدِّين هو أقرأ القوم، فهذا يدلُّ على فضل حفظِه لكتاب ربِّه.

د- فضل العمل به:

إنَّ المقصود الأعظم مِن إنزال القرآن هو العملُ به والتخلُّق بأخلاقه، لا مجرَّد إقامة حروفه.

ولذا كان خُلُقُ الرّسول ﷺ القرآنَ كما أخبرت عائشة رضي الله عنها بذلك.

ولقد وردَ عن كثير من السَّلف رحمهم الله الأمرُ بالعمل بالقرآن الكريم:

روى ابن جرير رحمه الله عن مجاهد رحمه الله في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾[البقرة: ١٢١] قال: «يعملون به حقَّ عمله»[١].

وقد رويَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنه قال: إنَّ هذا القرآنَ كائن لكم ذخراً، وكائن عليكم وزراً، فاتَّبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنَّه مَن اتبع القرآن هبط به على رياض الجنَّة، ومن اتَّبعه القرآنُ زجَّ في قفاه فقذفَ في النَّار[٢].

وروي عن الحسن البصري رحمه الله: مَن أحبَّ أن يعلم ما هو فليعرض نفسَه على القرآن[٣].

وفي التحذير عن التجافي عنه ما يدلُّ على فضل العمل به، ومن ذلك ما رواه سَمُرَةُ بن جندب في حديث الرؤيا الطويل وفيه: «**أتانِي اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإنَّهُما ابْتَعَثانِي، وإنَّهُما قالا لي انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقْتُ معهُما، وإنَّا أتَيْنا علَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بصَخْرَةٍ، وإذا**

(١) تفسير ابن جرير (٢/ ٥٦٨).
(٢) انظر الحلية (١/ ٢٩٧)، وسنن الدارمي (٢/ ٣١٢).
(٣) انظر أخلاق حملة القرآن للآجري، ص (١٢).

هـو يَهْـوِي بالصَّخْـرَةِ لِرَأْسِـهِ فَيَثْلَـغُ رَأْسَـهُ، فَيَتَدَهْـدَهُ الحَجَـرُ هـا هُنـا، فَيَتْبَـعُ الحَجَـرَ فَيَأْخُـذُهُ، فـلا يَرْجِـعُ إِلَيْـهِ حتَّـى يَصِـحَّ رَأْسُـهُ كمـا كانَ، ثُـمَّ يَعُـودُ عليـه فَيَفْعَـلُ بـه مِثْـلَ مـا فَعَـلَ المَـرَّةَ الأُولَـى قـالَ: قُلـتُ لهمـا: سُـبْحانَ اللَّهِ مـا هـذانِ؟ قـالَ: قـالا هـذا رَجُـلٌ عَلَّمَـهُ اللهُ القُـرْآنَ، فَنَـامَ عنْـه باللَّيْـلِ ولَـمْ يَعْمَـلْ فيـه بالنَّهَـارِ، يُفْعَـلُ بـه إلـى يَـومِ القِيَامَـةِ»

وفي رواية: «يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفِضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ»[1].

وفـي مـا تقـدَّم مـا يـدلُّ علـى فضـل العمـل بالقـرآن الكريـم، حيـث هـو المقصـد الأعلـى والهـدف الأسْـمى.

فمـا أجمـلَ التخلُّـقَ بأخلاقـه والتحلِّـي بهـا، ومـا أجمـلَ الوقـوفَ عنـد حـدوده والامتثـالَ لأوامـره، وهـذا هـو الـذي جعـل عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه يقـول: إذا سـمعتَ قـول الله ﷻ: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا﴾ فـأرعِ لها سـمعَك فإمَّـا خيـرٌ تؤمَـرُ بـه أو شـرٌّ تنهـى عنـه.

هـ- فضل تعليمه:

لقـد وردَ بيـانُ فضـلِ تعليـم القـرآنِ العظيـم، ومـن ذلـك حديـث الرَّسـول ﷺ: (خَيْرُكُـمْ مَـن تَعَلَّـمَ القُـرْآنَ وعَلَّمَـهُ)[2].

يقـول الإمـام ابـنُ حجـر رحمه الله: لا شـكَّ أنَّ الجامـع بيـن تعلُّـم القـرآن وتعليمِـه مكمـلٌ لنفسـه ولغيـره، جامـعٌ بيـن النَّفـع القاصـر والنَّفـع المتعدِّي، ولهـذا كان أفضـل»[3].

ولقـد كان السَّـلف الصالـح رحمهم الله يدركـونَ هـذه الخيريـة التـي يتميَّـز بهـا

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب تفسير الرؤيا (٩/ ٣٧ - ٣٨).
(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن(٤/ ١٨٤).
(٣) الفتح (٩/ ٧٦).

معلِّم القرآن الكريم ومتعلِّمُه فيحرصون على بلوغها.

فهذا أبو عبد الرَّحمن السُّلَمي تفرَّغ لتعليم القرآن في مسجد الكوفة أربعين سنةً، ويقول هذا الحديث -أي المتقدم- الذي أقعدني هذا المقعدَ.

وهذا الإمام الذَّهبي يصف أبا منصور الخياط بأنَّه جلسَ يعلِّم كتاب الله دهراً طويلا[1].

(١) نزهة الفضلاء (١/ ٣٨٣).

ب- آداب تلاوة القرآن:

لتلاوة القرآن الكريمِ آدابٌ كثيرةٌ يمكن أن نجملَها فيما يلي:

ومن أهم هذه الآداب:

١- الإخلاص أو تجريد القَصد لله ﷻ، وهذا أهمُّ هذه الآداب حيث العملُ مقرونٌ بالنية كما قال الرسول ﷺ: (**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...**)[١]

فيجب إخلاص النيَّة وإصلاحُ القصد، وجعل حفظ القرآن والعناية به من أجلِ اللهِ سبحانَه وتعالى والفوز بجنَّته وحصول مرضاته، ومن حفظَ القرآن أو قرأه رياءً أو سمعةً فلا أجرَ له ولا ثوابَ.

يقول النبيُّ ﷺ: (**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ . وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**)[٢].

والمسلم عندما يحفظُ القرآنَ ويتلوه ابتغاءَ مرضاة الله، يشعر بالسعادة التي لا تعادلها سعادة في الدُّنيا.

٢- إحضار القلب عند التلاوة، ومحاولة طرد الوَساوس وحديث القلب، وعدم العبث بالأيدي أو الالتفات يميناً وشمالًا، وإشغال النظر بغير القراءة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي (١/ ٩).
(٢) صحيح مسلم (٦/ ٤٧).

٣- التدبر والتفهم لما يَقرَأُ، وأن يستشعر بأنَّ كلَّ خطاب في القرآن موجَّه إليه، وأن يتأمَّل في معاني أسماء الله وصفاته.

٤- التأثُّر عند القراءة، يقول السيوطي رحمه الله: (يُسْتَحَبُّ الْبُكَاءُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالتَّبَاكِي لِمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالْحُزْنُ وَالْخُشُوعُ)[١].

٥- الطَّهارة، وأقصد بالطهارة: الطَّهارة من الحدث الأكبرِ، وهو الجنابة والحيض، أو النفاس للمرأة.

والقرآن الكريم أفضلُ الأذكار، فهو كلام الرَّبِّ جل جلاله، ومِن آداب تلاوته أن يكون متطهراً من الحدث الأكبر والأصغر، فيستحب له الوضوء قبلَ القراءة لما وردَ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**)[٢].

مع العلم أنَّه يجوز له أن يقرأ القرآنَ إذا لم يكن محدِثاً حدثاً أكبر.

كما يسنُّ له أن يطهر فاه بالسواك فهو مطهرة للفم، والفم طريقُ القرآن.

٦- الأفضل له أن يستقبلَ القبلة عند قراءته القرآنَ لأنَّها أشرف الجهات، لا سيَّما إذا كان في المسجد أو في البيت، أمَّا إذا لم يتيسر له، بأن كان في متجره أو سيارته أو عمله فيقرأُ القرآن ولو لم يكن مستقبلاً القبلة.

٧- يسنُّ له أن يتعوَّذ بالله من الشيطان الرَّجيم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[النحل: ٩٨].

---

(١) الإتقان (١/ ٣٠٢).
(٢) صحيح الجامع ح (٧٦٥٧).

٨- ومن الآداب أن يحسِّن صوته بالقرآن ما استطاع، قال رسول الله ﷺ: (**حسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا**)[١]

قال السُّيوطي: «يسنُّ تحسين الصَّوت بالقراءة وتزيينها.. وفيه أحاديثُ صحيحة كثيرة، فإن لم يكن حَسَنَ الصَّوت، حسَّنه ما استطاع، بحيث لا يخرج إلى حدِّ التمطيط»[٢].

يقول الرسول ﷺ: (**ليسَ مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ**)[٣].

فينبغي للقارئ أن يقرأَ على سجيَّته، وألا يتكلَّف تقليدَ أحد القرَّاء، أو نغمات معينة؛ لأنَّ ذلك يشغله عن التدبر والتفهم ويجعل جلَّ همِّه في التقليد.

٩- ومِن الآداب القراءةُ مِن المصحف، قال السيوطي رحمه الله: «القراءةُ مِن المصحف أفضل من القراءةِ مِن حفظه؛ لأنَّ النَّظر فيه عبادة مطلوبة»[٤].

وإن كان الإمام النَّووي رحمه الله نظر في هذه المسألة إلى ما يزيد القارئ خشوعًا، فإن كانت قراءته من المصحف أكثر خشوعاً فهو أفضل، وكذلك لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة فيه ومن الحفظ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه.

وممَّا يُلاحظ في هذا الجانب أنَّ على القارئ وخصوصاً مَن أراد الحفظَ أن يختارَ طبعةً واحدة ليكونَ أثبتَ لحفظه.

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع ح (٣٥٨).
(٢) الإتقان (١/ ٣٠٢).
(٣) صحيح البخاري (١/ ١٣٠٥)، باب التوحيد ح (٧٥٢٧).
(٤) الإتقان(١/ ٣٠٤).

وما يلحظ أيضاً أنَّ عليه أن يحترم المصحف، فلا يضعه على الأرض ولا يرمي به لصاحبه إذا أراد مناولَته إيَّاه، ولا يمسّه إلا وهو طاهرٌ.

١٠ - القراءة في مكان مناسب، وذلك مثل المسجد، وهو أفضل مكان، أو مكان في البيت بعيداً عن الموانع والشواغل والأصوات التي تشغله عن التدبر والتفهم.

وعليه ألَّا يقرأَ القرآن في المجمعات التي لا تحترم القرآن.

ج- قواعد مهمَّة في فهم القرآن:

١- أفضل أنواع التفسير وأصحها وأقواها: التفسيرُ بالمأثور، وهو على مراتب كما يلي:

أ- إنَّ أصحَّ طرق التفسير، هو تفسير القرآن بالقرآن؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ كثيراً ممَّا أجمل مِن القرآن قد فُسِّر في موضع آخرَ، وبين المراد منه وما ورد مختصراً في موضع بُسِطَ في موضع آخر، وهكذا، وإذا ظهر هذا وجب الأخذ به والاعتماد عليه، ولا يجوز العدول عنه إلى غيره إذ لا أحدَ أعلم بمرادِ الله منه سبحانه.

ولذا نجد أنَّ الرسول ﷺ قد وجَّه صحبه الكرام رضي الله عنهم إلى هذه الطريقة، وذلك لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢]. وشقَّ عليهم ذلك، وقالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسَه؟ قال لهم رسول الله: (**ليسَ كما تَظُنُّونَ، إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ**: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣])[١].

ولذا نجدُ اهتمام بعض المفسرين بهذه الطريقة اهتماماً بالغاً.

ب- فإن لم يظهر ذلك نلجأ إلى الطريقة الثانية من الطرق الصَّحيحة في تفسير القرآن العظيم، بما صحَّ عن رسول الله ﷺ، ولا ريبَ أنَّه لا أحدَ أعلم بمراد الله بعده سبحانه من نبيِّه ورسول ﷺ، كيف وهو المبلِّغ عن ربِّه، وقد كلَّفه ببيان ما نزل إلى العباد مِن ربِّهم.

ج- فإن لم يظهر ذلك مِن الطريقتين السابقتين، فأمامَك الطريقة الثالثة، وهي تفسيره بأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء (١٢٢٦/٣) ح (٣١٨١)، ومسلم كتاب الإيمان (١١١/٤)ح(١٩٧).

إذ لا ريب أنَّ الذين اختارَهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ وتلقوا عن رسول الله ﷺ وعاصروا نزول القرآن، وعرفوا عادات العرب وعاشوها، تميزوا على غيرهم، هذا مع ما حباهم الله به من الفهم التامِّ والعلم الصحيح، والتمكن الرَّفيع في علم اللسان.

٢- فيما أُبْهِمَ مِن القرآن:

تكلَّم العلماء عن الإبهام في القرآن، وصنفوا فيه بعض المصنفات، ولعل سائلا يسأل عن سبب وجود الإبهام في القرآن؟

وقد أجاب السيوطي ﷺ عن هذا التساؤل فقال: وللإبهام في القرآن أسباب، ثمَّ ذكر هذه الأسباب؛ أختصرها فيما يلي:

١ – الاستغناء بيانه في موضع آخر كقول الله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. فإنَّه مبيَّن في قوله: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[النساء: ٦٩].

٢– أن يتعيَّن لاشتهارِه كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥].ولم يقل حواء لأنه ليس له غيرُها.

٣– قصد الستر عليه ليكون أبلغَ في استعطافه مثل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[البقرة: ٢٠٤].

٤– أن لا يكونَ في تعيينه كبير فائدة نحو: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

٥– التنبيه على العموم، وأنّه غير خاصٍّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾[النساء: ١٠٠].

٦– تعظيمه بالوصف الكامل دونَ الاسم، نحو: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ﴾[النور: ٢٢].

٧– تحقيره بالوصف الناقص،نحو: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[1] [الكوثر: ٣].

(١) ينظر: الإتقان (٢/ ١٤٥).

فهـذه أهـمُّ أسـباب وجـود الإبهـام فـي القـرآن الكريـم، وخصوصـاً فيمـا لا يكـون فـي تعيينـه كبيـر فائـدة ولا يتوقـف علـى تعيينـه أمـر مـن أمـور العبـادة، كأسـماء أصحـاب الكهـف مثـلا ولـون كلبهـم، ونـوع الشـجرة التـي نهـي آدم عـن الأكل منهـا أو غيـر ذلـك، وهـو كثيـر ممَّـا لا فائـدةَ فـي البحـث عنـه وتعيينـه.

٣- العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

هـذه قاعـدةٌ مِـن قواعـد التفسـير نافعـة جـدًّا، بمراعاتهـا يحصـل للعبـد خيـرٌ كثيـر وعلـمٌ غزيـرٌ، وبإهمالهـا وعـدم ملاحظتهـا يفوتـه علـم كثيـر، ويقـع فـي الغلـط والارتبـاك الخطيـر[١].

ومثـال ذلـك: مـا قالـه المفسِّـرون فـي أسـباب النـزول مثـلا، فإنمـا هـو علـى سـبيل المثـال، لتوضيـح الألفـاظ، وليسـت الآيـات مقصـورةً علـى هـذه الأسـباب فحسـب، وليسـت مقصـورة علـى مَـن نزلـت فيـه الآيـة فقـط، إلا إذا وردَ مـا يـدلُّ علـى ذلـك.

وهكـذا فـي الألفـاظ العامَّـة جميعـا، حيـث تتنـاول أشـياءَ كثيـرةً تدخـل تحتَها .

يقـول الإمـام ابـن سـعدي رحمه الله: «وإذا أمـر بشـيء نظـرت إلـى معنـاه ومـا يدخـل فيـه، ومـا لا يدخـل، وعلمـت أنَّ ذلـك الأمـر يوجَّـه إلـى جميـع الأمَّـة، وكذلـك النهـي... فمراعـاة هـذه القاعـدة أكبـر عـون علـى معرفـة حـدود مـا أنـزل الله علـى رسـوله، والقيـام بهـا»[٢].

(١) انظر القواعد الحسان، ص (٧).
(٢) انظر القواعد الحسان، ص (٨).

ثانيا: التفسير

١-تفسير بعض السُّور والآيات التي تتكرر قراءة المسلم لها، ومن ذلك تفسير ما يلي:

أ- تفسير سورةِ الفاتحة:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

١ - **السورة مكيَّة** وعليه أكثرُ العلماء[١].

٢- **اسمُها:** هذه السُّورة لها أسماءٌ كثيرةٌ، وذلك يدلُّ على شرفها وعظَمها، و كثرة الأسماء دالَّة على شرفِ المسمَّى.

(١) انظر تفسير البغوي (١/ ١٦)، والمحرر الوجيز (١/ ٦١).

ومن أشهرِ أسمائها:

«فاتحة الكتاب، أمُّ الكتاب، القرآنُ العظيمُ، أمُّ القرآن، السَّبعُ المثاني».

٣- فضل السورة:

هذه السورة لها فضلٌ عظيم، وقد وردت الأحاديثُ الصَّحيحة مبينةً ذلك، فمنها:

أ- ما رواه عبادةُ بن الصَّامت رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**لَا صَلَاة كَامِلَة لمن لم يقْرَأ بِفَاتِحَة الْكتاب**»[١].

ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: (**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، **قالَ اللَّهُ تَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ:** ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، **قالَ اللهُ تَعالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقالَ مَرَّةً فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي، فإذا قالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ:** ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ **قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ**)[٢].

وغير ذلك كثير ممَّا صحَّت به السنَّة في فضل هذه السورة العظيمة.

٤-فضل (آمين):

في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا أَمَّنَ**

(١) صحيح الجامع، كتاب الأذان (١/ ١٨٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كاب الصلاة (١/ ٢٩٦)ح (٣٩٥).

الإِمَامُ، فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

عند مسلمٍ في صحيحه: «وَإِذْ قَالَ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ»[2].

٥- قراءتها في الصَّلاة:

تجب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعةٍ على كل مسلم، ولا تقوم ترجمتها ولا غيرها من القرآن مقامها.

وقراءتها ركن في الصَّلاة فرضاً ونفلاً[3]، وينبغي للمأموم في الصلاة الجهرية أن يقرأها سرًّا.

٦- معاني الكلمات:

﴿الحَمْدُ﴾: الثناء على الله بصفاتِ الكمال وبما هو أهله.

﴿لله﴾: هو المألوه المعبودُ، المستحِقُّ لإفرادِه بالعبادة.

﴿رب﴾: الرَّبُّ هو: المربِّي، وهو المالك، والرَّبُّ اسمٌ من أسماء الله سبحانه، ولا يطلق على غيره إلا مضافًا، فيقال: رَبُّ الدَّار، وهكذا.

﴿العالمين﴾: هو كلُّ ما سوى اللهِ.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: اسمان دالَّان على أنَّه تعالى ذو رحمةٍ واسعةٍ عظيمةٍ.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: أي: يوم القيامة، وسمِّي بيوم الدِّين؛ لأنَّ اللهَ

(١) صحيح البخاري، كتاب الآذان (٢/ ٢٦٦) ح (٧٨٢).
(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة (١/ ٢٩٧).
(٣) انظر نهاية المحتاج (١/ ٤٧٦).

تعالى يدينهم بأعمالهم إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، ومعنى أنَّه مالك يومِ الدِّين: أنَّ الأمرَ كلَّه لله، ويظهر للخلق ـ تمامَ الظهور ـ كمالُ ملكِه، وانقطاع أملاك الخلائق.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أي لا نَعبدُ إلا الله وحدَه، ولا نستعين إلا به، فنخصُّه بالعبادة والاستعانة ونترك ما عداه، والعبادة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضارِّ مع الثقة به في تحصيل ذلك، وقدَّم العبادة على الاستعانة اهتماماً بتقديم حقِّه تعالى على حقِّ عبده.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أي دلنا وأرشدنا ووفقنا، والصِّراط المستقيم: هو الطريقُ الموضح الموصل إلى الله وهو الإسلام وهو ما عليه المنعَم عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: وهم من عَرَفَ الحق وتركه، كاليهود ومن شابههم، ممن علم ولم يعمل بعلمه.

﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾: وهم النَّصارى وكلُّ مَن عَبَدَ الله على جهل وضلال.

(آمين): هذه ليست مِن الفاتحة ومعناها: اللهم استجب ويستحبُّ أن يقولها الإمام والمأموم والمنفرد.

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتوِ عليه أي سورة من سور القرآنِ، فتضمنت أنواعَ التوحيد: توحيد الربوبية، وذلك في قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾، وتوحيد الألوهية، ويؤخذ من لفظ الجلالة (الله) ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتوحيد

الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله، وذلك من إثبات الحمد وغيره.

٦- الفوائد المستنبطة من السورة:

١ - إثباتُ أنواع التوحيد الثلاثة، وقد تقدَّم تفصيل ذلك.

٢- إثباتُ النُّبوة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنَّ ذلك ممتنع بدون الرسالة.

٣- إثباتُ الجزاء والحساب على الأعمال في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٤- أنَّ الصلاة التي لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فيها خِداجٌ -أي ناقصة-.

٥ — اشتملت هذه السورة على أجمعِ الأدعية وأنفعِها للعبد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ ولهذا وجبَ على الإنسان أن يدعوَ اللهَ به في كلِّ ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك.

ب- تفسير آية الكرسي:

قالَ تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥].

١-فضلُ هذه الآية:

أخبرَ النَّبي ﷺ أنَّ هذه الآيةَ أعظم آية في القرآن؛ لما احتوت عليه من معاني التوحيدِ والعظمة، وسعة الصِّفات للباري تعالى[١].

وما ورد في فضلها ما يلي:

-عن أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال له: «**أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ معكَ أعْظَمُ؟ قالَ: قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. قالَ: قُلتُ:** ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]. **قالَ: فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقالَ: واللَّهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ**»[٢].

- عن أبي هريرة قال: وكلَني رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو مِن الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ: فقصَّ الحديث وفيه: فقال: إذا أويتَ إلى فراشِك فاقرأ آيةَ الكرسيِّ، فإنَّه لا يزالُ معك مِن اللهِ حافظٌ ولا يقربك الشَّيطان حتى

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،ص (٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي(١/ ٥٥٦)

تصبح، فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ»[1].

هذا بعض ما صحَّ في فضلها، وقد وردَ في فضل هذه الآية الشيء العظيم، بل أُلِّفت المؤلفات في فضلها وتفسيرها.

٢-موضوعها:

تعظيم الله وذكر توحيدِه وقدرته.

٣- تستحبُّ قراءة آية الكرسي بعد كل صلاةٍ مكتوبةٍ وعند النَّوم، وتقرأ في البيوت لطرد الشيطانِ لما تقدَّم في فضلِها.

٤-معاني الكلمات:

﴿الله﴾: تقدَّم في سورة الفاتحة، وهو المألوه المعبود المستحِقُّ لإفرادِه بالعبادة.

﴿الْحَيُّ﴾: الدَّائم الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها من الصِّفات الذاتية لله.

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم على كلِّ شيء، ويدخل تحتَ هذه الصفة جميع صفات الأفعال؛ لأنَّه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها وأمدَّها بجميع ما تحتاجه.

﴿سِنَةٌ﴾: ما يتقدَّم النَّومَ مِن الفتور الذي يسمَّى النُّعاس، والسِنَةُ والنَّوم إنما يحتاجهما المخلوق لضعفه وعجزه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: الشَّفاعة هو الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام مَن هو

(١) رواه البخاري.

أعلى حرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى[1]، وهذا من عظمته وجلاله أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحدٍ عندَه إلا بإذنه له في الشفاعة.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسي: موضع القدمَين، وأمَّا العرش فإنَّه لا يقدر قدره، وهذا القول هو أرجح الأقوال التي قيلت في معناه.

﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾: أي لا يثقله ولا يكرثه ولا يشق عليه حفظ السَّموات والأرض، لكمال عظمته واقتداره وسعة حكمته في أحكامه.

﴿الْعَلِيُّ﴾: بذاته على جميع مخلوقاته، والعلي بعظمة صفاته، والعلي الذي قهر المخلوقات ودانت له الموجودات.

﴿الْعَظِيمُ﴾: الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

هذه الآية العظيمة التي احتوت على هذه المعاني التي هي أجلُّ المعاني التي ملأت القلب مهابة من الله وجلاله وكماله، يحقُّ أن تكون أعظمَ آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبراً لها متفهماً لمعناها أن يمتلئ قلبُه من اليقين والإيمان، وأن يحفظَه الله مِن الشيطان.

٥- ما يستفاد من هذه الآية:

هذه الآية كلُّها فوائد بل كل كلمةٍ منها فيها فوائد عديدة، ولعلِّي فيما يلي أشير إلى أهم وأعظم هذه الفوائد، فمنها:

١- أنَّ آية الكرسيِّ أعظم آية في كتاب الله على الإطلاق، وقد اشتملت على كثير من أسماءِ الله ﷻ وصفاته.

٢- كمال قيُّوميَّته تعالى وقدرته وسعة ملكه وعظمته، وهذا يدعو إلى التدبر والتفكر في ذلك.

(١) المفردات، مادة (شفع).

٣- أنَّ اللهَ لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾،وهذا يستلزم على المسلم أن يستشعر ذلك في حياته كلها.

٤- إثبات الشفاعة وأنَّها لا تحصل إلا بشروطها: إذنه تعالى ورضاه عن المشفوع له ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

ج- تفسيرُ خواتيم سورةِ البقرة -الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة-:

قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

١-فضل هاتَينِ الآيتين:

- عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورةِ البَقَرةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[١].

ومعنى كفَتاه: أي كفتاه مِن جميعِ الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، وقيل: كفتاه قيام تلك الليلة.

- ما أورده الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، وفيه: «...**فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثاً: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ. وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ**...»[٢].

والأحاديثُ في فضل هاتين الآيتين كثيرة، أورد طرَفاً منها الإمامُ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهاتين الآيتين.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، المغازي، انظر الفتح(٩/ ٥٥) ح(٥٠٩)، وفي مسلم كتاب صلاة المسافرين (١/ ٥٥٤) ح (٨٧).
(٢) صحيح مسلم، رقم (١٧٣).

٢-ما قيل في سبب نزولها:

أخرجَ مسلمٌ في صحيحه وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلَت: ﴿وإِنْ تُبْدُوا ما فى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ به اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قالَ: فاشْتَدَّ ذلكَ علَى أصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فأتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رَسولَ اللهِ، كُلِّفْنا مِنَ الأعْمالِ ما نُطِيقُ، الصَّلاةَ والصِّيامَ والْجِهادَ والصَّدَقَةَ، وقدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِه الآيَةُ ولا نُطِيقُها، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولوا كما قالَ أهْلُ الكِتابَيْنِ مِن قَبْلِكُمْ سَمِعْنا وعَصَيْنا؟ بَلْ قُولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَها القَوْمُ، ذَلَّتْ بها أَلْسِنَتُهُمْ، فأنْزَلَ اللَّهُ في إثْرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ ..... المَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذلكَ نَسَخَها اللهُ تَعالَى، فأنْزَلَ اللهُ: { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ .....إلى آخره)[1].

٣- هذه الآيات تستحبُّ قراءتها عند النَّوم، لما ورد في الحديث المتقدم في فضلها: «مَن قَرَأَهُما في لَيْلَةٍ كَفَتاهُ».

ولما روي عن علي رضي الله عنه قال: «مَا أَرَى أَحَدًا يَعْقِلُ، بَلَغَهُ الْإِسْلَامُ، يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ»[2].

وتستحبُّ قراءتها في البيت لطرد الشيطان لما رواه النُّعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كتب كتابًا قبلَ أنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ بِألفَيْ عَامٍ، أنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ، خَتَمَ بِهما سورةَ البَقَرَةِ، لا يقْرَآنِ

(١) رواه الإمام مسلم، رقم (١٢٥)، وأحمد (٢/ ٤١٢).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧٣٥).

فـي دَارٍ ثـلاثَ لَيـالٍ فَيَقْرَبُهـا شَـيْطَانٌ»[1].

٤-معاني الكلمات:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾: أي صدَّق بما أوحي إليه، تصديقَ يقين واطمئنان.

﴿سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا﴾: هـذا التـزام مـن المؤمنيـن لجميـع مـا جـاء بـه النبـيُّ ﷺ وأنَّهـم سـمعوه سـماعَ قبـولٍ، وإذعـانٍ وانقيـادٍ وفهمنـاه وقمنـا بـه وامتثلنـا العمـل بمقتضـاه.

﴿غُفْرَانَـكَ﴾: سـؤال للمغفـرة والرَّحمـة، والمغفـرة: هـي سـتر الذنـوب مـع التجـاوز عنهـا يـوم القيامـة.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: إليك المرجِعُ والمآب يوم الحساب.

﴿لا يُكَلِّـفُ اللَّهُ نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا﴾: أي لا يكلِّـف أحـداً فـوقَ طاقتـه ومقدرتـه، فالتكليـف هـو الأمـر بمـا فيـه مشـقة، والوسـع: الطاقـة، فـاللهُ لا يكلـف عبـادَه إلا مـا يطيقونـه ويتيسـر لهـم، فضـلا منـه ورحمـة بهـم.

﴿لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَعَلَيْهَـا مَـا اكْتَسَـبَتْ﴾: أي لهـا خيـر مـا كسـبته لنفسـها مـن قـولٍ أو فعـل، وعليهـا شـرُّ مـا كسـبته.

﴿رَبَّنَـا لا تُؤَاخِذْنَـا إِنْ نَسِـينَا أَوْ أَخْطَأْنَـا﴾: أي إن تـركا فرضـاً علـى جهـة النسـيان أو فعلنـا حرامـاً كذلـك، فـلا تحاسـبْنا علـى ذلـك، أو كان هـذا العمـل علـى جهـة الخطـأ جهـلا منَّـا بوجهـه الشـرعي.

﴿وَلا تَحْمِـلْ عَلَيْنَـا إِصْرًا﴾: الإصـر: التكليـف الشَّـاقُّ، فـلا تكلفْنـا مـن الأعمـال الشـاقَّة كمـا شـرعته للأمـم السَّـابقة.

﴿أَنْـتَ مَوْلانَـا﴾: أي أنـت وليُّنـا وناصرنـا وعليـك توكلنـا وأنـت

(١) المستدرك (١/ ٥٦٢).

المستعان، وعليك التكلان، ولا حولَ ولا قوَّة لنا إلا بك.

ففي هذه الآيات الكريمة إخبارٌ مِن الله ﷻ عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين بأنَّهم آمنوا بكلِّ ما أوحي إلى رسولنا ﷺ، وآمنوا باللهِ وكتبه ورسلِه جميعاً لا فرق بينهم، وامتثلوا وعملوا وسمعوا وأطاعوا وطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم، وتضرَّعوا إليه في طلب الإعانة على القيام بهذا الواجب.

وفيها الإخبار بأنَّ الله لا يكلِّف عباده إلا ما يطيقونه، وأنَّ لكلِّ نفس ثوابَ ما كسبت مِن الخير وعليها عقاب ما اجترحت من الشرِّ، وأنَّ الله يغفر لهم ما قصَّروا فيه من الواجبات وما ارتكبوا من المحرمات، ورفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنِّسيان، وأنَّ الله سهَّل شرعه غاية التسهيل ولم يحملْهم من المشاقِّ والآصار والأغلال ما حمَّله مَن قبلَهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين[1].

وقد بيَّن الله ذلك هذا الفضل بقوله: قد فعلت، بعد كل دعاء من هذه الأدعية في هذه الآيات.

٥-ما يستفاد من هذه الآيات:

١- ذكر صفة المؤمن العالية وهي السمع والطاعة والالتزام لأوامر الله.

٢- أنَّ من ضروريات الإيمان، الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله.

٣- وجوب الإيمان برسله وكتبه أجمعين، وعدم التفريق بينهم.

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص (١٠).

٤- رحمة الله بعباده حيث لم يحمَّلهم إلا ما يطيقونه من الأعمال، وعدم مؤاخذتهم بما عملوه نسياناً أو جهلا بحكمه أو خطأ.

٥ - في الآيات ما يفيد التيسير وعدم المشقة في أمور الدِّين.

٦- إجابة الله لدعاء عباده المؤمنين بهذه الدعوات؛ ولذا شرع قراءتهما في البيت وعند النَّوم.

فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما منَّ به علينا من التزام دينه أن يحقِّق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيِّه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

د- تفسير سورةِ العصر:

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

١ - معلومات عامَّة:

السورة نزلت بمكَّة، وعدد آياتها: ثلاث آيات.

٢-فضلُها:

روى الطبراني في المعجم الأوسط[١] بسنده عن عبدِ الله بن حصن قال: كان الرَّجلان مِن أصحاب رسولِ الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرَّقا إلا على أن يقرأ أحدُهما على الآخر (سورة العصر) إلى آخرها، ثمَّ يسلم أحدهما على الآخر.

وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبَّر النَّاس هذه السورة لوسعتْهم.

٣- معاني الكلمات:

﴿وَالْعَصْرِ﴾: الواو للقسم، والعصر: هو الزَّمان الذي تقع فيه حركات بني آدم.

﴿الإِنسَانَ﴾: المراد به جميع أفراد الإنسانية.

﴿خُسْرٍ﴾: أي خسارة وهلاك.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بيَّن الله أنَّ الإنسان في خسارة تامَّة إلا مَن اتصف بأربعة أشياء هي:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

(١) رقم (٥٠٩٧).

فجمعوا بين التصديق والإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتمُّ إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلِّها -الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه-.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: وتناصحوا وتعاهدوا وأوصى بعضهم بعضاً به، وحثه ورغبه على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: أوصى بعضهم بعضاً على الصبر بأقسامه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

ففي هذه السورة العظيمة يتبين أنَّ الناس جميعاً في خسرانٍ إلا مَن اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي به، والصبر عليه.

فبالأمرين الأوَّلَين يكمِّل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسارةِ وفاز بالربح العظيم، وهذا ما يسعى إليه الإنسان العاقل في حياته.

٤- فوائد مستنبطة من السورة:

١- أنَّ لله أن يُقْسِمَ بما شاء من خلقه، أمَّا العبد فلا يجوز له أن يقسم إلا بخالقه لقول الرسول ﷺ: (**مَن حلَفَ بغَيرِ اللهِ فقدْ كفَرَ أو أشرَكَ**).

٢- أنَّ جنس الإنسان في خسارة إلا مَن اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصي بالحق، والصبر على ذلك.

٣- أنَّ الإيمان وحدَه إذا تجرَّد عن العمل لا ينفع صاحبه.

٤- فضل الدعوة إلى الله ﷻ والتواصي بها.

٥- فضل الصبر بكلِّ أنواعه وبخاصَّة ما يصيب المسلم من جراء دعوته إلى ربِّه من ضرر من قول أو فعل في جسده أو ماله أو ولده.

هـ- تفسير سورة الكافرون:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

١-معلومات عامَّة:

نزلت السورة بمكَّة، وعدد آياتها: ست آيات.

٢-فضل السورة:

ورد في فضل السورة أحاديث كثيرة جدًّا منها:

- أنَّها تعدل ربعَ القرآن:

روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ من أصحابه: «...**أَلَيْسَ مَعَكَ** ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ؟ **قَالَ: بَلَى، قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ**»[١].

- وهي أيضاً براءة من الشرك:

لما روى الطبراني بسنده عن جبلة بن حارثة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: **(إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقرَأْ** ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ **حتى تمر بآخِرِها فإنَّها براءةٌ مِن الشِّرْكِ)**[٢].

٣- **يسنُّ القراءة بهذه السورة** وبسورة الإخلاص في ركعتَي الطَّواف، لما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ بهما[٣].

---

(١) رواه الترمذي، رقم (٢٨٩٥)، وقال: حديث حسن.
(٢) المعجم الكبير (٢/ ٢٨٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٢١): رجاله وثقوا.
(٣) صحيح مسلم ح (١٢١٨).

ويسنُّ القراءة بهما في ركعتَي الفجر، لما في صحيح مسلم عن أبي هريرة.

ويقرأ بهما في الركعتَين بعدَ المغرب، لما روى أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً**»[1].

ويقرأ بها عندَ النَّوم لما تقدَّم في فضل السورة.

٤- سبب نزولها:

روى ابن أبي حاتم عن عبدِ الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ قريشاً دعت النبيَّ ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكَّة، ويزوجوه ما أراد من النِّساء، وقالوا: هذا لك يا محمَّد وتكف عن شتم آلهتنا، و لا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة أخرى، فقال رسول الله ﷺ: «**حتى أنظر ما يأتيني من ربي**» فأنزلَ الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة، وأنزل ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾)[2].

٥- مع السورة:

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص، ولذا سميت سورة الإخلاص.

أمر الرسول ﷺ أن يقول ويعلن لكلِّ كافر على وجه الأرض أنَّه بريء من عبادتهم ومما يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً ﴿لا

(١) المسند (٢/ ٢٤).
(٢) تفسير ابن ابي حاتم (١/ ٣٤٧١) ح (١٩٥١٨) وتفسير ابن كثير (٨/ ٥٠٧).

أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾فتبرَّأَ مِن دينهم بالكلية من الأصنام والأنداد، وإنَّما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه.

وقطع أطماعهم من أن يجيبهم إلى عبادة آلهتهم بهذا التكرار في هذه السورة، للتأكيد على إخلاص العبادة لله وحده ونبذ ما سواه.

٦- من الفوائد المستنبطة:

١- بيان عصمة الرَّسول ﷺ وتزكيته من إتباع المشركين.

٢- أنَّ طريق المؤمن لا يلتقي مع طريق الكافر، فالمؤمن يتبع سبيل الله، والكافر يتبع سبيل الشيطان.

٣- شموخ المؤمن وعلوِّه حيث لا يسجد لصنم ولا يرضى بعبادة غير الله.

٤- تأكيد الكلام بتكراره في الأمور المهمة.

٥- الجزاء على الأعمال يومَ القيامة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

و- تفسير سورة الإخلاص:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

١-معلومات عامَّة:

تسمَّى سورة الإخلاص، وتسمَّى سورة الصمد، وتسمَّى سورة «قل هو الله أحد»، عدد آياتها: أربع، نزلت بمكَّة، وقيل: نزلت بالمدينة.

٢- موضوع السورة:

التوحيد.

٣- فضل السورة:

هذه السورة لها فضل عظيم من ذلك:

- أنَّها تعدل ثلث القرآن، لما روى البخاري بسنده عن أبي سعيد، قال: «**قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»**»[١].

- وهي أيضاً تورث محبَّة الله، لما روى البخاري بسنده في قصة الرجل الذي يختم في صلاته بهذه السورة، فلمَّا سأله الرسول ﷺ قال: لأنَّها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأها، فقال النبيُّ ﷺ: «**أخبِروه أنَّ اللهَ يُحِبُّه**»[٢].

---

(١) صحيح البخاري ح (٥٠١٥).

(٢) صحيح البخاري ح (٧٣٧٥).

٤- سبب نزولها:

روى الإمام أحمد بسنده عن أبيِّ بن كعب ﵁ أنَّ المشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمَّد انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1].

وقيل: إنَّ اليهود هم الذين سألوا الرسول ﷺ عن ذلك.

٥- تقدَّم في السورة السابقة المواضع والصلوات التي تقرأ فيها السورة، وهي: ركعتا الطواف، وركعتا الفجر، والركعتان بعد صلاة المغرب.

٦- معاني المفردات:

﴿الصَّمَدُ﴾: الذي يصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم، وهو الذي قد كمُلَ في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانَه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

﴿كُفُوًا﴾: أي مكافئاً ومماثلاً، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٧- بعض الفوائد المستنبطة:

١ - فضل هذه السورة حيث تعدل ثلث القرآن وذلك أنَّها تحدثت عن التوحيد.

٢- بطلان نسبة الولد والوالد إليه سبحانه، فهو الغني المطلق. وهذا فيه ردٌّ على من ادَّعى نسبة الولد إليه كاليهود والنصارى.

٣- تقرير توحيد الألوهية.

٤ - وجوب تنزيه الله عن الصاحبة والولد وأنَّه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

(١) المسند (٥/ ١٣٣).

ز- تفسير سورة الفلق:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

١-فضل السورة:

ورد في فضل هذه السورة وسورة النَّاس أحاديث كثيرة جدًّا، من ذلك ما يلي:

- ما رواه مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**»[١].

- وروى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر وفيه أنَّ الرسول ﷺ قال: (**يا عقيب ألَا أُعلِّمُكَ سورتَينِ مِن خَيرِ سورتَينِ قرَأَ بهِما النَّاسُ. فأقرَأَني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فأُقيمَتِ الصَّلاةُ، فتقدَّمَ، فقرَأَ بهما، ثمَّ مرَّ بي، فقالَ: كيفَ رأَيتَ يا عُقْبةُ بنَ عامرٍ؟ اقرَأْ بهما كُلَّما نِمتَ وقُمتَ**)[٢].

٢- ما تقرأ فيه السورة:

-عند الشكوى:

لما روى مالك بسنده عن عائشة رضي الله عنها: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفِثُ، قَالَتْ : فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ،**

(١) صحيح مسلم ح(٨١٤).
(٢) المسند (٤/ ١٤٤)، وسنن النسائي (٨/ ١٥٣).

كُنْتُ أَنَا أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَلَيْهِ بِيَمِينِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»[1].

-عند النَّوم:

كما تقدم في الحديث في فضلها، وكما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا أوَى إلى فِراشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمع كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِما فَقَرَأَ فِيهِما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِما ما اسْتَطاعَ مِن جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِما علَى رَأْسِهِ ووَجْهِهِ وما أقْبَلَ مِن جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»[2].

٤- معاني الكلمات:

﴿أعُوذُ﴾: ألتجئ وأعتصم بك يا الله.

﴿الْفَلَقِ﴾: الصبح، أو الخلق؛ أمر الله نبيَّه أن يتعوَّذ من الخلق كلِّهم.

﴿غَاسِقٍ﴾: الليل إذا أقبل بظلامِه.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾: إذ غربت الشَّمس ودخل ظلام الليل.

﴿النَّفَّاثَاتِ﴾: السواحر إذا رقين ونفثن في العُقَدِ فيسحرون النَّاس.

﴿حَسَدَ﴾: الحسد هو تمنِّي زوال النِّعمة عن الغير.

فهذه السورة تضمَّنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عموماً وخصوصاً، وتضمنت الالتجاء إلى الله والعياذ بكنفه والعياذ به من كلِّ سوء، والاعتصام به من شرور مخلوقاته جميعاً.

(١) الموطأ، باب التعوذ والرقية في المرض، ص (٩٤٣).
(٢) صحيح البخاري (٩/ ٦٣) ح (٥٠١٧).

٥- بعض الفوائد المستنبطة:

١- وجوب الاستعاذة بالله وحدَه من كلِّ ما يضر وخصوصاً الظلام والسحر وأهله، والحسد وأهله، لعظم شرورهم.

٢- فضل هذه السورة ونفعها العظيم في العلاج من المرض والعين والسحر.

٣- دلَّت هذه السورة على حقيقة السحر.

٤- النَّهي عن الحسد وأنَّه خصلة مذمومة.

ح- تفسير سورة الناس:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

١-فضل السورة:

تقدم في السورة السابقة بيان ذلك.

٢- المواضع التي تقرأ فيها هذه السورة:

وقد تقدم أيضاً.

٣-معاني الكلمات:

﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾: أي مالكهم وخالقهم، وهذه ثلاث صفات من صفات الرب تعالى، الربوبية والملك والألوهية، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة، عبيد له.

﴿الْوَسْوَاسِ﴾: الشيطان الموكل بالإنسان، يوسوس للنَّاس ويزين لهم الشرَّ والمعصية.

﴿الْخَنَّاسِ﴾: صفة الشيطان من الخنس وهو الابتعاد والاختفاء عند ذكر الله، فهو كثير الخنوس والتأخر، فإذا ذكر الله انقبض، وإذا لم يذكر العبد ربَّه انبسط له وطرب.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾: بالإغراء بالمعاصي والحض على الشرِّ دعاؤه العبد إلى طاعته وعبادته، وأصل الوسوسة الكلام الخفي الذي يصل إلى القلب ولا يسمع له صوت.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: أي من شياطين الجنِّ والإنس، فوسوسة شيطان الجنِّ كما سبق، أما وسوسة شيطان الإنس فهي أن يظهر لصاحبه أنَّه ناصح مشفق فيطاوعه ويتبع أثره.

٤- بعض الفوائد المستنبطة:

١ - مشروعيَّة الالتجاء إلى الله والتعوذ به من الشيطان وأعوانه.

٢- مشروعية الثناء على الله بما هو أهله من صفات المدح والجلال قبل السؤال.

٣- أنَّ مَن التجأ إلى الله بصدقٍ كفاه.

٢- تفسير بعض الآيات التي تتناول بعض صفات المؤمنين في القرآن ويشمل ذلك ما يلي:

أ- تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة:

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

١-حول الآية:

هذه الآية جمعت كثيراً من صفات الصادقين، بل جمعت أنواع البرِّ كلَّها.

٢-ما قيل في سبب نزولها:

ذكر ابن كثير رحمه الله: أنَّ الله تعالى لما أمر المؤمنين أوَّلا بالتوجه إلى بيت المقدس ثمَّ حوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أنَّ المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع، فهذا هو البرُّ والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه[١].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧١).

٣- معاني المفردات:

﴿الْبِرَّ﴾: هو جماع الخير، والمعنى: أنَّ هذا التولي قِبل المشرق أو المغرب ليس هو البر المقصود من العباد.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾: أي مَن اتَّصف بهذه الصفات المذكورة في هذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها.

﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾: أي بأنَّه إله واحد لا إله إلا هو، موصوف بكل صفة كمال، منزَّه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾: أي يوم القيامة وما أخبر الله به في كتابه، أو ما أخبر به رسوله ﷺ مما سيكون بعد الموت، وسمِّي يومُ القيامة -اليومَ الآخر-: لتأخُّره بعد الدنيا.

﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾: أي صدَّق بوجودهم الذين هم السفرة الكرام، وصدَّق بما وصفوا به في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

﴿وَالْكِتَابِ﴾: اسم جنس يشمل الكتب المنزلة مِن السَّماء على الأنبياء، وأعظم هذه الكتب القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام فهو آخرها مهيمن عليها.

﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾: أي صدَّق بأنبياء الله كلِّهم من أولهم إلى آخرهم وهو محمَّد ﷺ.

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾: أي أعطى المال مع حبِّه له، فمن أخرجه مع حبِّه له قربة إلى الله كان هذا برهاناً ودليلاً على إيمانه، ولذلك كان هذا العمل أفضل الصدقة: (أن تَصَّدَّق وأنت صحيح شحيح).

﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾: أي الأقارب الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح

بسـرورهم، وهـم أولـى النَّـاس ببـرك وإحسـانك.

﴿وَالْيَتَـامَى﴾: وهـم مـن فقـدوا آباءهـم ولا كاسـب لهـم، وليـس لهـم مـال يسـتغنون بـه.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: المسافر الغريب المنقطع عن بلده.

﴿وَالسَّـائِلِينَ﴾: أي الذيـن يسـألون النَّـاس لسـدِّ حاجتهـم كمـن ابتلـى بـأرش جنايـة أو ضربـة، أو ديـن يعجـز عـن سـداده.

﴿وَفِي الرِّقَـابِ﴾: يدخـل فـي هـذا عتـق الرِّقـاب والوفـاء عـن المكاتـب وفـداء الأسـرى وغيـر ذلـك.

﴿وَأَقَـامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الـزَّكَاةَ﴾: فهاتـان العبادتـان أُمَّـا العبـادات البدنيـة والماليـة، وبهمـا يـوزن الإيمـان.

﴿وَالْمُوفُـونَ بِعَهْدِهِـمْ﴾: العهـد: هـو الالتـزام بإلـزام الله، أو إلـزام العبـد نفسـه، فهـم يوفـون ويتمـون ويـؤدون مـا عليهـم مـن العهـود بينهـم وبيـن الله، وبينهـم وبيـن العبـاد، وبينهـم وبيـن أنفسـهم مـن نـذور وغيرهـا.

﴿وَالصَّابِرِيـنَ﴾: الصبـر: منزلـة رفيعـة وعزيـزة فـي الدِّيـن، وهـو حبـس النفـس، وهنـا صبـروا علـى البأسـاء والفقـر ومـا أصابهـم مـن المصائـب.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: هو المرض على اختلاف أنواعه.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: أي صبروا وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: أي المنصفون بهذه الصفات المتقدِّمة هم الذين صدقوا في إيمانهم وفعلوا المأمور وتركوا المحظور.

فهـذه الآيـة العظيمـة تناولـت بعـض صفـات المؤمنيـن، فالعبـادات المذكـورة فـي هـذه الآيـة أكبـر العبـادات وأشـرفها، ومـن قـام بهـا كان بمـا سـواها أقـوم، وهـذه الصفـات فـي هـذه الآيـة اشـتملت علـى كل خصـال الخيـر، فالوفـاء بالعهـد يدخـل فيـه الدِّيـن كلُّـه.

فمـن اتصـف بهـذه الصفـات والتزمهـا كان مـن الأبـرار الصادقيـن المتقيـن واسـتحق الثـواب الدنيـوي والأخـروي.

٤- ما يستفاد من هذه الآية:

١ - منزلة أركان الإيمان في الدِّين.

٢- مشروعيَّة الإنفاق في سبيل الله.

٣- النَّفقة على الأقارب أعلى من النَّفقة على غيرهم.

٤- منزلة الصَّلاة والزكاة في الدِّين.

٥- مشروعيَّة الصبر وعظم منزلته.

٦- أنَّ المتصف بهذه الصفات، يعدُّ من الأبرار.

ب- تفسير الآية (١٩٥) من سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

١-حول الآية:

مضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وبخاصَّة -كما بينه السياق القرآني- صرف الأموال في قتالِ الأعداء، والإخبار عن ترك ذلك بأنَّه الهلاك والدمار.

٢-سب نزول الآية:

ذكر ابن كثير رحمه الله بسنده عن أسلم بن عمران قال: «حمل رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية على صفِّ العدو حتى فرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسولَ الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيًّا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنَّا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلنا وأولادنا فنقيم فيهما فنزلت فينا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة ف الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد»[١].

٣- معاني المفردات:

﴿وَأَنفِقُوا﴾: أخرجوا المالَ في الطريق الموصل إلى الله -وهي كل طرق الخير-.

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي الطرق الموصلة إليه وهي كثيرة وأعظمها الجهاد في سبيله.

﴿تُلْقُوا﴾: أي تعملوا عملا يوجب لكم الهلاك من ترك ما أمرتم به، أو ارتكاب ما نهيتم عنه، أو فعل ما يوصل إلى تلف النَّفس والروح.

﴿التَّهْلُكَةِ﴾: الهلاك.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾: الإحسان: أعلى مقامات الطاعة وهو في كلِّ شيء من الإحسان بالمال والجاه، وغير ذلك، والإحسان في العبادة وهو أن تعبدَ الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

٤- بعض الفوائد المستنبطة من الآية:

١- وجوبُ إخراج المال في سبيل الله.

٢- النَّهي عن إهلاك الإنسان نفسَه وتعريضها للخطر.

٣- مشروعيَّة الإحسان في كلِّ شيء.

٤ - إثبات محبَّة الله ﷻ.

ج- تفسير الآية (٥٨) من سورة النساء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

١-حول الآية:

يأمرُ الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكمِ بين النَّاس بالعدل، ويخبر سبحانه بأنَّه سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، فلا يخفى عليه منَّا شيء.

٢- سبب نزول الآية:

ذكر العماد ابن كثير ﷺ في تفسيره في سبب نزول الآية بسنده، عن صفيَّة بنت شيبة: أنَّ رسول الله ﷺ لما نزل بمكَّة واطمأنَّ الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يتسلم الرُّكن بمحجن في يده، فلمَّا قضى طوافه دعا عثمانَ بنَ طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة وقد استكف له النَّاس في المسجد، قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم أنَّ رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدَقَ وعدَه، ونصَرَ عبدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه، ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمَيَّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج**» وذكر بقية الحديث في خطبة النبيِّ يومئذ إلى أنْ قال: ثمَّ جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ:

(**أين عثمان بن طلحة؟**) فدعي له، فقال له: «**هاك مفتاحَك يا عثمان، اليومَ يومُ وفاء وبرٍّ**) وذكر العماد ﷺ القصة بروايات متعددة وأسانيد مختلفة، ثمَّ عقَّب بقوله: (وهذا من المشهورات أنَّ هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أم لا، فحكمها عام، ولهذا قال ابن عباس ومحمَّد بن الحنفية: هي للبَرِّ والفاجر، أي هي أمر لكل أحد)[1].

٣- معاني المفردات:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾: الأمانات: كل ما اؤتمن عليه الإنسان، وأمر بالقيام به، فأمر سبحانه بأداء الأمانات إلى أهلها، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ﷻ على عباده، من صلوات وزكوات وصيام ونذور وكفَّارات، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه يوم القيامة.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: أمر الله تعالى، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به: هو ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكموا به.

﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾: أي بأمرك. به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين النَّاس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة، وهذا مدحٌ من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالهما على

(١) تفسير ابن كثير(٢/ ٣٣٨-٣٤١).

مصالح الدارين، ودفع مضارهما، لأنَّ الشارع الحكيم يعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾: أي سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم.

٤- أهم الفوائد المستنبطة من الآية:

أ- وجوب أداء الأمانات إلى أهلها.

ب- وجوب الحكم بالعدل بين النَّاس.

ج- أنَّ مصالح الدنيا والآخرة فيما أمر الله به.

د- إثبات صفة السمع والبصر لله ﷻ.

تفسير الآية (١١٩) من سورة التوبة:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩].

١-حول الآية:

لما ذكر الله ﷻ خبر الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله في غزوةِ تبوك وبيَّن لنا الحال التي صاروا فيها من ضيق الأرض عليهم بما رحبت، وضيق أنفسهم، وأنَّه لم ينجهم في محنتهم تلك إلا صدقهم في إيمانهم، ولما كان الصدق هو سبب نجاتهم، أردف بهذه الآية آمراً عباده بتقوى الله ولزوم الصدق.

٢- سبب نزول الآية:

نزلت هذه الآية عقب خبر الثلاثة الذين خلِّفوا عن رسول الله ﷺ: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، والقصة مذكورة في صحيح البخاري ومسلم وقد سردها العماد ابن كثير رحمه الله بطولها، وفيها: (.. وأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾)[1].

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ يومئذ.

٣-معاني المفردات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: هذا نداء لأهل الإيمان بهذه الصفة المحببة إليهم، فهم صدقوا بكل ما أمروا به.

(١) انظر تفسيره (٢/ ٥١٩) وما بعدها.

﴿اتَّقُوا اللهَ﴾: تقوى الله: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿الصَّادِقِينَ﴾: الصدق: هو الخبر الموافق للواقع، وموافقة الظاهر للباطن، والقول للفعل.

فأُمِر المسلمون في هذه الآية العظيمة بهذه الخصلة العظيمة -الصدق- فهو من صفات الرسل والمؤمنين، له عاقبة حميدة في عاجل الأمر وآجله، وخبر هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وصدقوا في اعتذارهم وبيان سبب تأخرهم كانت لهم العاقبة الحسنة، فالصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنَّة، وإذا تحرى الرجل الصدق في أعماله وأقواله كلِّها كتب عند الله صدِّيقاً.

٤-ما يستفاد من الآية:

أ - أنَّ الإيمان يوجب على صاحبه الالتزام بأوامر الله ﷻ.

ب- أهمية التقوى وعظمها في حياة المسلم.

ج- عظم منزلة الصدق.

د- أنَّ الصدق صفة من صفات المؤمنين.

هـ- العاقبة الحميدة للصدق وأهله.

تفسير الآيات (٢٣-٢٤) من سورة الأحزاب:

قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٣ - ٢٤].

١-حول الآيات:

لما سبق ذكر المنافقين ونقضهم الميثاقَ الذي عاهدوا الله عليه وهو أن لا يولّوا الأدبار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾الآية، أردف بذكر المؤمنين ووصفهم بأنهم استمروا على العهد، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢- سبب النزول:

روى الإمام أحمد، والإمام مسلم وغيرهما من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس: عمِّي أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يومَ بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يومَ أحد فاستقبل سعد بن معاذ في فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين واها لريح الجنَّة إني أجده دون أحد قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه، فوُجِدَ في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي -الربيع بنت النضر-: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ

عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ قال: فكانوا يرون أنَّها نزلت فيه، وفي أصحابه ﷺ.

٣- معاني المفردات:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾: أي وفوا به وأتموه وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾: أي إرادته ومطلوبه، وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً، قال البخاري: (عهده: أي وما غيروا عهد الله ولا نقصوه ولا بدلوه).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾: تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، قال جاهد: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال: (يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء، وقال الحسن: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾: (ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك)، وقال بعضُهم: (نحبَه نذرَه).

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾: أي وما غيَّروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ماعاهدوا عليه ومانقضوه، كما بدَّل غيرهم من المنافقين، بل لم يزالوا على العهد، قال ابن سعدي رحمه الله: فهؤلاء هم الرِّجال على الحقيقة ومَن عداهم، فصورهم صور رجال، وأمَّا الصفات فقد قصرت عن صفات الرِّجال[1].

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: أي بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، وبصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه.

(١) تفسير ابن سعدي ص (٦٦١).

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾: وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمرَّ بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى الرّجوع عن النفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: أي غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب ورجعوا إلى الله.

٤- أهم الفوائد المستنبطة:

أ- أهمية الصدق وبيان علو منزلته في الدين.

ب- وجوب الوفاء بالعهد.

ج- عظم منزلة من مات على الصدق مع الله.

د- الجزاء من جنس العمل.

هـ- أنَّ الثبات على الصفات العالية والأخلاق الفاضلة من صفات الرِّجال.

و- أنَّ الله ﷻ لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم.

ز- أنَّ الله يقبل توبة التائبين.

تفسير الآيات (٧٢-٧٣) من سورة الأحزاب:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

١-حول الآية:

هذه الآية تأمرُ بالتزام جميع أوامرِ الدِّين كلِّه.

٢-معاني الكلمات:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾: أي قلنا للسموات والجبال والأرض: احملنها فإن أدَّيتموها حصلت الإثابة، وإن ضيعتموها عذبتم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غيرِ معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ﷻ ألا يقوموا به.

﴿الأَمَانَةَ﴾: تعمُّ جميع وظائف الدِّين وتكاليفه، وقبول الأوامر والنواهي.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾: أي رفضْن حملَها و لم يكن إباؤهم كإباء إبليس، وإنما استصغرْن أنفسَهن، وقالوا: لا طاقة لنا بالعمل.

﴿ وَأَشْفَقْنَ﴾: خفْن من الخيانة فيها، فلا يقومون بها ولا يؤدونها فيلحقهن العقاب.

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾: وهو أدمُ وذريتُه.

﴿ظَلُومًا﴾: ظلوماً لنفسه، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿جَهُولًا﴾: جاهلاً بثقلها، وبعاقبة أمر حمل الأمانة.

﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: النفاق: إبطان الكفر والشرك وإظهار الإيمان خوفاً و تحسباً.

﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾: الجاحدين بوجود الله ووحدانيته، والعابدين معه غيره.

﴿وَيَتُوبَ اللهُ﴾: التوبة: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة هذا بالنسبة للعبد، أمَّا مِن الله فيعود عليهم بالرحمة والمغفرة إن وقع منهم تقصير في الطاعات.

﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾: المغفرة: هي الستر مع التجاوز، فهو تعالى غفار للذنوب، ستار للعيوب، كثير الرحمة للعباد التائبين إليه.

فهذه التكاليف التي عرضت على السموات والأرض والجبال فلم يطقْن حملها وأشفقن منها مخافة التقصير في أمر أراده الله، ثمَّ حملها الإنسان لجهله بعواقب هذا التحمل مما يلزمه الحرص والعمل الجاد في أداء هذه الرسالة سيما إذا علم أن الله ﷻ سيعينه عليها ويجازيه على عمله خيراً، نسأل الله أن يتوب علينا ويغفر لنا ويعيننا على ما تحمَّلْنا.

٤- ما يستفاد من الآيات:

أ- عظم المسؤولية في التكاليف الشرعية.

ب- تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده.

ج- أن الناس انقسموا تجاه هذه الأمانة إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم قائم بها ظاهراً وباطناً وهم المؤمنون.

٢- قسم قائم بها ظاهراً لا باطنا وهم المنافقون.

٣- قسم تركوها ظاهراً وباطناً وهم المشركون.

د- أن رفض هذه المخلوقات لحمل الأمانة إنما هو الخوف والخشية؛ لأنَّ العرض لم يكن إلزاماً وإما كان عرض تخيير.

تفسير الآيات (١٥-١٩) من سورة الذاريات:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[الذاريات: ١٥ - ١٩].

١ - **هذه الآيات تبين جزاء** من آمنوا بالله ورسله واتقوا ربَّهم وأطاعوه، واجتنبوا معاصيه.

٢- معاني المفردات:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهؤلاء اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه واجتنبوا القول بالخرص والتخمين في الأمور الاعتقادية.

﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: أي بساتين مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، وعيون تشرب منها هذه الأشجار، ويشرب بها العباد يفجرونها تفجيراً.

﴿آخِذِينَ﴾: أي عاملين ما أمرهم به ربُّهم، مؤدين فرائضه وهم مع ذلك قابلين لما أعطاهم من النعيم راضين به، قريرة أعينهم به.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: أي كانوا في الدنيا يعملون الأعمال الصالحة طلباً لمرضاة ربِّهم.

﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾: أي كانوا ينامون القليل من ساعاته ويقومون للصلاة والعبادة في معظم الليل، والهجوع: النَّوم بالليل دون النهار

﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾: وهو آخر الليل قبل الفجر.

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: الله ممَّا حدث منهم من تقصير.

﴿لِلسَّائِلِ﴾: المحتاج الذي يطلب غيره لسد حاجته.

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾: المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه ولا يسأل النَّاس، ولا يفطن إليه أحد ليتصدق عليه.

هذه الآيات التي بينت جزاء المتقين وما أعد لهم في الدار الآخرة جزاء وفاقاً على أعمالهم الصالحة وعبادتهم الخالصة في الدنيا من إحسان فيها واجتهاد في إخفائها في جوف الليل لا يراهم إلا الله ولا يطلع عليهم غيره، ومع ذلك يتخيَّرون وقت السحر، وقت التنزل الإلهي إلى السماء الدنيا ومناداته لهم: هل من مستغفر فأغفر له، فيمدون أكفَّ الضراعة إليه كأنهم يرونه وهو ﷻ يراهم سائلينه المغفرة والرَّحمة، ومع ذلك أحسنوا إلى خلقه وعطفوا عليهم وقسموا لهم جزءاً من أموالهم.

٣- ما يستفاد من هذه الآيات:

أ- عظم أمر التقوى وجزاؤها.

ب- الجزاء من جنس العمل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

ج- أهمية قيام الليل -هذه السنة التي أميتت- واستحبابه.

د- فضل الاستغفار في الأسحار وأنَّ له خصيصة ليست لغيره كما قال تعالى: ﴿وَالمسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾.

هـ- أنَّ نوم المجتهد في العبادة عبادة، حيث مدحهم الله بكونهم هاجعين قليلاً.

٣- تفسير بعض الآيات التي تتناول قصص القرآن، ومن ذلك ما يلي:

أ- تفسير الآيات (٩-٢٦) من سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً (١٣) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (١٤) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ

أَحَـداً (١٩) إِنَّهُـمْ إِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُـمْ يَرْجُمُوكُـمْ أَوْ يُعِيدُوكُـمْ فِي مِلَّتِهِـمْ وَلَـنْ تُفْلِحُـوا إِذاً أَبَـداً (٢٠) وَكَذلِـكَ أَعْثَرْنـا عَلَيْهِـمْ لِيَعْلَمُـوا أَنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ وَأَنَّ السَّـاعَةَ لا رَيْـبَ فِيهـا إِذْ يَتَنازَعُـونَ بَيْنَهُـمْ أَمْرَهُـمْ فَقالُـوا ابْنُـوا عَلَيْهِـمْ بُنْيانـاً رَبُّهُـمْ أَعْلَـمُ بِهِـمْ قـالَ الَّذِيـنَ غَلَبُـوا عَلى أَمْرِهِـمْ لَنَتَّخِـذَنَّ عَلَيْهِـمْ مَسْـجِداً (٢١) سَـيَقُولُونَ ثَلاثَـةٌ رابِعُهُـمْ كَلْبُهُـمْ وَيَقُولُـونَ خَمْسَـةٌ سادِسُـهُمْ كَلْبُهُـمْ رَجْمـاً بِالْغَيْـبِ وَيَقُولُـونَ سَـبْعَةٌ وَثامِنُهُـمْ كَلْبُهُـمْ قُـلْ رَبِّي أَعْلَـمُ بِعِدَّتِهِـمْ مـا يَعْلَمُهُـمْ إِلاَّ قَلِيـلٌ فَـلا تُمـارِ فِيهِـمْ إِلاَّ مِـراءً ظاهِـراً وَلا تَسْـتَفْتِ فِيهِـمْ مِنْهُـمْ أَحَـداً (٢٢) وَلا تَقُولَـنَّ لِـشَيْءٍ إِنِّي فاعِـلٌ ذلِـكَ غَـداً (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشـاءَ اللَّهُ وَاذْكُـرْ رَبَّـكَ إِذا نَسِـيتَ وَقُـلْ عَـسى أَنْ يَهْدِيَـنِ رَبِّي لِأَقْـرَبَ مِـنْ هـذا رَشَـداً (٢٤) وَلَبِثُـوا فِي كَهْفِهِـمْ ثَـلاثَ مِائَـةٍ سِـنِينَ وَازْدادُوا تِسْـعاً (٢٥) قُـلِ اللَّهُ أَعْلَـمُ بِمـا لَبِثُـوا لَهُ غَيْـبُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْـصِرْ بِـهِ وَأَسْـمِعْ مـا لَهُـمْ مِـنْ دُونِـهِ مِـنْ وَلِيٍّ وَلا يُـشْرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـداً (٢٦)﴾.

١-ما قيل في سبب نزولها:

مـا روي أن قريشـاً أرسـلت شـخصين إلـى يهـود المدينـة يسـألونهم رأيهـم فـي دعـوة محمَّـد ﷺ، فقـال اليهـود لرسـول قريـش: اسـألوه عـن ثلاثـة أمـور فـإن أجابكـم عليهـنَّ فإنَّـه نبـيٌّ مرسـل، وإلا فهـو رجـل متقـوِّل، فتـروا فيـه رأيكـم، سـلوه عـن فتيـةٍ ذهبـوا فـي الدهـر الأوَّل... فنزلـت السـورة[1].

٢- معاني الكلمات:

﴿الْكَهْفِ﴾: النَّقب المتسع في الجبل وهو ما يسمى بالغار.

﴿وَالرَّقِيمِ﴾: اللوح فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم.

(١) زاد السير (٥/ ٨١).

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾: أي التجأوا هرباً بدينهم، والفتية: أي الشباب.

﴿رَشَداً﴾: أي اهتداء إلى طريق الحق.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهِمْ﴾: أي أنمناهم نومة ثقيلة عدداً من السنين وهي: ثلاثمائة وتسع سنوات.

﴿ثُمَّ بَعَثْناهُمْ﴾: أي أيقظناهم إيقاظا يشبه بعث الموتى.

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ﴾: أي الحزبين المختلفين فيهم وفي مدَّة لبثهم أشدُّ إحصاء وضبطاً لغاية مدة لبثهم.

﴿نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾: هذا شروع في بيان قصة هؤلاء الفتية وبسطها كما هو الواقع الذي لا مجال ولا محل فيه للريبة أو الشك.

﴿وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾: أي زيادة هدى على هداهم بتثبيتهم على الإيمان وتوفيقهم للعمل الصالح والزهد في الدنيا.

﴿وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ﴾: أي قويناهم بالصبر على المجاهدة، وجعلنا قلوبهم مطمئنة.

﴿لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً﴾: قولاً مفرطاً في البعد عن الحقِّ، وميلاً عظيماً عنه.

﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ﴾: أي بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، وهل جاءوا بدليل مقنع، فإنَّ الدِّين لا يؤخذ إلا بالحجة والبرهان.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾: أي لا أحد أكثر من كذب على الله، ولا مساوي له في الظلم والكفر.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾: أي إذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله.

﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾: أي اذهبوا إلى الكهف واختفوا فيه.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً﴾: أي جعل لهم من أمرهم أمراً يرتفقون به، وينتفعون به في دينهم ودنياهم، فحفظ أبدانهم وأديانهم وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم.

﴿تَزاوَرُ﴾: أي تميلنه يميناً عند طلوعها، وعند غروبا تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها.

﴿فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾: أي متسع من الكهف، ليطرقهم الهواء والنسيم ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق.

﴿ذلِكَ مِنْ آياتِ الله﴾: حيث هداهم للإيمان وثبتهم عليه، لما هداهم إلى هذا الغار الذي يدخله النور والهواء والشمس.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾: أي الناظر إليهم يظنهم أيقاظاً فأعينهم مفتوحة لئلا تفسد.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ﴾: وهذا من حفظه لهم ولأبدانهم لئلا تأكل الأرض أبدانهم وأجسادهم.

﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ﴾: أي الكلب الذي معهم أصابه ما أصابهم من النَّوم.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾: الباب، أي نائم بفناء الكهف وهو بابه.

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً﴾: أي ألقى الله عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحدٍ عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس.

﴿رُعْباً﴾: أي خوفاً وفزعاً.

﴿بَعَثْناهُمْ﴾: أي كما أنمناهم هذا النوم الطويل بعثناهم منه صحيحة أبدانهم وأشعارهم لم يفقدوا من أحوالهم شيئاً.

﴿لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ﴾: عن مدَّة نومهم. فردوا العلم إلى الله، الله أعلم بما لبثتم.

﴿بِوَرِقِكُمْ هذِهِ﴾: أي بدراهمكم هذه المضروبة من الفضة، فهم قد أخذوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها.

﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾: أي مدينتكم التي خرجتم منها وفررتم منها.

﴿أَزْكى طَعاماً﴾: أي أطيبه وأكثره حلا وأجوده.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أي في خروجه وذهابه وشرائه واختياره الطعام.

﴿وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾: حق لا يعلم بكم أحد منهم.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: أي إن علموا بمكانكم عذبوكم.

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: أي يعذبونكم بأنواع العذاب حتَّى ترجعوا إلى ملَّتهم التي هم عليها.

﴿أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾: أي أطلعنا عليهم النَّاس.

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾: أي ليعلم الشاكُّون في البعث أنَّ

وعد الله حقٌّ وقد حصل لأهل ذلك الزَّمان شك في البعث وفي أمر القيامة.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي آتية في وقتها المحدَّد إذ لا بدَّ من الجزاء بمقتضى الحكمة.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: أي في أمر القيامة فمن مثبت لها ومِن منكر، فجعل الله اطلاعهم على أهل الكهف حجةً لهم وعليهم.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ﴾: أي سدوا عليهم باب الكهف فالله أعلم بحالهم، وقال الذين لهم الأمر والغلبة في الحكم: إنهم سيقيمون معبداً على كهفهم يصلي النَّاس فيه.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ﴾: اختلفوا في عدد أهل الكهف، فمنهم مَن قال: هم ثلاثة، ومنهم من قال: خمسة، ومنهم مَن قال: سبعة، وأبطل الله القولَين الأوَّلين ووصفهما بأنهما رجماً بالغيب وقولاً بلا علم وسكت عن الثالث فدلَّ على صحته.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾: أي من الناس وهم الذين أصابوا الصواب.

﴿فَلا تُمارِ فِيهِمْ﴾: أي لا تجادل في عدتم وشأنهم.

﴿إِلاَّ مِراءً ظاهِراً﴾: أي مبنياً على العلم واليقين، ويكون فيه فائدة، وأمَّا المماراة المبنية على الجهل والرَّجم بالغيب فلا.

﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾: أي لا تسأل في شأن أهل الكهف أهل الكتاب، لأنَّ مبنى كلامهم على الرَّجم بالغيب والظنِّ.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: أي هو ﷻ أبصر بهم وأسمع لهم وهذا في

معنى المبالغة في المدح، أي ما أبصرَ الله لكلِّ موجود وأسمَعَه لكلِّ مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء.

﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: أي هو الذي تولَّى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾: أي هو المتفرد بالحكم والقضاء في خلقه وتدبيرهم وتصريفهم كيف يشاء.

٣- أهم الفوائد المستنبطة:

١- الحثُّ على العلم.

٢- الأدب فيمن اشتبه عليه مسألة أن يردَّها إلى عالمها وأن يقف عند حد.

٣- جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة.

٤- صحَّة الوكالة في البيع والشراء.

٥- صحة الشركة في البيع والشراء.

٦- البعد عن مواطن ومواقع الفتن في الدِّين.

٧- الرغبة الشديدة في الدِّين عند هؤلاء الفتية.

٨- أنَّ مَن فرَّ بدينه من الفتن سلَّمه الله منها، ومن حرص على العافية عافاه الله، ومَن آوى إلى الله آواه الله.

٩- قدرة الله البالغة وسلطانه الواسع فلا يعجزه شيء.

١٠- أنَّ الشباب أقبل للحقِّ وأهدى للسبيل من الشيوخ.

١١- أنَّ مَن عبد غير الله فقد جهل وظلم نفسه.

١٢- مشروعيَّة الفرار بالدِّين عند الفتن.

ب- تفسير الآيات (٢٦-٤٦) من سورة المؤمن:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ
مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ
﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ
إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ
هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

١ - **هذه الآيات تبيِّن** ما حدث من هذا الرَّجل المؤمن من مدافعته عن موسى عليه السلام ودعوته إلى الإيمان به.

٢-معاني الكلمات:

﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي كان قبطيًّا و لم يكن مِن بني إسرائيل.

﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾: أي يخفيه خوفاً مِن فرعون وملئه.

﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾: أي لم يرتكب ذنباً سوى أنَّه قال: ربي الله.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالبراهين والحجج القاطعة بصدقه.

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾: أي فيما يدعيه وأخبر بخلاف الواقع، فإثم كذبه يعودُ عليه هو وليس عليكم من إثمِه شيء.

﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾: فيما أخبرَ مِن أنَّه مرسل من عند الله ليأمركم بعبادته وترك دينكم، فلا ينبغي لكم أن تقتلوه.

﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾: وهو عذاب الدُّنيا، وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، وليظهر لهم أنَّه معهم.

﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: أي متجاوز الحد ترك الحق والإقبال على الباطل، كاذب بنسبته ما أسرف فيه من الكذب إلى الله.

﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾: أي لكم الملك في الدنيا، عالين غالبين على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير.

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ﴾: أي إن خالفتم أمره ولم تجعلوه عرضتم أنفسكم لبأس الله وعذابه، ولا قِبَلَ لكم بذلك.

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾: أي ما أشرْ عليكم إلا ما أستصوبه لنفسي ولا أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد.

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾: أي الطوائف الذين اجتمعوا على تكذيب الأنبياء من الأمم الماضية.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أي مثل عادة في الكفر والتكذيب وإقامتهم عليه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾: أي لم يهلك الله الأمم المكذبة ظلماً، وإنما أهلكهم بذنوبهم، وما اجترحوه من آثام فكذبوا رسله وخالفوا أمره فأنفذ فيهم قدره.

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾: يعني يوم القيامة، وسمِّي بذلك لمناداة بعضهم بعضاً وأهل الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنَّة.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي تهربون ذاهبين فارين مِن النَّار وزفيرها وشهيقها.

﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: أي ما لكم من مانع من عذابه وبأسه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾: أي قد جاء يوسف أسلافكم مِن أهل مصر من قبل مجيء موسى بالحجج البينة.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ﴾: أي ارتاب أسلافكم وشكوا في صدقه فلم يؤمنوا به.

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾: أي مات، فازدادوا شكًّا وشركاً.

﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾: أي ظننتم أنَّ الله يترك خلقه سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم.

﴿مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾: أي تجاوز الحد وارتاب قلبه وشكَّ في وحدانية الله وفي دينه.

﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾: أي يمارون ويدمغون الحق بالباطل.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾: أي دليل أو حجة من الله بل أشد المقت.

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي إنَّ الله يمقت على ذلك أشد المقت، فالله أشد بغضاً لصاحبه وكذلك المؤمنون يبغضون من هذه صفته.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ﴾: أي يطمس الله على بصيرته وبصره فلا يكاد يظهر له الحق.

﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: الكبر: بطر الحق فلا يقبل حجة، ويستكبر عن الإيمان بالله، ويتجبر في الأرض فهو ألد في مخاصمته، وجبار في الأرض بالقتل والسَّفك.

﴿صَرْحًا﴾: أي بناء عظيماً مرتفعاً.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾: لعلي أصعد فأبلغ طرق السموات وأبوابها.

﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: أي زين له العلم السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه له ويحسنه ويدعوه إليه.

﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: المحق سبب الباطل الذي زين له.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾: احتياله وتدبيره الذي أراد أن يوهم الناس به وأنه محق، وأن موسى مبطل.

﴿تَبَابٍ﴾: أي خسار، وبوار لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة، والهلاك فيهما.

﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾: أي طريق الرشد والحق، لا كما يقول لكم فرعون فهو يهديكم طريق الغنى والفساد.

﴿متاع﴾: أي تمتع يسير بسرعة زوالها واضمحلالها، فلا تغرنكم.

﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾: أي الاستقرار والخلود والإقامة الدائمة، فينبغي لكم أن تؤثروها و تعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾: من شرك أو فسوق أو عصيان أو اجترح إثماً، فلا يعاقب إلا بمقدار عمله دون مضاعفة للعقاب.

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي يرزق رزقا عظيماً لا يتقدر جزاء بل يثيبه الله ثواباً كبيراً لا انقضاء له ولا نفاد، فيعطون أجرهم بلا حد ولا عل.

﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾: أي أدعوكم إلى السلامة من عذاب الله

وهي دعوتي لكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه، وأنتم تدعونني إلى الهلاك والشرك والكفر.

﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾: أي من غير برهان ولا دليل على صحة ما تدعونني إليه، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها.

﴿الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾: أي الغالب الذي يقهر من عصاه وهو مع ذلك يغفر ذنب مَن تاب إليه وأناب.

﴿لا جرمَ﴾: أي لا محالة ولا بدَّ، أو لا شكَّ، أو حقًّا يقيناً.

﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾: أي لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجوء إليه لا في الدنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه، وأنَّه لا يملك نفعاً ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ﴾: أي في الآخرة مرجعنا جميعاً سيكون إليه.

﴿وَأَنَّ الْمسْرِفِينَ﴾: أي المتجاوزين الحدَّ بالكفر والشرك والمعاصي.

﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: أي مصاحبين لها يعذَّبون فيها، خالدين فيها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾: لما نصحهم وحذره. وأنذرهم في هذه الآيات السابقة، ولم يطيعوه قال لهم: سترون مغبة وعاقبة هذه النصيحة.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾: أي أسند أمري إليه وألجأ إليه وأعتصم به وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم.

﴿إِنَّ اللَّه بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: يعلم أحوالهم وما يستحقُّون.

﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾: أي نجَّاه وحفظه من المكر الذي يحصل من فرعون على مخالفيه في الدنيا، وفي الآخرة أدخله الجنَّة.

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾: أي نزل بهم وأحاط العذاب وهو الغرق بفرعون ومَن معه في الدنيا والنار في الآخرة كما في قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: أي في الحياة البرزخية، فإن أرواحهم تعرض على النَّار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾: أي في يوم القيامة يقال لخزنة جهنم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ألماً وأعظمه نكالاً.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾: أي يتخاصمون وعاتب بعضهم بعضًا.

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾: أي الأتباع يقولون للقادة: إنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تقدرون أن تحتملوا عنَّا قسطاً من العذاب.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: أي قال القادة والكبراء للمستضعفين: إنهم جميعاً في النار.

﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾: أي فصل بقضائه بين العباد فأعطى كل واحد ما يستحقه، فلا يعذب أحداً بذنب أحد.

هذه الآيات وما فيها من قيام هذا الرَّجل المؤمن بالنصيحة لقومه والمدافعة عن موسى وما جاء به من الحجج والبراهين الظاهرة، وأنَّ كلَّ مَن جاء بأمر فستكون عاقبة أمره عليه، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر، وأنه ينبغي للفرد أن يستقبل نعم الله عليه وأن يستعملها في طاعته ليزيده الله عزًّا وشرفا، فأمَّا إن استعملها في معاصي الله انتقم الله منه،

ومـن يقـف مـع نقمـة الله لـه ؟؟

ولكـم أن تنظـروا فيمـن تقـدم مـن الأمـم مـا جـزاء الطائعيـن إلا النجـاة والحفـظ، وأمـا العاصيـن المعانديـن المكذبيـن فالخـزي والدمـار، جـزاء وفاقـاً ومـا ربُّـك بظـلام للعبيـد، فـي الدنيـا والآخـرة، ومـن تذكـر مثـل هـذه المواقـف اتعـظ واعتبـر مـا زال فـي وقـت ينفعـه ذلـك.

وإياكـم والمجادلـة والمخاصمـة فـي آيـات الله بغيـر علـم أو حجـة ظاهـرة فهـذا العمـل مبغـض مـن الله ومـن عبـاده المؤمنيـن، ولا يقـوم بهـذا العمـل إلا مـن طمـس الله علـى بصيرتـه وبصـره.

وأنَّ مَـن تعالـى علـى الله وكـذَّب رسـله، وتمـادى فـي عملـه السـيئ وهـو يـراه حسـنا، فعاقبـة أمـره إلـى هـلاك وخسـار.

أمـا المؤمـن الـذي أطـاع الله ورسـله فعاقبـة أمـره إلـى خيـر، وإياكـم والاغتـرار بهـذه الحيـاة الدنيـا فإنهـا زائلـة بسـرعة، غيـر مسـتقرة إنمـا هـي دار ممـر، أمـا الآخـرة فهـي دار المقـر يجـازى فيهـا كل بعملـه، السـيئة بمثلهـا والحسـنة مضاعـف جزاؤهـا أضعافـاً كثيـرة لا يعلمهـا إلا الله.

وسـترون صـدق مـا أقـول لكـم يـوم القيامـة، سـترون مـن يدعـو إلـى الرشـد والحـق ومـن يدعـو إلـى الهـلاك والدمـار، ومـن تكـون عاقبـة أمـره خيـراً، وإن مـن تـوكل علـى الله كفـاه، ومـن حفـظ الله حفظـه الله.

٣- بعض الفوائد المستنبطة من الآيات:

١- مراعاة المصلحة في إظهار الإيمان وكتمانه بين المشركين.

٢- التذكير بالنعم من الخالق، يلين قلوب المدعوين.

٣- إظهار الشفقة من الداعي إلى المدعو.

٤- بيان عاقبة الأمور.

٥ - ضرب الأمثال سبب لقبول الدعوة.

٦- أنَّ القول على الله بلا علم من أكبر الجرائم.

٧- الترغيب في الآخرة وما فيها من النَّعيم المقيم الذي لا يزول ولا يحول.

٨- التقليل من الدنيا الفانية والترغيب عنها.

٩- سعة رحمة الله وواسع كرمه حيث جازى على السيئة بمثلها وضاعف الحسنة وجزاءها.

١٠-أنَّ الداعي ليس عليه إلا البلاغ.

١١ - ضرورة التوكل على الله والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

١٢ - أنَّ من توكَّل على الله كفاه.

١٣-إثبات عذاب القبر.

١٤- تمام عدل الله ﷻ حيث جازى كلًّا بما عمل.

١٥ - أنَّه لا يغني أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة.

الثقافة الإسلاميَّة

لدورات الأئمة والخطباء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين أمَّا بعد

فهذا منهج الثقافة الإسلاميَّة المقرَّر لدورات الأئمَّة والخطباء، ويهدف إلى:

١- تعميق الإيمان بالإسلام بصفتِه دين الحقِّ الذي تُنال به وحدَه سعادةُ الدنيا وفلاح الآخرة، وكشف النقص في الأديان والمذاهب البشريَّة.

٢- إبراز النَّظرة الشمولية للإسلام بصفته بنيةً مترابطةً ومتناسقة العناصر في نظُمه المختلفة.

٣- معالجة بعض القضايا والمفاهيم التي فيها اضطراب في الفكر المعاصر لتصحيحها.

والمقرَّر مختارٌ ليناسب الملتحقين بالدورات من حيث المحتوى وسهولة مفرداته، ومن حيث اشتماله على أهمّ ما يحتاج الطالب معرفتَه في هذه المرحلة من الثقافة الإسلاميَّة .

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

المـــدخـــل

أوَّلاً: مفهوم الثقافة:

كلمة ثقافة من الكلمات التي شاع استعمالها دون الاتفاق على مفهوم عامٍّ لها، شأنها شأن غيرها من المصطلحات المشكلة المفهوم في هذا العصر.

وقد عرفت اللغة العربية مادة (ثقف) قبل ظهور الإسلام[1] وتضمنها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١]، وجاءت في حديث الهجرة: (وهو غلام شاب لقن ثقف)[2] وجمعت معاجم اللغة أطرافها، مثل: معجم مقاييس اللغة وفيه قال ابن فارس: (ثقف: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة، إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء. وثقفت هذا الكلام من فلان، ورجل ثقف، لقن: ذلك أن يصيب علم ما

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٤٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من قول عائشة أم المؤمنين تصف أخاها عبدالله. ص٦٥٧ ح ٣٩٠٥ كتب مناقب الانصاري – باب هجرة النبي ﷺ

يسمعه على استواء، ويقال ثقفتُ به: إذا ظفرتَ به)[1].

وجميع الاستعمالات السابقة لا تخرج عن معني: الظفر، والحدق، والفطنة، والتهذيب، والتقويم، وسرعة أخذ العلم، وهي معانٍ لا تفي – إلى حدٍّ بعيد – باستيعاب مدلولات كلمة ثقافة في هذا العصر.

أمَّا في اللغات الأوروبية، فإنَّ مادة (ثقف) تعود إلى أصلٍ لاتيني، ومعناها: زراعة الأرض[2]، وهي بدورها لا تفي بالمفهوم المعاصر للثقافة.

وقد استعار الباحثون الغربيون هذا الأصل وأطلقوه على تنمية العقل وإنتاج الفكر والأدب والفن[3] ثمَّ توسعوا في ذلك الإطلاق إيما توسع ولكن ما اشتهر من تعريفاتهم هو قول تايلور (Tylor) الإنجليزي (ت ١٩١٧م): «الثقافة . ذلك الكل المركَّب المعقَّد، الذي يشمل: المعلومات والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والعرف، والتقاليد، والعادات، وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكسبها بوصفه عضواً في مجتمع»[4].

فالثقافة هي: جميع الرَّصيد المعرفيِّ البشريِّ، والشخوص الحضارية المشهودة المستمدَّة من العقائد والقيم – صحيحها أو فاسدها – والمتنوعة والمتلونة بحسبها في كل أمَّة أو شعب أو بيئة جغرافيَّة، والمتراكمة والمنتقلة من جيل إلى آخر بالوسائط المختلفة.

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (ثقف).

(٢) قاموس أكسفورد الإنجليزي، مادة (Culiure)، ٢/ ١٢٤٧. معجم لاروس الفرنسي، مادة: (Culiure)، ص٢٧٣ قاموس ألماني عربي: جوتس شراجله واخرون مادة (Kultur) ص٧٢٤.

(٣) مشكلة الثقافة لمالك بن نبي، ص٢٦.

(٤) الثقافة والشخصية للساعاني، ص٣٥.

فالثقافة إطلاق عامٌّ، يشمل ما صحَّ منها وما فسد، وما نفع وما أضرَّ، وما عمَّ وما خصَّ، كما قال الله تعالى في شأن الدِّين – صحيحه وباطله –: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون: ٦]، قال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾: الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: الإسلام[١]، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾[يونس: ٤١].، و ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[القصص: ٥٥]. ولكن شتان بين الفريقين، وما أبعدَ بين الطائفتين في النيَّة والعلم والعمل والنتائج والآثار، ولذلك فإنَّما تتميز الثقافات بحسب قربها أو بعدها في الاستمداد من الوحي الإلهي الصحيح، وهو ما تنحاز الثقافة الإسلاميَّة إليه، وتنأى غيرها عنه.

(١) صحيح البخاري ص ٨٩٠ – كتب التفسير – باب ﴿قل يا أيها الكافرون﴾

ثانياً: مفهوم الثقافة الإسلاميَّة :

الثقافة الإسلاميَّة هي: جميع ما أنتجه المسلمون: من علومٍ، ومعارفَ، وفنون، ونظم، وأساليب، ونحوِها، وِفق منهج الإسلام.

فالثقافة الإسلاميَّة ، إذن

١- ليست الإسلامَ ذاته، ولا لها قدسيته.

٢- فهي أثر من آثاره.

٣- وخصيصة للأمة الإسلاميَّة وحدَها.

٤- يحملها الفرد المسلم والمجتمع المسلم.

٥- عناصرها متنوعة جدًّا.

٦- وظائفها متعددة ونافعة إذا أحسن الفرد والمجتمع.

ثالثاً: نشأة الثقافة الإسلاميَّة ومصادرها:

نشأت الثقافة الإسلاميَّة بشكل فريد غير معهود في تاريخ الثقافات الإنسانية، فلم يكن ظهورها بطيئاً ملفقاً، ولا ثمرة لتراث الماضي، ولا إفرازاً لواقع الحياة المباشر، إنَّما انبجست أصولها انبجاساً مِن عالم الغيب، وشعت أنوار أعظم مصادرها في أوائل القرن السابع الميلادي بذلك الحديث العظيم: نزول القرآن الكريم على النبيِّ محمَّد ﷺ يأمره بدعوة النَّاس إلى الإسلام، وامتثاله ﷺ أمرَ ربِّه تعالى وقيامه بواجب البيان والتبليغ

وقد أثمرت تلك الدعوة جيلاً من الصحابة عبَّروا عنها بفكرِهم وموافاتهم وأقضيتهم وتناولهم لمتغيرات الحياة في عهدِهم، فكانوا جيل نشأة الثقافة الإسلاميَّة ، ثمَّ تبعهم من جاء بعدهم، في الاستمداد من تلك الدعوة وتلك الرسالة، من الأجيال المتلاحقة إلى هذا العصر جميعهم ينهل من معينها، مع ما انضاف إليها من المصادر الأخرى الموافقة لها والخادمة لأغراضها، في مسيرة تاريخية ما زالت مستمرة، ومعتمدة بصفة أساس على:

١- الوحي الذى أنزله الله سبحانه إلى الناس، ويشمل القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة:

قال تعالي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾[الإنسان: ٢٣] وقال ﷻ عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤].، وقال عليه الصَّلاة والسلام: (ألا إنِّي أوتيت الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)[١].

(١) رواه أبو داود في سننه، ص٦٥١ ح ٤٦٠٤. كتاب السنّة – باب في لزوم السنّة.

فهذا المصدر بما يمثله من منهج حياة كامل وشامل، هو الذي يمنح صفة (الإسلاميَّة) للثقافة التي تنبني عليه، وبذلك فجميع ما حقَّقه المسلمون وصدر عنهم – وفق هذا الأصل – من المواقف التربوية، والأعمال الجهادية، والجهود العمرانية، والأنشطة المعرفية، إنَّما كان مِن ورائه هذا المصدر الأساس.

٢- التراث العلمي والمعرفي الإسلامي:

لقد فتح الإسلام آفاق المعرفة الرحبة، حيث وجَّه الناس إلى النظر في السنن الكونية وتدبرها، وحث على التمكن مما حولهم من القوى المذخورة فهمًا وتناولاً، ونعى عليهم التقليد والظن المذمومَين، وكل ما من شأنه أن يحجر على قلوبهم وعقولهم من الشبهات والشهوات.

وبذلك التوجيه نظر المسلمون فيما ضمه إرث الجاهلية من الحكم، والأمثال، والتقاليد، وأمشاج المعارف والعلوم، فردوا منه ما خالف عقيدتهم، وأدخلوا ما وافقها في محيطهم، واستفادوا منه في دعوتهم وتأسيس حضارتهم، وأنشأوا علومًا خاصَّة بهم، و«أفرغوا مزيج حضارات الأمم الأخرى، في قالب خاص تمثلت فيه النزعة العلمية، والميل إلى التجربة والاستقصاء، كما يتمثل فيه الابتكار والإبداع والتجديد، لا التقليد والجمود»[١].

إنّ تلك الجهود العلميَّة والمعرفيَّة، سواء في بحوث الشريعة، أو اللغة العربية، أو في العلوم التجريبية والإنسانية لتعبر عن إيجابية حركة العقل المسلم، ووفرة عطائه، الذي يعد مصدرًا مؤثرًا على الدوام للثقافة الإسلاميَّة .

(١) أصالة الحضارة العربية لناجي معروف، ص٣٢.

رابعًا: الثقافات الأخرى ومرتكزاتها:

نشأت الثقافات الأخرى – غير الإسلاميَّة – سواء منها ما باد أو ما زال قائمًا إلى الآن، على أسس وضعية، تولدت من عقول القادة والزعماء والمصلحين، أو تشكلت من عناصر ملفقة عبر حقب طويلة، دون أن تستند إلى غيب صحيح ورسالة صريحة، كما هو الشأن في الثقافة الغربية: الأنموذج الحديث للثقافات الوضعية المادية.

لقد مرَّت هذه الثقافة بحركة تاريخية بطيئة، استمرت قرونًا، حملت فيها خليطًا هائلًا من المؤثرات، قبل أن تتخذ طابعها المعاصر.

فهي تمتد بجذورها إلى العهد الإغريقي الوثني، تستلهم منه – إلى حدٍّ كبير – فلسفتها ونظرياتها في بحث القضايا الكبرى في الحياة وتفسيرها، ذلك العهد القائم على:

- الفلسفة الماديَّة التي تكتفي باعتبار ما في الطبيعة المحسوسة، أو على الأقل تشكك في العقائد الدينية وتستخف بها.
- الحياة النفعيَّة التي تنحصر في إشباع الشهوات البهيمية.
- العقلانية التي لا تستهدي بغير النظر الذهني المجرَّد طريقًا للمعرفة، ومصدرًا للقانون ومنبعًا للأخلاق.
- النزعة التوسعيَّة الاستعمارية المشحونة بالظلم والاستعباد.
- النظرة العنصرية تجاه الشعوب الأخرى.

كما شهد بذلك أكبر مؤرخي الغرب (أرنولد توينبي) القائل: «إنَّ الفكر الغربي قد تمثل بالفعل تأثيرات الثقافة الهلينية – الإغريقية – التي اكتشفها من جديد»[1].

(١) تاريخ الحضارة الهلينية لتوينبي، ص٢٧٥.

ثـم امتزجـت تلـك العناصـر بالمسـيحية الكنسـيَّة التـي زادت تلـك الثقافـة ألوانًـا جديـدة مـن العنـت والظلـم، بتشـريعها نظـام الرهبنـة، وفرضها الأتـاوى والعشـور، وتأييدهـا الأباطـرة الإقطاعييـن، وإعلانهـا الحـروب المدمـرة، وهجرهـا علـوم الطـب والفلـك، وتنزيلهـا خرافاتهـا وأسـاطيرها منزلـة الحقائـق العلميـة الثابتـة، وتشـكيلها محاكـم التفتيـش[١].

وكانـت النتيجـة ولادة ثقافـة – من بيـن ذلك الـرُّكام – وهي الثقافـة الغربية القائمـة اليـومَ علـى صورة شـائهة للدِّين، مقابل تأليه الإنسـان، وتقديـس الإنتاج المـادِّي، والاعتمـاد علـى القـوَّة، وإطـلاق الغرائـز[٢]، حتـى لم تعد تعـرف ديانةً لها سـوى «الديانـة التي هياكلها: المصانع العظيمة، ودور السـينما، والمختبرات الكيماويـة، وباحـات الرَّقص، وأماكن توليـد الكهرباء.

وأمَّـا كهنـة هـذه الديانـة، فهـم: الصيارفـة، والمهندسـون، ونجـوم السـينما، وقـادة الصناعـات، وأبطـال الطيـران.

وكانـت النتيجـة التـي لا مفـرَّ منهـا، هـي: ظهـور نـوعٍ بشـري تنحصـر فلسـفته الأخلاقيـة فـي مسـائل الفائـدة العلميَّـة، ويكـون أسـمى فـارقٍ لديـه بيـن الخيـر والشـرِّ، إنَّمـا هـو التقـدم المـادي[٣].

وهكـذا عـادت الثقافـة الغربيـة الحديثـة القهقرى فـي حقيقتهـا، وصارت مرتكزاتهـا الذَّاتيـة إنَّمـا «تطلـب فـي فهـم الرومانييـن القدمـاء للحيـاة، علـى أنَّهـا قضيـة منفعـة خاليـة مِـن كلِّ استشـراق مُطلـق»[٤].

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي، ص١٦٧ وما بعدها؛ أوروبا العصور الوسطى لعاشور ١/ ٤٢ وما بعدها.

(٢) بين الثقافتين الغربية والإسلامية لمحمد المبارك ص٦٧ وما بعدها.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد، ص٤٧-٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٠.

خصائص دين الإسلام

يتميز الإسلام بخصائص فريدة، دون سواه مِن العقائد والمذاهب، تخوِّله أن يكونَ الدِّينَ الحقّ الذي لا يقبلُ الله تعالى من النَّاس غيره، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

وأبرز تلك الخصائص ما يلي:

أولاً: الربانية:

الربانية نسبة إلى الربِّ سبحانه، وهي بمعنى الصلة بالله تعالى ومعرفته واتباعه، قال جلَّ ذكره: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[آل عمران: ٧٩].

قال الزمخشري في تفسيرها: «الرَّباني هو: الشديد التمسك بدين الله وطاعته»[(١)].

فالمقصود من كون دين الإسلام ربانيًّا، أمران:

الأول: أنَّه مِن الرَّبِّ سبحانه، ناشئ عن إرادته سبحانه وحدَه، وليس لأحدٍ غيره دخل في وضعه أبدًا ولو كان ملكًا مقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلاً:

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١].

فهو دين متصف بالحقِّ والكمال:

قال تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت: ٤٢].

الثاني: أنَّه مراد به هداية الخلق ورحمتهم.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فهو دين جاء بترسيخ معاني التوحيد، وبيان جوانب العبادةِ، والهدي إلى النّظم الصحيحة، والتوجيه إلى البحث في سنن الكون، ونحو ذلك مِن الغايات الإيجابية النافعة التي تنزع في وجهتها بلا

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٤٤٠.

تـردد أو التـواء نحـو مرضـاة الله تعالـى، لتتنـزل علـى العبـاد البـركات فـي الدنيـا، ويحصلـوا علـى الفـوز بالحسـنى فـي الآخـرة.

قـال تعالـى: ﴿وَمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الدُّنْيَـا إِلَّا لَهْـوٌ وَلَعِـبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَـهِيَ الْحَيَـوَانُ لَوْ كَانُـوا يَعْلَمُـونَ﴾ [العنكبـوت: ٦٤].

وتلـك الخاصيَّـة تفتقدهـا – قطعًـا – سـائر العقائـد والمذاهـب الأخرى، لبشـريتها المحـدود والقاصـرة، كمـا قـال الله تعالـى: ﴿يَعْلَمُـونَ ظَاهِـرًا مِـنَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَهُـمْ عَـنِ الآخِـرَةِ هُـمْ غَافِلُونَ﴾[الـروم: ٧].

ثانيًا: ملاءمة الفطرة:

جاءت كلمة الفطرة في القرآن الكريم، وفي حديث الرَّسول ﷺ، ومِن ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[الروم: ٣٠].

وقوله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ..)[١].

والذي عليه أكثر المفسرين أنَّ الفطرة هي: «الخلقة والهيئة في نفس الطفل، التي هي معدَّة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدلّ بها على ربِّه، ويعرف شرائعه ويؤمن به»[٢].

فالله سبحانه خلق النَّاس على الفطرة، «والمعنى: أنَّه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه، ولا منكرين له»[٣]، وأنزل عليهم سبحانه القرآن الكريم وبعث رسوله ﷺ بالإسلام موافقًا لتلك الفطرة، ومجاوبًا لها، ومساوقًا لطبيعتها، «حتى لو تركت لما اختارت عليه دينًا آخر»[٤].

فهذا الدين بهذا المعنى هو الفطرة، كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ص٢١٧ ح١٢٥٨. كتاب الجنائز – باب إذا أَسلَم الصبي...
(٢) تفسير ابن عطية ٤/ ٣٣٦.
(٣) الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٦٣.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٤٦٤.

والفطرة السليمة – بلا ريب – «تهتدي إلى أصوله، وتطمئن إلى شرائعه»[1].

وليس ذلك لشيء من المذاهب والعقائد غير هذا الدِّين؛ لأنَّه وحده الجاري على ما خلق عليه البشر وهيئوا له، بينما غيره جارٍ على ما يظهر لواضعه في زمنه وبيئته، ووفق معرفته، وكل ذلك محدود ناقص، لذا فجميع ما يضعه الواضع يتعرض على الدوام للتحويل والتعديل والزيادة والنقص، عسى أن يرقى – فيما يبدو لصاحبه وللنَّاس – إلى مستوى أفضل مما كان عليه.

بينما الإسلام كما قال المولى ﷻ: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[فصلت: ٤٢]، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

ولا يعني ثبات هذا الدِّين على الفطرة وجريان أحكامه على قواعد وكليات لا تتغير – وإن كانت موافقة للإنسان في طبيعته ومتطلبات حياته – أنَّه دين جامد متحجر ينقل الماضي بفروعه وجزئياته في كل شيء، ليعيش به أتباعه في الحاضر، كما يسمه بذلك أعداؤه ومن لا خلاق لهم من علم وفقه بهذا الدِّين.

فالإسلام يحمل في مبادئه الثبات والتجدد معًا:

١- الثبات في العقائد والقيم والأصول والمقاصد وكليات التشريع، فتكون مطلقة، تستمر كما هي في كل عصر وفي كل أمَّة، قيمةً ثابتةً وقاعدة دائمة، لتصلح الحياة، ويستقيم الفكر، ويسلم الفرد والمجتمع من الفوضى والاضطراب، ويسلم الجميع إلى مراجع واحدة ثابتة دائمة.

(١) أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور ص٤٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦].

٢-التجدد في الوسائل وفي المصالح وفي أحكامٍ من الفروع، بحسب العصور والبيئات ومقتضيات المعايش فيها.

وعلى ذلك طبقات أهل العلم – سلفًا وخلفًا – جميعهم يقولون بتغير الفتوى بحسب أصول الشريعة ومقاصدها والحاجات المعتبرة فيها، «لأنَّ المصالح تختلف باختلاف الأزمنة»[١]، وبدون ذلك تفوت مصالح للنَّاس كثيرة في كل عصر، ويحدث لهم العنت والحرج، ولا تكمل بهجة الاستقامة على الإسلام في حياتهم، وهذا الدين إنَّما جاء بالرَّحمة والسعادة لهم في الدَّارَين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

(١) المسودة في أصول الفقه لابن تيمية ص٣٤١، وشرح الكوكب المنير لابن النجار ٢/ ٢٤٥، والفصل الذي عقده ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين ٣/ ٥ بعنوان: (تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد).

ثالثًا: اليُسر ورفع الحرج:

هذه الخصيصة مركوزة في الإسلام، وهو جارٍ عليها في جميع أحكامه، فلم يكن الله تعالى يريد من النَّاس إعناتهم وتعذيبهم، وإنَّما يريد رحمتهم ودفع المشقَّة عنهم وإزالة الأغلال التي تكبلهم عن الهدى والحق، والصلاح والصواب، والطيبات في الحياة. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

فهو ﷻ لم يكلف عباده إلا بما يطيقون، فقال سبحانه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

وتجاوز عنهم حديث النفس، والخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾[الأحزاب: ٥]، وقال نبيه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[(١)]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[(٢)].

وضاعف لهم الحسنات عن أعمالهم، وعفا عن سيئاتهم، كما في الحديث القُدسي: «إنَّ الله ﷻ كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عندَه حسنة كاملة، فإن همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومَن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عندَه حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»[(٣)].

(١) رواه ابن ماجه في سننه ص٢٩٣ ح٢٠٤٣، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي.
(٢) رواه البخاري في صحيحه ص٩٤٢ ح٥٢٦٩ كتاب الطلاق – باب الطلاق في الإغلاق والكُره.
(٣) رواه البخاري في صحيحه ص١١٢٥ ح٦٤٩١ كتاب الرقاق – باب من هم بحسنة.

وفتح لهم باب التوبة من ذنوبهم، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

فهذا الدين كلُّه خير وصلاح، ويسر وفلاح، ليس شيئًا مما فيه حرج ومشقة، قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاة»[١]، وقال ﷺ: (إنَ الدِّينَ يُسْر)[٢]، وقال المولى ﷻ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء: ١٤٧]، فهو سبحانه لا حاجة له أن يعذِّب العباد، إذا هم آمنوا وصدقوا واستقاموا، «لأنَّه لا يجتلب بعذاب النَّاس إلى نفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًّا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه جزاءً منه له على جرأته عليه، وعلى خلافه أمره ونهيه، وكفرانه شكر نعمه عليه – فهو سبحانه يقول – إن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك، بما تقصر عنه أمانيكم، فلم تبلغه آمالكم»[٣].

وتلك ميزة لا تكون إلا في هذا الدِّين، لأنَّه دين وسط عدل بين طرفين كلاهما فيه الحرج والعنت والشدة والسوء.

- فالاعتقادات الوثنية بألوانها، والإلحاد بأنواعه طرفان، أوسطهما وأعدلهما توحيد الله تعالى، الذي يندفع به شر دينك الطرفين معًا.

- والعبادات الرهبانية المشددة المؤذية، والإباحية البهيميَّة المنفلتة طرفان، أوسطهما وأعدلهما ما أمر الله تعالى أن يعبد به حقًّا وصدقًا،

(١) رواه الدارمي في سننه ص١٧ ح١٥ كتاب المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ.
(٢) رواه البخاري في صحيحه ص١٠ ح٣٩ كتاب الإيمان، باب الدين يسر.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٤.

كما جاء في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، مما يدفع به الحرج والمشقة والسوء، وتحصل به الكمالات كلها، رضاء الرَّب سبحانه، وتعبيد المرء له تعالى، وحل الطيبات، وتحريم الخبائث والفواحش، وعمارة الدنيا، وابتغاء الدار الآخرة، في تناسق تامٍّ، مقصده الكبير اليسر ورفع المشقة.

قال تعالى – في صفة النبي ﷺ والدين الذي جاء به مِن عنده ﷻ[1]: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

قال ابن كثير: «هذه صفة الرسول ﷺ، وهكذا كانت حاله ﷺ، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهي إلا عن شر. جاء بالتيسير والسماحة، كما قال: (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ)[2]، وقال لأميريه لما بعثهما إلى اليمن: (بَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا وَلا تُعَسِّرَا)[3]، وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: «إني صحبت رسول الله ﷺ، وشهدت تيسيره وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمَّة أمورها وسهلها لهم»[4].

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٥.
(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٦٦ و ٦/ ١١٦.
(٣) رواه مسلم في صحيحه ص٨٩٥ ح٥٢١٦. كتاب الأشربة – باب بيان أن كل مسكر حمر.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٥ – ٣٣٩.

رابعًا: الشمول:

جاء الإسلام دينًا للإنسان – فردًا وجماعة –، ودينًا للحياة الدنيا والآخرة، ودينًا للعلم والعمل، جاء رسالة شاملة جاملة لأصول السعادة والنجاح والفلاح، وكليات التقدُّم والثقافة والمدنية والحضارة، وكثير من فروعها وجزئياتها ولوازمها ومتطلباتها.

إنَّ ملامح الشمول في هذا الدِّين كثيرة جدًّا، ويمكن إرجاعها – بعامة – إلى أربعة جوانب، هي:

١ –نظرته إلى الإنسان – قلبه وعقله وجسده – نظرة كلية وسطية متوازنة، إذ جاء بما يشبع رغائبه المشروعة بما يلائمها، ويذكي حركتها الإيجابية، كما عبر عن ذلك سلمان بقوله لأبي الدرداء رضي الله عنه: «إنَّ لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حقٍّ حقَّه»، فلما علم النبيُّ ﷺ بقوله، قال: (صَدَقَ سَلْمَانُ)[١].

٢ – نظرته العادلة إلى العلاقة بين نزعات الإنسان الشخصية، وواجباته الاجتماعية، فلا إطلاق لعنان الفرد، ولا تسليط للمجتمع عليه، وإنَّما رعاية عادلة، وتكامل في حفظ الحقوق وأدائها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٣٥].

٣– نظرته إلى الوجود الإنساني جميعه، إذ يتجاوز به الحدود

(١) رواه البخاري في صحيحه ص٣١٦ ح١٩٦٨ كتاب الصوم – باب من أقسم على أخيه.

العرقية، والإقليمية، والزمنية؛ فلم يكن دينًا للعرب وحدهم بالرغم من ابتداء نزوله بينهم، ولم ينسب إلى جزيرتهم بالرغم من كونها مهده الأول، ولم يخص به القرن السادس الميلادي وحده بالرغم من انبثاق نوره أول مرة في أثنائه، وإنَّما كان دينًا ينسب إلى الله تعالى وحده، الذي يخاطب كل الأجناس، في جميع الأصقاع، في سائر الأزمنة، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

٤- نظرته إلى حياتي الدنيا والآخرة، إذ يأبى الإسلام على الإنسان أن يعكف على حطام الدنيا ويغفل عن الآخرة، كما يأبى عليه – أيضًا – أن يترهب ويضيع الأمانة التي حملها في الدنيا.

وبذلك فلا انقطاع لإحدى الحياتين عن الأخرى، وإنَّما توسط وتوازن وشمول، فيه العيش في الدنيا والعمل للآخرة.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧].

خامسًا: الخيرية:

تتمثل خيرية الإسلام في جميع ما تقدم بيانه من خصائصه، وفيما يمكن إضافته إليها مما هو على منوالها، ومِن ذلك:

١- دعوته الناس إلى التوحيد، ورفعه ما يحجب الحق عنهم، وتوجيههم إلى أن يكونوا دعاة إلى الله تعالى، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف: ١٠٨].

٢- كشف زيف المبادئ المنحرفة والأوضاع الفاسدة، وبيان أخطارها، والدعوة إلى تطهير الحياة من شرورها، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[التوبة: ٧٤].

صيانة نفس الإنسان من الشهوات المنحرفة، والشبهات الفاسدة، قال ﷺ: «لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»[(١)].

إنَّ تلك الخيرية المتعددة الجوانب، لا تتلوَّن بحسب الغايات، ولا تُعنت الإنسان، وإنما تنهج الأسلوب الوسط الموافق للفطرة البشرية.

(١) رواه الترمذي في جامعه ص ٤٦٣ ح ٢٠٠٧ أبواب البر والصلة- باب ما جاء في الإحسان والعفو.

سادسًا: العالمية:

بينما تشد الجواذبُ المحلية، والحواجز القومية، العقائد والمذاهب والنظريات البشرية، كما في تعبير أرنست رينان الفرنسي (ت ١٨٩٢ م):

«جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوروبي، فإذا ما نزلت بهذا الجنس إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون، فإنه يثور، فليقم كل امرئ بما خُلِق له، لتسير الحياة على ما يُرام»[١]، جاء الإسلام متحرِّرًا من ذلك الأسر، مُمتدًا في آفاق العالمية، جاعلاً من مبادئه الجامعة الكبيرة التي تلتقي فيها الشعوب المسلمة- مهما تعددت أجناسها، وتباعدت عاداتها- وتعمل وتبني بمختلف قُدراتها في انتظامٍ بديع.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال ﷺ لمن عيَّر أخاه المسلم بأمِّه -وقد رُوِي أنها كانت أعجمية فنال منها، ورُوي أنه قال له: يا ابن السوداء -(إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)[٢] ، فقد وبّخ ﷺ ذلك القائل[٣] -على عُلُوِّ منزلته عنده- تحذيرًا له عن معاودة مثل ذلك[٤]، وليتخلص من خصلة التمييز باللون أو غيره من خصال التمييز الجاهلية، وليتمشى مع خصلة الإسلام العالمية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

---

(١) وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي ص ١٢٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ص ٨ ح ٣٠، كتاب الإيمان- باب المعاصي من أمر الجاهلية.

(٣) هو: أبو ذر الغفاري الصحابي المشهور رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري لابن حجر ١/ ١١٦.

النُّظم الإسلاميَّة

أولاً: تعريف النظم:

النظم: جمع نظام، وهو مصدر نظم: بمعنى: ألَّف وجمع. ويُطلق على: الخيط الذي يُنظم به الخرز[١].

وبمعناه جاء لفظه في الحديث، إذ روي عنه ﷺ أنَّه قال في الفتن: (وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كَنِظَامٍ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعَ)[٢]، ومثل ذلك جاء في قولِه ﷺ: (كَأَنَّهَا نِظَامُ اللُّؤْلُؤِ)[٣].

كما يُطلق النِّظام في اللغة على: ملاك الأمر، والسيرة، والهدى، والعادة[٤].

أمَّا في علم الاجتماع الحديث –وهو الميدان الذي

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: نظم. والقاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة: النظم.

(٢) رواه الترمذي في جامعه ص ٥٠٨ ح ٢٢١١ كتاب الفتن –باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف.

(٣) رواه أحمد في السند ١/ ٤٤٣ ح ٣٣٣٥.

(٤) القاموس المحيط، مادة: النظم.

عُني بهذا المصطلح كثيرًا- فيُطلق النظام بصفة عامة على «كل ما هو قائم وثابت ومُنظم في المجتمع»[١].

فالنظم -على تنوعٍ في صياغة مفهومها- هي «مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين، تتداخل فيما بينها، حول وظيفة أو أكثر، مكونة أجزاءً من البناء الاجتماعي، تُعرف بتنظيمها المُحكم، وتمايز وظائفها»[٢].

وذلك المفهوم موجود بمعنى مقارب في تعريف الكُتاب المسلمين للنظم، ومنها القول بأنها: «القوانين الضابطة لتصرفات الناس في معاملاتهم»[٣]، أو أنَّ النظام هو «القانون الذي يربط بين أفراد المجتمع»[٤].

وبذلك فالنظم الإسلاميَّة هي: أحكام الإسلام في شئون الحياة الإنسانية بجميع ما يتصل بها، مجموعةً مرتبة بحسب موضوعات كبرى جامعة لما يندرج تحتها من فروع وجزئيات، مثل: الأخلاق، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والإدارة، والإعلام، ونحوها.

ولم تكن الأحكام الشرعية التي تخص تلك الموضوعات مجموعة

(١) قاموس علم الاجتماع للجوهري ص ٢٣٧.

(٢) قاموس علم الاجتماع لغيث ص ٢٤٥. (والتعريف المذكور هو لديفيز في كتابه: Human Society، ١٩٤٨)..

(٣) أصول النظام الاجتماعي ص ١٩٩.

(٤) النظم الإسلامية لعويضة ص ١٢.

وقد جرى العدد من الكتاب المسلمين على استعمال كلمة (قانون) في تعريفهم النظم، وهي كلمة رومية أو فارسية، ومعناها: مقياس كل شيء، وكان الأولى استعمال لفظة غيرها عربية، فضلاً عن قصور معنى تلك الكلمة في هذا الباب، وإن كانت شاعت في هذا العصر حتى سُميت كليات الشريعة في بعض البلدان الإسلامية بكلية القانون.

في باب واحد من أبواب الفقه، وإنَّما كانت موزعة في أبوابه المتنوعة، بل أحيانًا في مسائل الباب الواحد، فضلاً عن داخل المؤلف الواحد، كما في المغني لابن قدامة (ت ٦٢٠ هـ)، والمجموع للنووي (ت ٦٧٦ هـ)، وأكثر كُتب أهل العلم من السلف.

غير أنه كانت هناك مصنفات وُضعت في باب واحد من أبواب الفقه، يقرب أن تكون جامعة لما يخصه، بما يمثل بيانًا لنظام من النظم الإسلاميَّة ، وذلك مثل:

- كتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٤ هـ)، وآخر سميُّه ليحيى بن آدم (٢٠٣ هـ).
- كتاب الأموال لأبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ).
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، وآخر للفراء (ت ٤٥٨ هـ).
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ).
- أحكام أهل الذمة لابن القيم (ت ٧٥١ هـ).

وتلك جهودٌ أصول، ومراجع أساس، يُبنى عليها، ولا يُستغنى عنها في معرفة مسائل النظم الإسلاميَّة .

ثانيًا: مصادر النظم الإسلاميَّة :

النظم الإسلاميَّة مصدرها الإسلام، حيث إنه هو الذي يمنحها تلك النسبة ويخصها بتلك الصفة.

وإسلامية تلك النظم عائدة إلى اعتمادها على القرآن الكريم والسنة النبوية وما وافقهما من المصادر وسار في ركابهما من المراجع التي تستند إليهما، وتستمد منهما، وتهتدي بهديهما، ولا تخالف لهما أمرًا ولا مقصدًا.

فأي نظام لا يُراعي تلك المتطلبات ولا يستجيب لها، لا يكون إسلاميًّا، لأنَّ كل نظام لا بد له من مبدأ وبناء، فالنظام الإسلامي يكون كذلك إذا قام على سلامة القصد والاتباع.

فلا يمكن –مثلاً– أن يكون:

- في النظام الاقتصادي الإسلامي، خلاف قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].
- وفي النظام الاجتماعي، خلاف قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤].
- وفي النظام الأخلاقي السلوكي، خلاف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[الإسراء: ٣٢].

وهكذا سائر الأنظمة الإسلاميَّة في مجالات الحياة المتعددة، إنما تخضع لنصوص أحكام الشرع، ولما ينبني على تلك النصوص من اجتهادات بشروطها الصحيحة.

وفي هذا المجال لا يحجر الإسلام على المرء أن يبذل الجهد

النظري في إدراك الحكم الشرعي فيما لا نصل فيه، حيث إنَّ من الأقضية والوسائل والمصالح ما يحدث في كل عهد على غير مثال سابق في عصر التنزيل، مما يتوجب معه إعمال النظر لمعرفة الحكم فيه.

وليس ذلك بدعًا بين المسلمين، فقد اجتهد الصحابة ﵃ بعد وفاته ﷺ، فجمعوا القرآن ولم يكن مجموعًا[١]، وأحدثوا الأذان الآخر في الجمعة ولم يكن موجودًا[٢]، ونحو ذلك.

ولم يزل التابعون لهم بإحسان من أهل العلم يجتهدون فيما يعرض لهم من قضايا ومسائل، وما ذلك إلا لما فهموه من حض هذا الدين على النظر والتدبر والتفكر وإعمال الذهن، ومدحه الرأي المحمود، كما فعل الصحابة ﵃، ومنهم عُمر القائل لأبي موسى ﵁: «الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سُنة، ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق»[٣].

وعلى ذلك جرى أئمَّة المسلمين المشهود لهم بالعلم والصلاح، كالشافعي (ت ٢٣٤ هـ) القائل: «ليس كل العلم يوجد فيه كتابٌ وسنة نصًّا»[٤]، وابن عبد البرِّ المالكي (ت ٤٦٣ هـ) القائل: «من ردَّ الفروع في علمه إلى أصولها فلم يقل برأيه»[٥]، والسرخسي الحنفي (ت ٤٩٠ هـ)

(١) صحيح البخاري ص ٨٩٤ ح ٤٩٨٦ كتاب فضائل القرآن- باب جمع القرآن.
(٢) صحيح البخاري ص ١٤٦ ح ٩١٢ كتاب الجمعة- باب الأذان يوم الجمعة.
(٣) إعلام الموقعين ١/ ٩١- ٩٢.
(٤) الأم ٦/ ٢٠١.
(٥) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ١٠٣٩.

القائل: «إعمال الرأي للوقوف على معنى النص -من حيث اللسان- فقه مستقيم، ويكون العمل به عملاً بالنَّص لا بالرأي»[1].

وتأسيسًا على ذلك فقد انطلق المسلمون في طلب العلم والمعرفة، وأثروا زادهم الثقافي والحضاري بما لم يُسبقوا إليه من العلوم البحتة، فضلاً عن إنشائهم علومهم الخاصة بهم، ومنها الموسوعات الفقهية في بيان أحكام الشريعة المتضمنة -فيما تضمنته- ما يتصل بالنظم الإسلاميَّة .

(١) أصول السرخسي ١/ ١٢١.

ثالثًا: قصور العقل البشري عن سنِّ النظم كاملة:

العقل البشري المستهدي بالوحي الصحيح رفيع المنزلة في الإسلام، حيث يُسترشد به في استنباط العلل والأحكام، ووضع الخطط والمناهج واختيار الوسائل، وبيان المصالح، ودَرْكِ الغايات والمقاصد، وهو في كل ذلك تبع للوحي، قائم به؛ ولا غرو فهذا واجبه، وهذه وظيفته، وهذا شأنه؛ لأنه لا مصادمة مطلقًا بين صحيح المنقول وصريح المعقول[1].

أمَّا العقل المجرد فلا تؤمن عاقبة نظره وتدبره وتقريره، فإن أصاب مرَّة وقع في الخطأ مرات؛ لأنه لا يعتمد على أصل ثابت ومرجع مُطلق، وإنما على الظنِّ والهوى والتخرص وتكلف القياس، والتقول بغير علم، وكل تلك مصادر لا يوثق بها، ولا يُنظر إليها في ميزان العلم والعمل.

ولقد نحا الله تعالى باللوم الشديد، والتقريع الأليم على الذين ذلك شأنهم في بناء عقائدهم ومبادئهم وأفكارهم ونُظُمهم، فقال تعالى في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

- وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ

(١) لابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) كتاب بعنوان: (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) طُبع على هامش كتابه (منهاج السنة).
وعقد ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) فصلاً في كتابه (إعلام الموقعين) بعنوان: (كل ما في الشريعة يوافق العقل) ٢/ ٦٣.

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[النجم: ١٩- ٢٣].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام: ١٤٨].

هكذا بوضوح: إما علم صحيح وإما وقوع في التوهم والخيالات، فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: «هل عندكم بدعواكم ما تدَّعون. علم يقين: من خبر من يقطع خبره العذر، أو حجة توجب لنا اليقين من العلم فتخرجوه لنا؟

يقول: فتظهروا ذلك لنا وتُبيِّنوه، كما بيَّنا لكم مواضع خطأ قولكم وفعلكم، وتناقض ذلك واستحالته في المعقول والمسموع.

إن تقولون ما تقولون أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون، وتحرِّمون من الحروث والأنعام ما تُحرّمون، إلا ظنًّا، وحسبانًا أنه حق، وأنكم على حق، وهو باطل، وأنتم على باطل.. وما أنتم في ذلك كله إلا تخرصون، يقول: إلا تتقولون الباطل على الله، ظنًّا بغير يقين علم، ولا بُرهان واضح»[1].

فانقطاع العقل الإنساني عن الوحي، واكتفاؤه بالتصوير النظري المجرد، أو بالاقتصار على معطيات الحس المادي، أو بالانسياق وراء تقاليد الأسلاف والكبراء والآباء بلا دليل ولا بُرهان ولا إذن من الله ﷻ -خالق العقل وخالق كل شيءٍ وهاديه ومعلمه ومرشده- خبطٌ وتيهٌ وضياع وأيما ضياع، والشواهد على ذلك تكاد لا تُحصى، قديمًا

(١) تفسير الطبري ٥/ ٩٥- ٩٦.

وحديثًا، وجميعها تؤكد بأنَّ العقل البشري لا يقوم وحده بصورة صحيحة، ويعجز عن سن نُظم تامَّة الكمال مانعة من النقص، ولا أدلَّ على ذلك من واقع النظم الأوروبية الحديثة التي بلغ فيها العقل الإنساني شأوًا عظيمًا من الإدراك الواسع، والتبحر في العلوم المختلفة، وتهيأ له من الوسائل والإمكانات والخبرات والتجارب المتنوعة، ما لم يتهيأ له سابقًا، وبالرغم من ذلك جاءت تلك النظم التي وضعها ورعاها ذلك العقل، ولا يزال يمدها بقوته الجمعية، لتبدو أكثر صلاحًا واستقامة، وأقدر على الوفاء بمتطلبات الحياة ومتغيراتها، وأجدر أن تتبوأ قمة هرم النظم والثقافات والحضارات البشرية، جاءت ناقصة قاصرة جاهلة بأهم ما قامت لأجله وهو الإنسان، كما عبر عن ذلك لفيف من عُقلائها، وأخصهم:

١- «ألكسيس كاريل» الفرنسي صاحب كتاب «الإنسان ذلك المجهول»، الذي يقول فيه: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[١].

٢- «ألدوس هكسلي» الإنجليزي القائل في كتابه «جسور في طريق الانهيار» وبعبارة أشد: «أهدف إلى تكوين وعي مضاد للحضارة المرعبة، أود أن أقوم بعملية حرق وتطير لها»[٢].

٣- «وليام ماكنيل» رئيس قسم التاريخ في جامعة شيكاغو، والقائل في كتابه «ثورة الغرب»: «إن الحضارة الغربية اليوم، وفي الطور الأخير من أطوار حياتها، الذي بلغ من شراسته وانتهاكه كُل

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٧.

(٢) الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة، ص ١٧-١٨.

ما هو معنوي، واعتدائه على تراث السابقين وعلى كل ما هو مقدس جدًّا يجعله أشبه بالضبع الذي غاص بمخلبه في أمعائه، فانتزعها من مكانها، وأخذ يفترسها ويعضها ويلوكها بين فكيه، بمنتهى البُغض والغيظ والتشفي»[1].

وتلك شهادات تزيد في تأكيد ما هو معلوم مقدمًا من أن العقل الإنساني المجرد عاجز -بطبيعته وتكوينه- عن أن يسن لنفسه نظامًا صحيحًا كاملاً شاملاً تامًّا، ولو كان الامر خلاف ذلك لما كان لإنزال الوحي الإلهي وبعث الرُسل تترًا كبير معنى، ولكن الغافلين عن هذه الحقيقة الكونية الكبرى يمارون في الحق وهو أمامهم، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢].

(١) نحن والغرب للفاروقي، ص ٣١.

رابعًا: إقامة الإسلام النظم الفريدة الصحيحة للحياة البشرية جميعها:

إنَّ إقامة أنظمة للإنسان وللمجتمع في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وسائر مناحي الحياة، سليمة وثابتة ونافعة، لا يحتاج -فقط- فكرًا بشريًّا مجردًا يعقل الأشياء والمعارف، ويختار منها، وإنما يتطلب قبل ذلك -وعلى درجة أساس لا غنى عنها بحال- علمًا مضمون الصحة والدقة بصفة قطعية أبدية.

وهذا العمل لا يمكن تطلبه لدى أحدٍ من الناس، بما في ذلك أفذاذ العلماء والمفكرين -قدامى كانوا أو مُحدثين- بسبب ما يطرأ على الطبيعة الإنسانية -مما هو مركوز في أصلها- من قصورٍ في النظر، وغرائز دُنيا، واستعدادٍ للميل عن الحق واتباع الهوى، واختلافٍ وتنازع.

إنَّ ذلك العلم المطلوب، إنما يُبْتَغى عند الله تعالى؛ لأنَّه سبحانه الخالق وما سواه مخلوق، ولأنه الغني وما سواه فقير إليه، ولأنه لا ينازعه أحد في شيء من مُلكه، فهو سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٨]، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى، ليس بينه وبين عباده وساطة وصيَّة عليهم، قد تأمرهم وتنهاهم بما لم يأذن به، أو تتقبل منهم أعمالهم أو ترفضها بحسب هواها، أو تدَّعي أنها تقربهم إليه زُلفى، فهو جلَّ شأنه يسمع ويرى ويعلم ويُجيب وينصر، بلا احتياجٍ لوساطة، وليس على النَّاس جميعًا إلا السمع والطاعة له، وأن يستجيبوا بصدق وإخلاص لما أنزله تعالى لهم من العلم الرباني الصحيح، وهو وحيه ﷻ -قرآنًا وسنة-:

يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١].

ويقول الرسول ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[١].

وفي رواية: «وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»[٢].

فقد أحكم الله تعالى ما أنزله لعباده من الدَّخَل والخلل والباطل، ثم فصّله بالبيان عما فيه من أمر ونهي[٣]، فهو «كاملٌ صورةً ومعنى»[٤].

وبعث رسول الله ﷺ به تفضلاً ورحمة، و»أذن له أن يُبين ما فيه، ويعم ويخص فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به، كالظاهر المتلو من القرآن»[٥].

وبذلك كلِّه كمل البيان، وعُلمت الرسالة، وجاء هذا الدين وحدة من النظم متكاملة شاملة، لا تنفصل فروعها عن أصولها، ولا يند عنها شيءٌ، ولا تتخلف في شيء من مسالكها عن مقاصدها، كما قال الله تعالى في الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، أي: «أقوم الطرق وأوضح السبل»[٦]، حيث جاء بهدايات تامَّة كاملة، تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاءً لا تظفر به في أي تشريع، ولا في أي دين آخر[٧]:

ففي العقيدة جاء بالتوحيد الخالص، ونفي الشريك عن الله

(١) رواه أبو داور في سننه ص ٦٥١ ح ٤٦٠٤ كتاب السنة- باب لزوم السنة.
(٢) رواه ابن ماجة في سننه ص ٢ ح ١٢ كتاب المقدمة- باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٠٧.
(٤) تفسير ابن كصير ٢/ ٥٧٢.
(٥) معالم السنن للخطابي ٥/ ١١.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩.
(٧) مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٢٧٣.

تعالى، والإيمان بالمعاد والحساب والجزاء.

- وفي العبادات جاء بالفروض المهذبة للنفس بلا قهر للفطرة وإيذاء للبدن.

- وفي الأخلاق جاء بالقيم السمحة والمكارم العالية النافعة للفرد والمجتمع معًا -كالصدق، والأمانة، والعفاف- وحارب الفواحش والرذائل.

- وفي الاجتماع جاء بمبادئ العدل والتعاون والرحمة والتكافؤ في الحقوق والواجبات[1]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وفي الاقتصاد جاء بحماية المال، ومنع الربا والغش، والأمر بالكسب الطيب، وبإخراج الزكاة، والإنفاق في وجوه الخير.

- وفي السياسة جاء بالشورى، وإقامة العدل، ورفع الظلم، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وتصفح أمور الناس، وتحري مصالحهم فيما يحفظ معايشهم واجتماعهم ومنعتهم.

- وفي الحرب والسلم جاء بالوفاء بالعهود، ومنع الخيانة والغدر.

- وفي القضاء جاء بإثبات البينة على المدّعي، واليمين على من أنكر، ودرء العقوبات بالشبهات، وإقامة الحدود.

- وفي العلم جاء بالحث على النظر والتدبر والتعلم، وطلب الدليل والبرهان، والدعوة إلى الحق، والحط من الغفلة والجهل والتخرص.

وكل ذلك غيضٌ من فيضٍ، إذ إن نظم القرآن شاملة لجميع

(١) هذه المبادئ المذكورة -سابقًا ولاحقًا- هي أمثلة فحسب، وليست كلها على إطلاقها، بل لها شروطها المعتبرة في كتب العلوم الشرعية.

المناشط، جامعة لسائر الكمالات، ولم يزل هذا الدين «يرشد ويسدد من اهتدى به.. إلى قصد السبيل»[1].

ويحسن لمزيد التعرف على أحكام الإسلام ومبادئه في أي جانب من جوانب الحياة، وفي أي نظام من نظم الاجتماع، الرجوع إلى المظانِّ الموثوقة الكثيرة -مُطولةً ومختصرة-، ليس المجال هنا لتفصيل ما فيها، ويُكتفى بما تمَّ الإلماع إليه، مع زيادة توسع في بيان أربعة من تلك النظم، وهي: النظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، والنظام الأخلاقي، كما في البيان التالي:

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥.

خامسًا: بيانٌ مجملٌ بأبرز النظم الإسلاميَّة :

أ- النظام السياسي:

جاء الإسلام في السياسة بالأصول العامة، والقواعد الكلية، والتفصيلات العديدة، وترك جزيئاتٍ أخرى لم يحددها رحمة بالناس.

وأظهر ما نص عليه، وأعظمه في هذا الشأن هو المبادئ التالية[1]:

١- تمحيض الحكم لله تعالى، فهو ﷻ صاحب الحقِّ في التشريع، وأحكامه ثابتة تمضي بلا ردٍّ، وتسري على الرعاة والرعايا، فلا اعتبار أمام نص الوحي للرأي العام، ولا لأغلبية نيابية، ولا لتوجهات زعيم أو حزب. يقول الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فالجميع عبيدٌ له، وطاعته واجبة عليهم كافَّة.

٢- الالتزام بالشورى واجبٌ مفروضٌ على ولي الأمر، وحقٌّ مشروعٌ للرعية فيما لا نصَّ فيه، وعند الحاجة إليها، كطريقة اختيار الحاكم المسلم، ونصحه، ومساءلته، والخطط الكبرى لسياسة الناس في السلم والحرب والمعاملات الداخلية المهمة، والعلاقات الخارجية ذات البال.

وليس لتلك الشورى شكل ثابت لممارستها، والمهم فيها أن تتم في إطار قيم الإسلام ويبتغى بها إقامة الحقِّ والعدل، وجلب المصالح ودرء المفاسد.

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ص ١١ وما يليها، السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية لعبد الوهاب خلاف ص ٢٥ وما بعدها، في النظام السياسي للدولة الإسلامية لمحمد سليم العوا ص ١٧٩ وما يليها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي أنَّهم «لا يبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها»[١].

ويقول سبحانه آمرًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أي «في كل ما يُحتاج إلى المشاورة فيه»[٢].

ولما كانت الشورى واجبة عليه ﷺ -وهو النبيُّ الكريم- فهي على غيره من الحكام أوجب وأوكد، إذ «هي من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب، هذا مما لا خلاف فيه»[٣].

وما ذلك إلا لأن الالتزام بالشورى يمنع التزييف والخداع في الوصول إلى الحكم، أو اغتصابه، أو إجرائه بالجبر والتحكم من فرد أو مجموعة، بدون الرجوع إلى الأمة وحقّها في اختيار الأصلح والأتقى والأعلم ليحكمها بشريعة ربِّها، قال تعالى في قصة المرأتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام على لسان إحداهما: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، قال ابن عباس رضي الله عنه أي: «أمين فيما وَلِّي، أمين على ما استُودع»[٤]، فمن الواجب «استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء، لتكون الأعمال مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة»[٥].

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١١٩.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٤٩.
(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٩٩.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٧٥.
(٥) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٠.

ومن شأن الشورى في جميع صورها ومواقعها، إرشاد الحاكم، وجلبُ المصالح للمحكوم، وتوفير الأمن للجميع، إذا ما رُوعيت فيها شروطها الصحيحة.

٣- إقامة العدل والإحسان، ومحاربة الظلم والتمييز بين الناس لأي سبب من الأسباب الوضعية.

ويتمّ تحقيق هذا الأصل العظيم، بمراعاة حقِّ الله تعالى ثمَّ حقوق خلقه، وإيصالها إلى أصحابها من المسلمين وغيرهم، ورد المظالم من أي فرد أو جماعة، دون أن يكون في ذلك أية محاباة لسطوة قويٍّ أو تهاون بشأن ضعيف، فالنَّاس جميعًا -في ميزان الإسلام- سواسية كأسنان المشط.

يقول النبيُّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تعالى: (يَا عِبَادي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بيْنَكم مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا)[١]، ويقول سبحانه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، أي: «اعدلوا أيها المؤمنون على كل أحد من الناس، وليًّا لكم كان أو عدوًّا، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحدٍ منهم عنه»[٢].

وبذلك فلا اعتبار أمام الحق لجنسٍ، أو لون، أو لغة، أو انتماء سياسي، أو مركز اجتماعي، ولا تحاكم إلا للشرع الحنيف -نصًّا أو اجتهادًا- ولا يُقبل في ظلِّ أحكام الشريعة أن يقع إقرار ظلم أحدٍ لأحد، أو أن تُراعى مصلحة فئة أو طبقة أو مجتمع بما يقع به حيف على بقية الفئات والطبقات والمجتمعات.

(١) رواه مسلم في صحيحه ص ١١٢٨ ح ٦٥٧٢، كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٧١.

٤- تحقيق الحرية المسئولة لجميع الرَّعايا، كالتعبير عن الرأي الصريح المشروع، واختيار الأعمال، والمشاركة في الحياة العامَّة، واحترام جميع المباحات، وحماية جميع الحرمات- مثل: الحياة والملكية والمسكن والعرض والمال- وكل ذلك وفق قيم الإسلام وأحكامه، بلا استهتار أو اعتداءٍ من كائنٍ من كان.

وإذا كان المولى عزَّ وجلَّ قد منع إكراه أحدٍ على الدخول في دينه بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فمن باب أولى منع الإكراه فيما دون ذلك، إلا بحقِّه وشروطه الصحيحة من قاضٍ شرعيٍّ أو حاكمٍ عادل، ينتصف للحق ويرفع المظالم ويجلب المصالح.

وبذلك فإنَّ تحقيق تلك الحرية المسئولية الواعية بشروطها وآدابها:

- لا ينافي إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل ألا تنحرف اتجاهات المجتمع، ولا تتشوه شخصيته الإسلاميَّة .
- ولا ينافي إيجاب تنفيذ الأحكام القضائية الشرعية.
- ولا ينافي إيجاب الجهاد لرد المعتدين، ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

وكل ذلك بضوابطه المخصوصة، حتى تتحقق مقاصده، ويتحرر النَّاس من العقائد الباطلة والأوضاع الفاسدة، ويسلموا من التعرض للاعتداء وأنواع الجريمة، ويتمتَّعوا بحقوقهم السليمة كاملة في العبادة والتعلم والدعوة إلى الله تعالى، ويتفرغوا لمعايشهم ومصالحهم، وينشطوا في بناء المدنية والحضارة بحرية وطمأنينة وأمان.

ولقد أناط الإسلام مقاليد جميع تلك الجوانب السياسية بولي

الأمر المسلم الكفي وأعوانه الذين معه من العمال والأمناء والقادة وأهل الشورى؛ لأجل انتظام سلك المجتمع، وحفظ الدين، وحماية البيضة، وإحقاق الحقوق في الأذن والنهي ومع كل الأفراد والفئات.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فولي الأمر منوط به أن يسعى في تحصيل مصالح رعيته وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتطويق شرها، وأن ينشر الأمن والعدل والرَّحمة وكل قيم الخير، ويحمي المسلمين مما يضرُّ عقيدتهم، واجتماعهم، وصحتهم، وثقافتهم، ويسدُّ خلاتهم، وينشر دعوتهم، ويجاهد بهم عدوَّهم، ويحقق الوئام والسلم والتعاون على البر والتقوى بينهم؛ لأجل أن يكون أمثل في أداء الواجب والنصح والتقوى والصلاح في وظيفته، ولأجل أن يستحقَّ الولاء له والطاعة لأمره، قال ﷺ: «السَّمْعُ والطَّاعَةُ علَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيما أحَبَّ وكَرِهَ، ما لَمْ يُؤْمَرْ بمَعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ»[١]، وقال ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»[٢].

وهكذا، لا تنفصل سياسة الملك عن دين الله تعالى، والجميع – حاكم ومحكومون– وكل في موقعه «رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٣].

(١) رواه البخاري في صحيحه ص ١٢٢٩ ح٧١١٤. كتاب الأحكام– باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ص ٧٣ ح ٣٦٦. كتاب الإيمان– باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ص ١٤٤ ح ٨٩٣. كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن.

ب- النظام الاقتصادي:

لقد حرص الإسلام من خلال المبادئ التي ساقها لتنظيم النشاط الاقتصادي البشري، ومن خلال دعواته للإنسان أن يكدح ويحترف ويبيع ويغرس وينفق، على إيصال هذا الكائن البشري إلى الحياة الكريمة المتضمنة تحقيق منافعه، وجلب الطيبات له، وإشباع حاجاته المتعددة، في إطار الالتزام بقيم الكسب والإنفاق التي شرعها هذا الدين، حتى يكون لحياته معنى سام، يتجاوز هدف الأنظمة الاقتصادية الوضعية المعاصرة، إلى الجمع بين تنمية الدخل وقضاء الحاجات المادية من جانب، وعمارة الأرض بالحق والعدل والحلال والتعبد لله تعالى بإخلاص من جانب آخر.

ويمكن بيان أبرز الخطوط الكبرى لنظام الإسلام في الاقتصاد في العناصر الآتية:

١- المال كله لله تعالى، والإنسان مُستخلف فيه:

إن الله سبحانه هو الرزاق والوهاب ومؤتي المال لخلقه مُطلقً، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وهذا الأمر يتطلب من الإنسان أن يتحرى أحكام صاحب المال -سبحانه- ومقاصده في الكسب والإنفاق، وهي تلك الأحكام التي اختارها تعالى وأمر بها، وألا يدعي المرء لنفسه حوز ما بيده بفضله وبحذقه أوَّلاً وأخيرًا، أو يدعي الحرية المطلقة في التصرف فيه بلا ضابط إلا رغبته وهواه، كالقائل فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ

عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، وذلك بعدما وعظه قومه بمراعاة أمر الله تعالى في ماله، قائلين له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦- ٧٧].

وذلك الأمر يتطلب من الإنسان -أيضًا- أن يوقن بأنَّه وغيره من النَّاس سواء، فلا امتيازات بينهم ولا طبقات بمقتضى الخلق، وإنما أرزاق يؤتيها الله تعالى مَن شاء مِن عباده ليبلوهم فيها، يقول سبحانه: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وأن يوقن المرء بأنه محاسب على ما عمل فيما أوتي، فهو ليس بمتروك وكسبه من الصالحات والسيئات بلا جزاء أخروي عادل، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إنَّ الإيمان بمبدأ (الملك لله) وما يتفرع عنه، يجعل صلة الإنسان بالمال صلةً إيجابيةً منظمةً محكمةً، تدفع إلى تحقيق المصلحة الفردية الخاصة والمصلحة الجماعية، وتساعد على أن يكون كسب الإنسان في الدنيا مرادًا به ثواب الآخرة.

٢- حق الإنسان في التملك الخاص للثورة، وفي الحصول على أجرة عمله بلا حيف، وفي تنمية أمواله وزيادة مداخيله:

فقد نسب الله تعالى ماله ﷻ للإنسان لوجوده بين يديه وتصرفه فيه،

فقال ﷻ: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وأباح له الدفاع عن ذلك المال بكل ما يملك في حدود الضرورة، وسمَّى من مات دونه مظلومًا شهيدًا، قال ﷺ: (من قُتِل دُونَ مالِهِ فهُو شَهيدٌ)[١].

بل إنَّ الإسلام طالب الإنسان باستغلال ما سخَّر له في الكون من إمكانات وثروات وطاقات، فقال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٣-١٤]، ونهى سبحانه عن التواكل والكسل، وحثَّ على العمل والإنتاج، والانتشار في الأرض طلبًا للكسب، قال ﷺ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[٢].

إنَّ ذلك الكسب والتملك، يتعيَّن أن يكونا وفق ما شرعه الإسلام من مصادر ووسائل، وما رسمه من سُبُل الحلال، مثل: الربح المتأتي من التجارات المختلفة، والمكافأة على الوظيفة، والميراث، والوصايا، والهبات، والصدقات، ومردود الشركات والمضاربات، ونحو ذلك من أبواب الثروة المتعددة بشروطها المخصوصة.

كما يتعين أن يكون ذلك الكسب بعيدًا عن جميع صور التملك المحرمة، التي لا تراعي حقوق الآخرين ومصالحهم، ولا تخدم تكافل المجتمع وتنميته، مثل:

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤٠١ ح ٢٤٨٠. كتاب المظالم- باب من قاتل دون ماله.
(٢) رواه البخاري في صحيحه ص ٣٣٣ ح ٢٠٧٢. كتاب البيوع- باب كسب الرجل وعمله بيده.

- الرِّبا لأنه ربح بلا جهد، قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وفي الحديث: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ)[١].

- السرقة، لما فيها من جرأة وتعدٍّ على مال محرز، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

- الرشوة، لما فيها من إبطال للحقوق، قال ﷺ: (لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ)[٢].

- القمار، لأنه كسب بغير جهد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

- الغش، لما فيه من غبن، قال ﷺ: (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)[٣].

- الاحتكار، لما فيه من استغلال للمضطر، وحبس للضرورات عن الناس، قال ﷺ: (مَنِ احْتَكَرَ فَهو خاطِئٌ)[٤].

- تطفيف الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ص ٦٩٧ ح ٤٠٩٣. كتاب المساقاة- باب لعن آكل الربا ومؤكله.

(٢) رواه الترمذي في جامعه ص ٣٢٣ ح ١٣٣٧. كتاب الأحكام- باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ص ٥٧ ح ٢٨٣. كتاب الإيمان- باب قول النبي ﷺ (من غشنا فليس منا).

(٤) رواه مسلم في صحيحه ص ٢٧٠ ح ٤١٢٢. كتاب المساقاة- باب تحريم الاحتكار في الأقوات.

- خيانة الأمانة، واستغلال الوظيفة، لما فيهما من مفسدة للذمم وتضييع للحقوق، قال ﷺ: «فإنِّي أسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنكُم علَى العَمَلِ ممَّا ولَّانِي اللهُ، فَيَأْتي فيَقولُ: هذا مَالُكُمْ وهذا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أفلا جَلَسَ في بَيْتِ أبيهِ وأُمِّهِ حتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، واللَّهِ لا يَأْخُذُ أحَدٌ مِنكُم شيئًا بغيرِ حَقِّهِ إلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَومَ القِيَامَةِ»[1].

- الاتجار في المحرمات- كالخمر والخنزير والمخدرات-؛ لأنه كسبٌ خبيثٌ غير طيب ولا نفع فيه، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةَ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ»[2].

٣- حق الإنسان في التصرف الخاص في ثروته بحريَّة – بالبيع والإجارة والمزارعة والهدية، والانتفاع بها بأي وجه من الوجوه، والإنفاق منها على من تلزمه نفقته، وفي وجوه البر والصلة، كرعاية الأيتام والأرامل والعجزة، والوصية لجهات الخير، وتأسيس الأوقاف الخيرية، بشرط أن يكون كل ذلك التصرف في الثروة في حدود ما يبيحه الشرع، ومن ثمَّة يتعين أن يلحظ المسلم في مصارف ثروته القواعد التالية، وهي:

أ- أداء حقِّ الله تعالى فيها، بإخراج الزكاة المفروضة بشروطها ومقاديرها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، وبإخراج صدقة الفطر التي يؤديها المسلم على من تجب عليه نفقتهم، وأداء النذور وكفارات الخطايا: كالحنث في اليمين، والظهار، والقتل الخطأ.

(١) رواه مسلم في صحيحه ص ٨٢٢ ح ٤٧٣٨. كتاب الإمارة- باب تحريم هدايا العمال.
(٢) رواه البخاري في صحيحه ص ٣٥٦ ح ٢٢٣٦. كتاب البيوع- باب بيع الميتة والأصنام.

ب- عدم اكتنازها حتى لا تتعطل وظيفتها الاجتماعية والاقتصادية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤].

ج- صرفها في الحلال باعتدال، لا يخالف فيه مقتضى الشرع والعقل السليم من غير تبذير وإهدار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، ومن ذلك عدم إيتائها من يضيعها بسوء تدبيره[١]، كما أمر سبحانه: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

٤- حقُّ الدولة في التدخل العادل في النشاط الاقتصادي، لدفع الضرر وتحقيق المصلحة العامة، وهذا يدخل في مجمل مهماتها المنوطة بها، والمتمثلة في تنفيذ أحكام الشريعة، وتنمية التوجه الإسلامي للمجتمع والدفاع عنه، وجلب المنافع له، ودفع المفاسد عنه.

ومما يُذكر هنا أنَّ من شأن ولاة الأمر الإشراف على الأوضاع وتصفح الأحوال، حتى لا يترك النشاط الاقتصادي -وغيره من الأنشطة- لمجرد الالتزام الفردي الذاتي، فقد يغش الأمين، ويخون الناصح، قال ﷺ: (الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[٢]، لذا فعلى الحاكم -في جانب النشاط الاقتصادي للدولة- التدخل وفق مقتضى الشرع في أمور، منها:

أ- جباية الزكاة المفروضة بشروطها ومقاديرها، بالحسنى، وإلا فيما يراه مناسبًا لاستخلاصها من مانعيها.

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، تقدم تخريجه.

قال الإمام مالك (ت ١٧٩ هـ): «الأمر عندنا: أنَّ كلَّ مَن منع فريضة من فرائض الله ﷻ، فلم يستطع المسلمون أخذها، كان حقًّا عليهم جهاده حتى يأخذوها منه»[١].

وبعد استخلاص الزكاة يتم توزيعها على مستحقيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

كما يتم استخلاص واردات الدولة الأخرى ودفعها لمستحقيها وفي وجوهها النافعة، كأجور الولاة والقضاة والجند، والصرف منها في مصالح المسلمين العامَّة[٢].

ب- منع الربا والغش والرشوة وغبن الأجير والاحتكار والتلاعب في أسعار الضرورات، وكل ما فيه ضرر ومخالفة لشروط الكسب والإنفاق المشروعة، عبادة لله تعالى، وإشاعة للخير والصلاح، وتداولاً للمنافع الصحيحة[٣].

ج- توفير التامين الاجتماعي لجميع الرعايا المستحقين له، سواء لعجزهم الدائم أو العارض، حتى لا يوجد بينهم فقير جائع أو عار أو مريض، أو مشرد بلا سكن، إلا كُفي حاجته بما يمكن، قال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسُ محمَّد بِيَدِهِ، إِنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ، فَأَيُّكُمْ مَا تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا فَأَنَا مَوْلَاهُ)[٤].

(١) الموطأ ١/ ٢٦٩ ح ٣١. كتاب الزكاة- باب ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها.
(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥ وما بعدها.
(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٨٦- ١٨٧.
(٤) رواه مسلم في صحيحه ص ٧٠٧ ح ٤١٥٩. كتاب الفرائض- باب من ترك مالاً فلورثته.

وبذلك «فمن مات وله أولاد ولم يترك لهم شيئًا، فإن نفقتهم تجب في بيت مال المسلمين»[١]، وقال عمر رضي الله عنه لخازن بيت المال، وهو يوجهه أن يكفل شيخًا كبيرًا ضرير البصر، كان يسأل النَّاس حاجته: «انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه»[٢]، وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أهل الحيرة: «لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت المال وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام»[٣].

إنَّ جميع تلك القواعد والأسس في النظام الاقتصادي الإسلامي، تؤكد عدل هذا النظام ووسطيته بين الفردية والجماعية، والإفراط والتفريط، والمثال والواقع، فهو نظام لا يصادر ملكيات الأفراد ويؤممها، وينصِّب الدولة مالكة لكل شيء، ويجعل الناس أُجَراء عندها، ولا يجيز للفرد أن يمتلك ما شاء بما شاء ويصرفه فيما شاء، بدون ضوابط من دينٍ وخلقٍ ومصالح معتبرة.

(١) فتح الباري ٩/ ٥١٦.
(٢) كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٤٥ رقم ١١٩.
(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٤٣- ١٤٤.

ج- النظام الاجتماعي والأخلاقي:

كما أرسى الإسلام قواعد الحياة البشرية المثلى في جانب السياسية والاقتصاد -كما تقدَّم- فإنَّه جاء بالمبادئ الكاملة لتكوين المجتمع الإنساني وتحقيق وحدته، وتنظيم حركته، وإرساء دعائم أخلاقه، ورعاية خصائص أفراده ومصالحهم، وذلك ضمن شريعته الربانية التي تتكامل عُراها وتتوحَّد.

وأبرز ما عُني به هذا الدين في نظامه الاجتماعي والأخلاقي العناصر التالية:

١- إقامة الوحدة العقدية جامعةً واسعةً للمسلمين جميعًا، قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

وبذلك فقد أرسى الإسلام أساسًا إيجابيًّا متقدِّمًا للعمران البشري، أبطل به اعتبار العصبية للجنس واللون والدم واللغة والطبقة.. أصلاً للتجمع والنظام والنصرة، قال ﷺ عندما استغاث رجال بعصباتهم وأقوامهم: (ما بالُ دَعْوى الجاهليَّة، دَعْوى الكَسْعةِ؛ فإنَّها مُنْتِنةٌ)[١]، وصار المحور الجديد -هو الإيمان بالله تعالى وطلب مرضاته- الذي يستحق أن ترتبط به كل النظم والقيم والمراكز والأدوار الاجتماعية،

(١) رواه البخاري في صحيحه ص ٨٧٠ ح ٤٩٠٥. كتاب التفسير- باب قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ.﴾ الآية.

وتضبط عناصرها واتجاهاتها وحركتها تبعًا له، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[المائدة: ٥٥]، وأن ما سوى ذلك الولاء من الغايات والروابط والوشائج التي تخالفه أو تعاديه، فاسدة باطلة، مهما ازَّيَّنت وكثر أنصارها وطال أمدها[(١)].

إنَّ ذلك المبدأ العقدي التوحيدي، هو الذي يوحد بكفاية تامَّة بين الأعراق والشعوب والفئات، ويجمع بين المصالح والرغبات، ويهذب الطباع والخصوصيات، ويُشبِع النزعات والتوجُّهات، ويوجّه الجهود والإبداعات، على ضوء مصلحة الفرد والمجتمع، كما رسمها واضعُ ذلك المبدأ: الباري سبحانه، نافيًا الخبيث الفاسد، ومُبْقِيًا الطيِّب الصالح، الذي تتم به الخصائص الإنسانية، ومقومات الحياة الاجتماعية المترابطة والمتوازنة والإيجابية، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٩].

إنَّ المجتمع الذي ينشئه الإسلام مجتمع مُوحَّدٌ عقديًّا وفكريًّا وخُلُقيًّا، بما يقوم عليه من حقائق ثابتة وغير محدودة، وبما يستنبطه أفراده من نُظُم، وبما يلتزمون به من نَجْدَة وتعاون وسلامة من الحِقْد والبغضاء والتنازع والتفرّق والتنابز بالألقاب، كما يقول النبي ﷺ: (تَرَى الْمُؤْمنينَ في تَرَاحُمهمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعي لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[(٢)].

(١) أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور ص ١٠٤ وما بعدها.
(٢) رواه البخاري في صحيحه ص١٠٥١ ح ٦٠١١. كتاب الأدب – باب رحمة الناس والبهائم.

وهو – أيضًا – مجتمع مفتوح يَقْبل التنوُّع والتنافس في إطار تلك الوحدة العَقَدية: تنوُّع في اللغة والعادات والتقاليد والأساليب والوسائل والتعبيرات الثقافية المتعدّدة، وتنافس في الطاقات والإمكانات، لأجل إثمار العلوم والمعارف والفنون، وتنمية المكاسب والمعايش، وبناء دُور العبادة والعِلْم والنفع العام، هكذا تنوُّعٌ وتنافس لا يستوجبان الاختلاف، وإنما يقتضيان «التعاون للنهوض بجميع التكاليف، الوفاء بجميع الحاجات».

إنَّه لا مكان في ذلك المجتمع الإسلامي لسيادة أية نظرية بشرية تحكُمها الدوافع العُنصرية أو الجغرافيَّة أو المصالح الماديَّة الفردية أو الجماعية، وتَقْصُر مُبتغاها على الانتصار لشعبٍ أو إقليمٍ أو طبقة، أو على الدنيا ومتاعها، ولا تَمْدُّ الفرد – ومِنْ ورائه المجتمع – بالبُعد العَقَدي التوحيدي الصحيح، وما يتضمّنه من رابطة الدِّين الوُثقى التي لا انفصام لها، ولا تُعادلها أيّة رابطة أخرى.

٢- بناء الأُسرة على أساس الوحي الإلهي، وإحاطتها بكل ما يحفظ كيانها، ويجعلها مستقرة، ويدعو إلى إنجاح مهمتها الاجتماعية والتربوية، باعتبارها قوام كيان المجتمع ومُفاعِل صلاحه وتماسكه إلى حدّ بعيد[١].

لقد حثّ هذا الدين على الزواج، والاقتران بالمرأة الصالحة، وجَعَله ميثاقًا غليظًا، وبيّن آداب الخِطبة المشروعة، وشروط العَقْد، وواجبات كلٍّ من الزوجين الأدبية والمادية تُجاه الآخر، وعمادها الودّ

(١) أهداف الأسرة في الإسلام لحسين محمد يوسف، ص٧١ وما يليها.

والإحسان والتقدير المتبادل، ليتحقّق الاطمئنان والاستقرار والعفاف، يقول الله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١].

ومن ثمة حرّم الإسلام الفواحش وما يُؤدّي إليها من الخَلْوة والاختلاط والسُّفُور والتبُّرج، وكل المقدّمات الممنوعة شرعًا، التي تخرُج عن حدود التحصُّن والحياء، وعمَّا يمكن أن تُبيحه الضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، لأجل أن يتطهَّر المجتمع من الرذائل، وينصرف لأداء رسالته الكريمة، قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأنعام: ١٥١].

وكرّه الإسلامُ- في المقابل- في الطلاق، وجَعَله آخِرَ الحلُول وأبغضَها في معالجة المشكلات الزوجية، كما يقول ﷺ: (أَبْغَضُ الْحَلالِ إِلَى اللهِ الطَّلاقُ)[1].

وقد رغّب في اللجوء لتفاديه إلى وسائل علاجيَّة متعدّدة، إذا كان النشوز من الزوجة أو الخلاف من الزوج، أو كان الشقاق منهما جميعًا؛ لأجل محاولة تصحيح العلاقة بينهما وعدم فَصْم عُرَى الأسرة، فإن لم تُجْدِ جميع محاولات الإصلاح، فعسى أن يُرْزَق كلٌّ منهما بزوج خَيْر من زوجه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٣٠].

وكرّم المرأة وأوصى بها خيرًا، يقول النبيُّ ﷺ: «اسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ

(١) رواه ابن ماجه في سننه ص٢٨٩ ح ٢١٨. كتاب الطلاق – باب حدثنا سويد بن سعيد. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٩٦ وصحح إسناده، وزاد عليه الذهبي فقال: (على شرط المسلم).

خَيْـرًا)[1] ، وجعلهـا والرَّجـل سـواء فـي الإنسـانية والتكليـف الشـرعي فـي الاعتقـاد والعبـادة، والجـزاء علـى الأعمـال، ومَنَحهـا حـقَّ الاسـتقلال بمالها كسْـبًا وإنفاقًـا، وقـرّر لهـا نصيبهـا مـن الميـراث، ومنـع عَضْلَهـا عـن الـزواج، وطلـب رضاهـا فيـه، وخصَّهـا بالمهـر[2]، ولـم يُنِـطْ بهـا مـن المهمـات إلا مـا يليـق بهـا، ويتّفـق مـع طبيعتهـا، ويتّسـق بالضـرورة ويتكامـل مـع وظيفـة الـزوج وواجبـه فـي الإنفـاق عليهـا وصيانتهـا، يقـول ﷺ: (الْمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ عَلـى بَيْـتِ زَوْجِهَـا وَهِـيَ مَسْـئُولَةٌ)[3] ، وذلـك لتسـير حيـاة الأسـرة تحـت قِوامـة الـزوج المتضمنّـة مسـؤوليته الأسـريَّة عنهـا فـي اعتـدال وإحسـان، وطاعتهـا لـه فـي المعـروف، يقـول الله تعالـى: ﴿الرِّجَـالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَـاءِ بِمَـا فَضَّـلَ اللَّهُ بَعْضَهُـمْ عَلَى بَعْـضٍ وَبِمَـا أَنفَقُـوا مِـنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: ٣٤].

ودعـا إلـى تنشـئة الأبنـاء وتربيتهـم بيـن أبَوْيهـم وأُسَـرهم، حتـى يـروا مـن قُـربِ القُـدوة الحسـنة، ويشـبُّوا علـى الصـلاح فـي الاعتقـاد والسـلوك، مُتوازِنـي الشـخصية، مُدركيـن لمسـؤولياتهم، وواعيـن بواقعهـم، فتزيـد بذلـك إمكانيـة اسـتقامتهم ونجاحهـم فـي مسـتقبل حياتهـم، وتضيـق فـرص انحرافهـم وفشـلهم، يقـول الله تعالـى: ﴿قُـوا أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُـمْ نَـارًا﴾ [التحريـم: ٦]، أي: «علِّمـوا أهليكـم خيـرًا»[4]، أو: «أوصـوا أنفسـكم وأهليكـم بتقـوى الله وأدِّبوهـم»[5].

(١) رواه البخاري في صحيحه ص٩٢٦ ح ٥١٨٦. كتاب النكاح - باب الوَصَاة بالنساء.
(٢) المرأة بين الفقه والقانون لمصطفي السباعي ص ٢٥ وما بعدها.
(٣) رواه البخاري في صحيحه ص٩٢٦ ح ٥١٨٨. كتاب النكاح – باب ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾.
(٤) قاله علي ﷺ، كما في فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٥٩، وقال ابن حجر: (رواه الحاكم. ورواته ثقات).
(٥) رواه البخاري في صحيحه ص٨٧٤ من قول مجاهد بن جبريل ﷺ.كتاب التفسير- ترجمة باب (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما).

كما جعل الإسلام عماد العلاقة المتبادلة بين أفراد الأسرة، وبينهم وبين ذوي أرحامهم، الودّ والتواصل والبّر والتطاوُع في غير معصية، والتناصُح والتعاوُن، وتَوْقِير الكبير والشَّفَقة على الصغير، ورعاية العاجز واليتيم وأمثالهما، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. وقال النبيُّ ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لا يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا)[١].

إنَّ الأسرة بجميع ما تقدّم بيانه مَحْضَنٌ أساسٌ للخير، ونظام متعدِّد الأغراض، يحفظ للمجتمع مقومات العفاف والآداب والقِيم والفضائل والضبط الأخلاقي والسلوكي.

٣- اعتبار الأخلاق الكريمة، والآداب القّيمة، والمبادئ السامية، مثل: العدل، والرحمة، والتكافل، والمساواة، والأمن، والوفاء، والصدق.. أسُسًا للنُّظم والأنشطة والعلاقة الاجتماعية كلها.

وتلك المبادئ الأخلاقية والسلوكية ومثيلاتها الثابتة المطلقة، ليست غريبة عن الطَّبْع الإنساني، فهي تَنْشَرِح لها الفِطَرُ كلها، وتنشط لها الأنفُس جميعْها، ويتواطأ عليها ذوو العقول السليمة في سائر الأعصر، وقد جاء بأكملها وأجملها الإسلام، وربط بينها، وجَعَل منها منظومة أخلاقية وسلوكية متماسكة العُرَى، وعدَّ ثمرة الإيمان الصحيح

(١) رواه الترمذي في جامعة ص٤٤٨ ح ١٩٢١. كتاب البر والصلة- باب ما جاء في رحمة الصبيان، وقال: (حسن صحيح).

والعبادة الصحيحة، ودليل صلاح الفرد والمجتمع[1]، وكمال الإيمان، قال النبي ﷺ: «أَكْمَلُ الْمؤْمنينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[2]، بل قال ﷺ: «بُعِثْت لأُتَمّمَ حسْنُ الأَخْلاقِ»[3].

ولقد أنكر الإسلام أن تكون تلك القِيَم والمبادئ خاصة في التعامل بين المسلمين دون غيرهم- إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة- أو أن تكون خاصة بالحكام دون الرعية، أو الوُجهاء وأصحاب الأموال دون الضعفاء والكادحين من العمال والمُسْتَخدَمين، وإنما هي تنطبق على الجميع بلا استثناء، وتشمل الكل بلا تمييز، وأبرز الشواهد على ذلك، قوله ﷺ عن شمولية قِيمَة العدل والانتصار لحدود الله تعالى في كل الأحوال: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ وَيَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[4]، وهكذا «فإنّ العدل واجب لكُل أَحد، على كُل أحد، في كل حال، والظلم مُحرَّم مطلقًا، لا يباح قط بحال»[5].

وليست تلك القيم خاصة بالنبي ﷺ وصحبه، أو خاصة بعصرهم، أو بقومهم من العرب، لظروفهم التاريخية أو البيئية، ثم استنفدت مهمَّاتها وأغراضها، وإنما هي للإنسان وقت ما وُجد، وحيث ما وُجد، قال الله

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني ص٦٤ وما يليها وأصول النظام الاجتماعي لابن عاشور ص٤٥ وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود في سننه ص٦٦٤ ح ٤٦٨٢. كتاب السنة- باب الدليل على زيادة الإيمان ونُقصانه.

(٣) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٤ ح٨. كتاب حُسن الخُلق – باب ما جاء في حُسن الخُلق.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ص١١٧٠ ح ٦٧٨٧. كتاب الحدود – باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع.

(٥) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ١٢٦.

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

وليست – أيضًا- قابلة للتجزئة، كتبرير الوسائل الفاسدة وإجازتها لأجل الوصول إلى غايات سامية، وإنما هي ثابتة مطلقة دائمًا وأبدًا، ولا يُقْبَل أن تكون غير ذلك، إذ يتعيّن في كل حال أن تكون الوسيلة والغاية شريفتَيْن طيِّبَتَيْن معًا، كما يقول النبي ﷺ: (إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا)[١]، ويقول ﷺ: (وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلا الطَّيِّبُ)[٢].

إنّ تحقُّق تلك القِيم الاجتماعية والأخلاقية بصورتها الصحيحة الواقعية، كفيل بأن يُحرّر الإنسان من ضيق العادات والأعراف الجائرة، ومن تسلُّط الشهوات الفاسدة، ويجعله يَسْعدَ بإقامة دينه وأخلاقه، ويأمن على نفسه وعِرْضه وماله، ويُعان على الاستقامة وتهذيب غرائزه ورغباته حتى في لباسه وطعامه وشرابه، وينصرف بحرية إلى أعماله ومكاسبه المشروعة، ويُتقن عمله، وينتج الطيب النافع، ويُعطي الأجير حقَّه قبل أن يَجِفَّ عرقُه، ويُزَكّي ماله، وينال ثمره جُهْده، ويَهْنَأ في عيْشه، ويُنْصِف عند تقاضيه أيًّا كان خصمه، ويتقبل وِزر عمله كلما كان مخطئًا.

إنَّ تحقق تلك القيم يجعل المجتمع بدوره يحمل- من خلال مؤسساته- رسالة إيجابية في الحياة، ويُزاول كل متطلبات استقراره، ويقاوم كل عوامل اختلاله، ويسعى للعيش في وئام وانسجام، بلا صراع ولا تناقض بين فئاته، ويهدف للتعارف والتعاون على عمارة الأرض.

(١) رواه مسلم في صحيحه ص٤٠٩ ح ٢٣٤٦، كتاب الزكاة- باب قبول الصدقة من الكسْب الطيّب وتربيتها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ص ١٢٧٨ ح ٧٤٣٠.كتاب التوحيد – باب قوله الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْه﴾.

بلا إفساد فيها أو إشقاء لفرد من الأفراد، ويبتغي التوازن الواقعي، فلا انحراف إلى «اليمين» أو إلى «اليسار»، وإنَّما وسطٌ واعتدال، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: «أهل توسّط واعتدال»[١].

تلك أبرز أسس النُّظم الإسلاميَّة في: السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والأخلاق، وعناصرها وملامحها، بدون استقصاء لجميعها، وإنَّما اكتفاء بما يفي بالغرض من بيانها، ويمكن تطلبها كاملة في المصادر الموسّعة المتخصصّة، وهي كثيرة مطبوعة ومتداولة.

(١) تفسير الطبري ٣/ ١١.

قضايا العصر الحاضر

تستجد في كل عصر قضايا فكرية واجتماعية تكون ثمرة للتحولات التاريخية والاجتماعية والحضارية للناس أو نتاجًا لفلاسفة ومنظّرين. وتسم هذه القضايا أو بعضها العصر الذي توجد فيه وتؤثر في الناس فكريًّا وسلوكيًّا.

فغير المسلم لا يشعر غالبًا بأنَّ عليه جناحًا في اطراح تراثه ليتشبث بما يفضهُ العصر عليه من بدائل، لأنه ينتقل من قيم ونظم بشرية إلى أخرى مثلها، وبخاصة إذا كانت الجديدة أنضج من القديمة.

أما المسلم فشأنه يختلف، لأنه يحمل ميزان قسط لا يبخس في تعامله مع القضايا، يستطيع به أن يحكم على كل مستجد في شؤون المعرفة والحضارة والنظم وغيرها بأنه حق أو باطل، أو به مصلحة أو مفسدةً.

هذا الميزان هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو بهما يقف موقفًا عدلاً فيقبل ما كان من القضايا حقًّا في ميزان

الشرع ويرفض ما هو باطل في ميزان الشرع أيضًا.

هذا الموقف هو الذي حدده الرسول ﷺ في قوله: (لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم على أن تحسنوا إذا أحسنوا، وإذا أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم) وفي رواية: (أن لا تظلموا).

وفي هذا العصر كثرت القضايا المستجدة أو المستجد مضمونها وإن كانت قديمة الأصل وهي قضايا في الأغلب وافدة على الأمة الإسلاميَّة من الغرب بحكم هيمنة حضارته على العالم اليوم ومن أبرز هذه القضايا أربع، وهي: التدين ، والعقلانية، والحرية وحقوق الإنسان.

وسيتم بحثها تباعًا فيما يلي:

أولاً : التدين

تعريف الدين والتدين:

الدين في اللغة العربية له عدد من المعاني منها:

العادة والشأن، والجزاء والمكافأة، والطاعة والخضوع.

والمقصود هنا، أن الدين هو: المنهج الذي يتعبد به الناسُ ويخضعون له، سواء كان هذا المنهج موحى به من الله وهو (الإسلام)، أو كان له أصل إلهي ثم حُرّف وبُدّل، أو كان مما اخترعه البشر بأهوائهم، فاليهودية والنصرانية والبوذية والشيوعية تسمى أديانًا، والدليل على ذلك أنَّ الله تعالى أمر نبيه محمَّدًا ﷺ أن يخاطب الكفار المشركين ويقول لهم: (لكم دينكم ولي دين).

فالدين الحق، واحد، وهو دين الله الذي بعث به رسله منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم، محمَّد ﷺ، وهو دين الإسلام الذي لم تختلف فيه الأنبياء وإن اختلفت الشرائع فيما بينهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [ال عمران: ٨٥]، وقال سبحانه عن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[ال عمران: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣].

وما سوى هذا الدين الحق فهو باطل عند الله سواء كان محرفًا عن دين الله الحق، أو كان مما اختلقه البشر من تلقاء أنفسهم.

والدين بما هو عمل بالمنهج وخضوع له هو ما يسمَّى بـ (التدين)، وهو الممارسة التي يقوم بها الإنسان تنفيذيًّا لتعاليم دينه، وهو تطبيق لدين الله الذي أوحاه إلى نبيه محمَّد ﷺ في القرآن الكريم والسنة الثابتة إيمانًا وإسلامًا، فقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥] الدين هنا: هو التدين.

شمولية الدين للاعتقاد والقول والعمل:

إنَّ الدين الصحيح: الإسلام، يشمل العناصر الثلاثة: القول والاعتقاد والعمل، فكلها دين وإيمان، ولكنها ليست في الميزان سواء.

فالخلل العقدي رضاءً بالكفر، أو رفضًا لشيء من ثوابت الدين، أو إشراكًا مع الله غيره ونحوها، تخرج الإنسان من دين الإسلام.

أما الخلل العملي: تركًا لواجب، أو فعلاً لكبيرة، فإنه وإن كان نقصًا في الإيمان- إلا أنَّه لا يخرج المسلم من الإيمان، ولا يستوجب خلوده في النَّار ما لم يستحله.

وهكذا فمن استوفى الدين بجملته – بحسب الطاقة البشرية- اعتقادًا وقولاً وعملاً، فهو من السابقين المقربين.

ومن أدى الفرائض واجتنب الكبائر، ولكنه قارف شيئًا من الصغائر أو قصر في النوافل، كفر الله عنه تقصيره هذا وأدخله الجنة بدون عذاب: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا).

ومن ترك شيئًا من الواجبات أو اقترف شيئًا من الكبائر ولم يتب

منها حتى الموت، فهو مؤمن بعقد إيمانه وولائه لله ورسوله لكنه فاسق بهذه المعاصي، وأمره في الآخرة مفوض إلى مشيئة الله، فإن شاء عفا عنه بفضله، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه، ثم أخرجه إلى الجنة بعد حين.

ومن هدم أساس الإسلام بشرك أكبر أو كفر صراح، فإنه خارج من دين الإسلام، مصيره النار خالدًا فيها، لا أمل له في غفران الله أبدًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨].

أبرز صورة للتدين بالإسلام في تاريخ المسلمين:

تمثل الإسلام الذي جاء به محمَّد ﷺ بصورته السوية الصافية في حياته ﷺ وحياة الصحابة رضي الله عنهم الذين تربوا على يديه ﷺ والوحي يتنزل فيهم ويسدد مسيرتهم، فأصبحوا بعد ذلك النموذج المتأسي به في حمل الإسلام فهمًا وتطبيقًا.

وتواصل هذا النموذج فيمن تبعهم بإحسان ولم ينقطع، ولكن نماذج أخرى مخالفة له ظهرت في حياة المسلمين بعد القرون المفضلة وبشكل واضح في العصر العباسي وما بعده، ومن أوضحها:

- النموذج الصوفي الذي جنح إلى ابتداع عبادات وأوراد وأعياد ومواقف زهدية، لم تأت بها الشريعة، وإنَّما كان كثير منها نتيجة تأثيرات أجنبية من النسك الأعجمي الهندي أو الرهبانية النصرانية.

- النموذج الكلامي الذي أحال الإسلام إلى تصورات عقدية نظرية مقطوعة عن الجانب العملي، ولهذا إن توحيد الإلهية – أي توحيد العبادة- غير موجود في مباحثهم العقدية.

ولا يزال هذان النموذجان قائمَين في حياة المسلمين المعاصرين، فالتصوف ببدعه وما دخله من شركات تصل أحيانًا إلى الشرك الأكبر في عبادة أصحاب القبور ودعائهم من دون الله واعتقاد تصرفهم في الكون، منتشر في بيئات كثيرة.

والنمط الفكري الذي يشتغل أصحابه بقضايا الإسلام، ويعالجون مسائل العقدية والقيم ونحوها، معالجة فلسفية بعيدة، وبعيدون هم أيضًا عن الاستقامة على الدين فيما شرعه من عبادات ومعاملات، شائع في صفوف كثير ممن يسمّون بالمفكرين والمثقفين.

التدين بين التقصير والغلو:

حينما شرع الله لعباده الدين وأمرهم أن يأخذوا به ويستقيموا عليه، حذّرهم سبحانه من التقصير- الذي شاعت تسميته في عصرنا بالتسيب- سواء كان هذا التقصير فعلاً للمكروهات والمحرمات، أو تكاسلاً عن الطاعات، أو إهمالاً للقيم والآداب الشرعية، فهو سبحانه يبين حدوده وينهى عن تعديها ويؤكد على العمل الصالح بعد ذكر الإيمان مع أنه جزء منه.

كما حذرهم سبحانه من الغلو في الدين- الذي شاعت تسميته في عصرنا بالتطرف، فقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾[النساء: ١٧١].

وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

وقال ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثًا.

قال النووي رحمه الله في تفسيرها: «هلك المتنطعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم».

والحق أن الغلو ظاهرة قديمة، توجد لدى كثير من أتباع الديانات نتيجة أسباب كثيرة، ونتيجة الغفلة عن خاصية الدين الحق، وهي الوسطية التي تجعل الإنسان في موقف متزن عدل سالم من الإفراط والتفريط، وهو الموقف الذي شرع للمسلم أن يدعو به مرارًا كل يوم وفي كل صلاة خلال قراءته سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦: ٧].

وحينما ظهرت الصحوة الإسلاميَّة – أواخر القرن الرَّابع عشر الهجري وأوائل الخامس عشر- في مجتمعات قد أنحل كثير منها عن الاستقامة على الإسلام وابتعد عن دينه- سواء على مستوى الدول أو الشعوب- وُجد في هذه الصحوة تيارات غلو في فكرها وأحكامها ومواقفها وتصرفاتها، مما جعل هذه القضية- الغلو- ظاهرة بارزة في وجودها، ومن ثم في اهتمام الباحثين فيها الذين تعددت مشاربهم وتصوراتهم وأحكامهم بشأنها وبشأن أهلها، مما يقتضي الإشارة إلى ذلك ببيان الحق فيه.

فالغلو عند علماء الشريعة هو: تجاوز الحد الشرعي بالزيادة، وذلك الحد هو: النهايات لما يجوز من المباح المأمور به وغير المأمور به.

ويوضح الدكتور اللويحق[1] هذا المعنى ببيان ملامح الغلو في ضوء النصوص حيث يصنف الغلو بحسب متعلقة إلى ما يلي:

(١) في كتابه: مشكلة الغلو في الدين.

١- أن يكون الغلو متعلقًا بفقه النصوص، وذلك بأحد أمرين:

أ- تفسير النصوص تفسيرًا متشددًا يتعارض مع السمة العامة للشريعة ومقاصدها الأساسية، فيشدد على نفسه وعلى الآخرين.

ب- تكلف التعمق في معاني التنزيل لما لم يكلف به المسلم، يقول الإمام الشاطبي: (ومن طماح النفوس إلى ما لم تكلف به، نشأت الفرق كلها أو أكثرها).

٢- أن يكون الغلو متعلقًا بالأحكام، وذلك بأحد ثلاث أمور:

أ- إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله ﷻ عبادة وترهبًا، وهذا معياره الذي يحدده الطاقة الذاتية، حيث إن تجاوز الطاقة وإن كان بممارسة شيء مشروع الأصل يعتبر غلوًا كما يتضح ذلك من قصة زينب رضي الله عنها[1]، والقضية في هذا نسبية مناطها قدرة الشخص ومدى تحمله. يقول الإمام الشاطبي: (الفرق بين المشقة التي لا تعد مشقة عادة أو التي تعد مشقة، هو أنه إن كان العمل يؤدي الدوام عليه إلى الانقطاع عنه أو عن بعضه، أو وقوع خلل في صاحبه في نفسه أو ماله أو حال من أحواله، فالمشقة هنا خارجة عن المعتاد، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك في الغالب فلا يعد في العادة مشقة)، وطاقات الناس مختلفة، وقدراتهم متفاوتة فمن أزلم نفسه فوق طاقتها، أو أدى استمراره على العمل إلى انقطاع عنه أو عن أعمال شرعية أخرى من الحقوق المتعلقة بالإنسان، فقد غلا.

ب- تحريم الطيبات التي أباحها الله ﷻ على وجه التعبد، فهذا من

(١) حيث كانت تتعلق بحبل بين ساريتين إذا فترت في صلاتها، فقال ﷺ: (حلوة، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد) رواه البخاري- كتاب التهجد- باب ما يكره من التشديد في العبادة.

الغلو، كما يتضح من بعض روايات حديث النفر الثلاثة، حيث حرم بعضهم على نفسه أكل اللحم.

ج- ترك الضرورات أو بعضها، وذلك كالأكل والشرب والنوم والنكاح، فتركها يعتبر غلوًّا، ويتضح ذلك من قصة النفر الثلاثة الذين قال النبي ﷺ لهم: (من رغب عن سنتي فليس مني).

٣- أن يكون الغلو متعلقًا بالموقف من الآخرين، حيث يقف الإنسان من البعض موقف المادح الغالي الذي يوصل ممدوحه إلى درجة العصمة، ويقف مع البعض الآخر موقف الذام الغالي الذي يصف مخالفه بالكفر والمروق من الدين، مع أنَّه من أهل الإسلام.

وإذا انضبطت صورة الغلو وفي المدلول الشرعي، فإنه يحسن الإشارة إلى أن كثيرًا من المعاصرين الذين اهتموا بهذه الظاهرة قد زاغوا عن الحق في فهمهم للغلو نتيجة نقص تصورهم الإسلامي أو بسبب انحرافهم عن الإسلام، وليس ذلك مقصورًا على العصرانيين الذين تتحكم الرؤية الغربية للدين في نظرتهم للإسلام وعلمائه ودعاته، بل يقع فيه بعض الكتاب الإسلاميين أحيانًا.

ولهذا ينبغي للمسلم أن يحذر الكتابات التي تلبس الحق بالباطل، وأن يجعل المفهوم الشرعي الذي قرره العلماء الشرعيون للغلو هو ميزانه الذي يحاكم به دراسات هؤلاء الكتاب.

ثانيًا: قضية العقلانية

العقلانية واحدة من أهم قضايا الفكر في العصر الحاضر، يلوذ بها كل تيار ليزكي أفكاره بأنها عقلانية، مُستنكفًا أن توصف بخلاف ذلك.

فماذا تعني العقلانية وما الموقف الإسلامي إزاء دعواتها؟

العقلانية مشتقة من العقل، وهو في اللغة المنع والتقييد، وسمي عقل الإنسان عقلاً، لأنه يمنعه من الوقوع في ما يشينه أو يهلكه.

والعلماء يقسمون العقل إلى نوعين:

- عقل غريزي، وهو عام لكل العقلاء وبذهابه يسقط التكليف عن الإنسان.
- وعقل مكتسب، وهو ما يحصله الإنسان بتجاربه من معارف وأفكار، وهو متفاوت ومتنوع بين الناس، أي أنه نسبي.

وإذا تناولنا العقلانية[1] بصفتها قضية فكرية، فهل هي مطلقة تتمثل في مبادئ أو خصائص إنسانية عامَّة زمانًا ومكانًا أو أنها نسبية بحيث نجد عقلانيات متنوعة يحدد كلّ منها السياق الثقافي الخاص ومستوى المعرفة التجريبية في عصرها.

يذكر بعض المهتمين بها عناصر نظرية ذات عمومية تذكر للعقلانية ومن أشملها تحكيم العقل في الأشياء كلها والإيمان بأنه قادر على كشف الحقائق في مجالات المعرفة، كما قيل: (العقلانية هي الكشف عن منطق الأمور وترابطها الداخلي).

(١) من أجل استيعاب شامل لهذه القضية يرجع إلى كتاب (السلفية وقضايا العصر) حيث تناول مؤلف الكتاب مفهومها وأنواعها والموقف الشرعي بشأنها وعلاقة الاجتهاد والإبداع بها.

ومن السمات التي تقدم بصفتها عناصر مطلقة للعقلانية: أنها قابلة للنقد، فالخطاب العقلاني هو الذي يقبل أن يناقش وينتقد، وكل خطاب يرفض النقد يخرج من ساحة العقلانية، ولكن على الرغم من ذلك، فإن التنوع في العقلانيات بحسب مضاداتها أو وظائفها أمر لا نكران فيه.

هناك عقلانية تقال في مقابل التجريبية، تجعل للعقل الدور الأول قبل الحواس في تحقيق المعرفة.

وهناك عقلانية تقال في مقابل ما يسمَّى بالنصية، وغالبًا ما يكون هذا في المجال الديني؛ حيث يجعل للفكر السلطة على النص، وتأويله وفق رؤاه.

وهناك العقلانية التجريبية للعلماء الذين يزاوجون بين اعتماد فعاليات العقل وحدوده وخياله، وبين إجراء التجارب في معاملهم.

وهناك العقلانية النقدية التي تسعى لتحليل الأفكار، والتشكيك أو إسقاط ما لا يتسق مع العقل في مقابل التقليد.

لكن العقلانية- أيا كانت – لا بدَّ لها من سند فكري ترتكز عليه بصفته أعلى صور الحقيقة في وقته على الأقل.

ولقد كان هذا السند هو العلم بمفهومه المعاصر؛ أي هو المعارف الطبيعية والرياضية التي يبني منها العقل تصورًا للوجود يجعله أساس حركته العقلانية.

ولأن العلم التجريبي في تطور متواصل، ومن ثم اتساع في رؤيته للأشياء، فإن العقلانية المرتكزة عليه تفقد قيمتها، وذلك أن ما تبنيه هذه

العقلانية في مجال الفكر أو المناهج أو التصور للوجود والحياة، إما أن يبقى ثابتًا حتى لو تجاوزه العلم، وهذا إيذان بسقوطه كما حدث لنظرية الجوهر الفرد؛ أي الجزء الذي لا يتجزأ، فتجزأ هذا الجزء إلى غير مادة، وسقط بالتالي الأساس.

وإما أن تظل التصورات الوجودية والخلقية والمناهج والفلسفات التي يبنيها العقل في حالة تغير دائم وراء العلم المتجدد، وتفقد قيمتها أيضًا، بل إنها تصبح مصدر شقاء للبشرية، حينما تتحول القيم والتصورات الوجودية إلى متعددة، ومتغيرة، ومجال تشكك، وخاضعة للتوظيف من خلال توصيفها الذي يقوم به العقل استنادًا إلى العلم في تغيراته، ومن وعي هذه النقطة كان انطلاق النقد الشديد للعقلانية الغربية من قبل عديد من المفكرين الذين رأوا أن فتح العقلانية باب تعددية القيم والمنظورات والاتجاهات يوشك أن ينتهي بالناس إلى العدمية.

وهنا يجدر الإفادة بشيء من التوسع بالموقف الصحيح من العقل، لإحسان استخدامه والاستفادة من نتاجه.

إن العقل – كما سبق – هو القوة التي يتحقق بها وعي الإنسان بما حوله وقدرته على العلم بالاستعانة بالحواس؛ وتتمثل هذه القوة بمبادئ فطر الله عليها الإنسان، تقوم عليها مبادئ أخرى ومعارف، نتيجة حركة هذا العقل، بحيث يصبح العقل متمثلاً بنوعين:

١- الأفكار الفطرية التي يطلق عليها الأولية، أو الضرورية.

٢- الأفكار التي حصلها الإنسان من خلال تفاعله مع ما يحيط به، وتسمى المكتسبة.

وهـذا النـوع الأخيـر مـن الأفـكار يقـوم – أو هكـذا يفتـرض- علـى الأفـكار الأوليـة الفطريـة التـي تُعـدّ أصـلاً لمـا سـواها، ولهـذا، إذا اختلـف اثنـان فـي فكرتيـن مـن النـوع الثانـي- طبعًـا- فـإن كلاًّ منهمـا يحـاول إثبـات صحـة فكرتـه مـن خـلال بيـان اتسـاقها مـع تلـك الأفـكار الفطريـة الأوليـة، وإثبـات بطـلان فكـرة صاحبـه بكشـف تناقضهـا مـع تلـك الأفـكار.

هـذه العمليـة، هـي العقلانيـة بمفهومهـا التجريـدي، أي تحكيـم العقـل أو الصـدور فـي المواقـف عـن معاييـر العقـل الأوليـة، العقـل الصريـح، كمـا يسـميه ابـن تيميـة.

وهـذا التعريـف ليـس عليـه خـلاف لـدى مـن ينتسـبون للعقلانيـة، وهـو كذلـك قائـم علـى المعنـى الشـرعي للعقـل، ومتسـق مـع الطبيعـة الوظيفيـة للعقـل فـي القـرآن، كمـا أنـه لا خـلاف بـأن المتّصـف بـه يكـون أحـق بوصـف العقلانيـة مـن غيـره.

بنـاءً علـى ذلـك، فـإنّ العقـل لا ينُافـي الوحـي، بـل يقـوم بـه ويخدمـه، فأصحـاب العقـل الصريـح يؤمنـون بـالله الواحـد الأحـد، وببعثـة الرسـل، وبرسـالة محمَّـد ﷺ وبـأن مـا جـاء بـه ﷺ فـي أمـر الديـن يعتبـر وحيًـا مـن الله، وبـأن هـذه الرسـالة بمـا جـاء فـي وحيهـا مـن تعاليـم هـي ديـن الله الذي رضيـه لعبـاده إلـى يـوم القيامـة، وبـأن هـذه التعاليـم، تتضمـن أخبـارًا كمـا تتضمـن أحكامًـا تشـريعية لحيـاة الإنسـان كلهـا مسـتمدة مـن علـم الله؛ هـذا الإيمـان تصديـق قائـم علـى العقـل السـليم.

إذن: فهـا هنـا مصـدران للعلـم، همـا: العقـل والوحـي، وهمـا وسـيلة الإنسـان لتحقيـق حيـاة إنسـانية سـامية، ويستشـهد ابـن تيميـة علـى هـذا بقـول الله تعالـى: ﴿لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَـا مَعَهُـمُ الْكِتَـابَ

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، والكتاب هو الوحي؛ والميزان هو العدل وما يوزن به ويقاس، والعقل ميزان من خلال تفريقه بين المختلفات وتسويته بين المتماثلات، ونحو ذلك، ويقول (والقياس الصحيح هو من العدل الذي أنزله، ولا يجوز قط أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح.. ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية).

إذن فلم تكن مشكلة العقل والنقل، أو الوحي والمعرفة الإنسانية، موجودة لدى السلف الأولين، ذلك أن العقل المؤمن كان حاسمًا في موقفه المنهجي المبني على منطق العقل السليم، فهو يرى:

* الوحي من علم الله الذي يمثل الحق المطلق في كل ما قدمه من قضايا، ومن ثم فإن أي تشكك في قضية من قضاياه، ينقض ذلك الإيمان؛ أي أن هذا التشكيك يعني موقفًا غير عقلي.

والعقل مصدر للمعرفة، وهو الوسيلة التي كلفنا الله على أساسها وأمرنا أن ننظر في أمر الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[سبأ: ٤٦].

ومن المعلوم أنَّ العقل جزء من الإنسان المخلوق المحدود، ومن ثم فإن المعرفة الناتجة عنه تبقى دون العلم الذي يقدمه الوحي، مما يدع هذا العقل إلى الاستهداء بالوحي لما يتّصف به من العلم الكامل الصحيح المطلق، وذلك حتى يرقى ذلك العقل وينفع وينتفع، وتلك هي العلاقة الصحيحة بين علم الله تعالى وعقل الإنسان، دون أن يعني

لـدى المسـلم أنـه ينبغـي أن يضمـر العقـل وأن تبطل وظيفتـه الإبداعيـة ما دام الوحـي موجـودًا، فهـم لا ينظـروا إلـى إيمانهـم بالوحـي وحقائقـه المطلقـة علـى أنـه اسـتغناء عـن العقـل، ومـن ثـم عـزل لـه.

كلا؛ إنَّ العكـس هـو الصحيـح إذ انطـلاق العقـل لـدى هـؤلاء وإبداعـه وفتوحاتـه فـي المجـالات السياسـية والاجتماعيـة والعلمية، وتنوع نشـاطاته، كان نتيجـة ذلـك الإيمـان بالوحـي.

ولمّـا انجـرف فريـق مـن متكلمـي المسـلمين عـن ذلـك الموقـف، وانتهـوا كمـا هـو معـروف، إلـى تقديـم العقـل علـى النقـل بـرد النقـل (الوحـي) إذا تعـارض مـع العقـل أو تأويلـه، بحيـث ينطـوي تحـت مـا قـرره العقـل قبـلاً، لـم يثـن ذلـك أهـل الحـق أن ينبهوا إلـى خطـورة هـذا الموقف، وتناقضـه مـع منطـق الإيمـان، والمقـام الكبيـر للنصـوص الشـرعية، وضرورة التثبـت فـي هـذه القضيـة المنهجيـة، واختـلاف موقـف المسـلم الـذي يؤمـن بنصـوص موحـاة يقينًـا مـن الله، وغيـر المسـلم الـذي لا يؤمـن بوحـي، وأن المسـألة ليسـت مشـادة بيـن الوحـي والعقـل؛ بـل هـي تحديـد موقـع العقـل فـي المعرفـة، وبالـذات المعرفـة الإلهيـة.

لكـن الخطـوة التـي بـدأت- لـدي أهـل الـكلام- فـي مشـكلة العقـل والنقـل لـم تقـف، وإنمـا امتـدت لتنتهـي إلـى شـبه إلغـاء لقيمـة النصـوص تمامًـا، كمـا لـدى الفخـر الـرازي الـذي قـال: (إن الاسـتدلال بالسـمعيات فـي المسـائل الأصوليـة (يقصـد أصـول الديـن) لا يمكـن بحـال؛ لأن الاسـتدلال بهـا موقـوف علـى مقدمـات ظنيـة وعلـى دفـع المعـارض العقلـي).

وجـاء بعـد ذلـك شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة فـي القـرن السـابع الهجـري

فرأى هذا الموقف الغالي في عقلانيته لدرجة التضحية بالوحي، ويقابله موقف هو رد فعل له، يتمثل لدى أناس أفرطوا في ذم العقل وإهماله، وإشاعة كل ما نسب للرسول وأصحابه دون تمحيص، وقد يخلطون الآثار صحيحها بسقيمها، وقد يستدلون بما لا يدل على المطلوب، ويستدلون بالقرآن من جهة إخباره لا من جهة دلالاته، ويجعلون الإيمان بالرسول ﷺ قد استقر، فلا يحتاج أن تبين الأدلة الدالة عليه.

جاء ابن تيمية فرفض هذين الموقفين، وقام بعملية بعث للمنهجية الصحيحة في علاقة الوحي بالعقل التي وعاها السلف الأولون من دينهم، وسلكوها في علمهم وحياتهم.

أعاد رحمه الله الموقف الذي يقتضيه منطق العقل السليم وهو: (أن العقل قد صدّق الشرع في كل ما أخبر به، لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل) ومثل ذلك، مثل رجل دخل بلدًا فسأل عن المفتي فيها، أو عن الطبيب، فدلّه رجل عليه، فإذا أفتاه المفتي أو شخّص له الطبيب مرضه، فإن على السائل وعلى الذي دله التسليم لهما، هذا هو المنطق السليم. أما أن يعترض الدال على الفتوى أو تشخيص الطبيب ويطلب من السائل أن يسمع منه بحجة أنه الأصل الذي دلّه عليهما، فإن فيه تناقضًا في منطق العقل، إذ إن اعتراضه عليهما قدح في تزكيته السابقة لهما، وهذا هو موقف المتكلمين حينما قدموا العقل على الوحي.

ثم إن وضع التعارض بين العقل والوحي تزييف للحقيقة قائم على تصور مشوه لكل من العقل والوحي، ذلك أن التعارض الذي

يتصوره البعض إنما هو في القضايا (المسائل العلمية)، وهي دائرة بين مستويين:

القطع: أي تكون مسألة قطعية.

والظن: أي تكون مسألة ظنية.

وكلا المستويين هي أحكام عقلية بغض النظر عن أصل المسألة، هل هو الوحي أو العقل، وهنا يتكون التقديم للقطعي على الظني، أي أن العقل قدم حكمًا وصل إليه على حكم آخر، وهكذا يقدم ابن تيمية هذا الموقف الصحيح الذي لا يستطيع عقل سليم أن يرفضه، فهو يُقرّر ما يلي:

١- يستحيل أن يتناقض قطعيان أيًا كان مصدرهما: العقل أو السمع، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة.

٢- يمكن أن يتعارض قطعي وظني، وهنا يقدم القطعي أيًا كان مصدره، على الظني أيًا كان مصدره أيضًا.

٣- يمكن أن يتعارض ظنيّان، وهنا على العقل أن يسعى للمفاضلة بينهما، فأيهما ترجح أخذ به.

وهكذا يتحول التعارض من كونه بين الوحي والعقل- كما تصوره المنتسبون للعقلانية- إلى تعارض بين الأفكار التي تقوم في الذهن البشري، وهي أفكار إما أنها نتيجة فهم خاطئ للنصوص، أو أنها مما اكتسبه العقل من المحيط به أو من التراث الفكري البشري، وهذا النوع الثاني هو الذي يتغلغل في عقل المفكر، فيتصوره من الحقائق العقلية، وهو ليس كذلك.

وهكـذا لا مجـال لافتـراض أن تتناقـض مقـررات الوحـي الصحيـح مـع قضايـا العقـل الصريحـة، ولا يمكـن أن يوجـد شـيء مـن ذلـك إلا فـي أوهـام مـن يدعيـه.

ثالثًا: الحرية

مفهوم الحرية عند المسلمين:

الحر من كل شيء هو أفضله وأكمله. يقال أرض حرة، يعني طيبة والإنسان يوصف بأنه حر، يعني أنه عدل خيار كريم.

والحرية أيضًا تقال في مقابل العبودية، والحر خلاف العبد، لكن هذه العبودية ليست بمعناها المطلق ولكنها العبودية للناس أي الرق، فالعبد هنا هو الرقيق المملوك الذي لا يتصرف كما يريد وإنما وفق ما يريد سيده خلافًا لمن خرج من هذه العبودية إلى الحرية فأصبح حرًا يتصرف وفق ما يشاء.

وعليه فإن مفهوم الحرية عند العرب لم يكن متجاوزًا هذا الحد نحو المفاهيم التي تولدت بعد ذلك، خاصة في العصور الحديثة.

وحينما جاء الإسلام – الذي يقرر عبودية الإنسان لله في كل شؤون حياته- لم تُثر إشكالات بشأن مفهوم الحرية لدى الصحابة، بل بقى ذلك المفهوم سائدًا، يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو ابن العاص رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا).

لكن المتكلمين بعد الأجيال الفاضلة تساءلوا عن حرية الإنسان إزاء قدر الله. أي: هل الإنسان حر في أفعاله الإرادية أو أن إرادة الله مسيرة له حتى في هذه الأفعال فهو يمارسها قسرًا عنه وإن تصور أنه مختار؟

وقد انقسموا في ذلك إلى فئتين:

- فئة الجبرية التي ترى أن الإنسان مجبور في كل حركاته، وأنه كالريشة في مهب الريح.

وفئة القدرية الذين قالوا بعكس ذلك، وهو أن الإنسان طليق لمشيئته في أفعاله ولا سلطة لله عليه إلا في كونه سبحانه يعلم مسبقًا بفعله.

ويبقى موقف أهل السنة وسطًا، لم يتطرق إلى الجبر كقول الأولين، ولا إلى تعطيل الله عن إلهيته على خلقه كالآخرين.

قال أهل السنة: إن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وأمدّه بالعقل والإرادة وقوة الفعل والترك، وإنه سبحانه محيط بعلمه السابق وكتابته في اللوح المحفوظ ومشيئته الغالبة بكل شيء، وإنه سبحانه هو الذي يخلق أفعال الإنسان التي بها يأخذ أو يترك ومع ذلك فالإنسان في أفعاله الاختيارية حر لا مكره، يشعر بذلك بنفسه، وهو يقبل أو يرفض.

وفي العصر الحديث جدّت مفاهيم أخرى للحرية انتقلت إلى المسلمين من الأمم الأخرى- وخصوصًا من الغرب- في إطار ما يسمى بحقوق الإنسان، وقد احتاجت هذه المفاهيم من المسلمين إلى نظرة فيها ومن ثم الحكم عليها من وجهة الإسلام.

الحرية في الغرب المعاصر:

لن ندخل في تفاصيل مفاهيم الحرية عند الغرب، لأنها كثيرة ومتشعبة وجرت فيها تحولات كثيرة، لكنها في القرن العشرين تمثلت في صورتين كبيرتين:

الأولى: الحرية من وجهة الأنظمة الليبرالية التي تقدس حرية الفرد في المجالات المختلفة.

الثانية: الحرية من وجهة الأنظمة الشيوعية، حيث ترى القيمة

الحقيقية للمجموع على حساب الأفراد، ومن ثم فالحرية من حق المجموع الذي تمثله الدولة على حساب حقوق الأفراد الذي ينبغي أن ينتظموا في إطار الجماعة باستسلام وثقة بها.

فضلاً عن نظرة ثالثة للحرية، تتمثل بالحرية في الفكر الوجودي عند سارتر ونحوه مما يجعلون الحرية تحللاً للفرد من كل سلطة خارج نزعاته المادية، سواء كانت أعرافًا أو تقاليد أو أديانًا أو قيمًا إنسانية.. إلخ.

أما الحرية بصفتها قيمة إنسانية كبرى ترعاها الأنظمة الليبرالية التي تفردت بالساحة الغربية بعد سقوط الشيوعية، فإنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الحريات المتعلقة بمصالح الأفراد المادية: وهي أنواع أبرزها:

النوع الأول: الحرية الشخصية التي تتمثل بما يلي:

- حرية الذات بأن تحفظ للإنسان كرامته الإنسانية، وأن يكون قادرًا على التصرف في شؤون نفسه دون مصادرة أو إهانة.
- حرية التنقل: داخل الوطن أو السفر والعودة إليه بحرية دون عوائق.
- حرية الأمن: بكفالة عدم تعرضه للحبس أو النفي أو الاعتقال أو العقاب إلا وفقًا لأحكام القانون، ويدخل في ذلك منع تجارة الرقيق، وحرمة المساكن وصيانتها من الانتهاك بدون سبب قانوني.
- حق سرية المراسلات: سواء كانت رسائل ورقية أم محادثات

هاتفية أو أشرطة سمعية أو مرئية، فكل ذلك محظورة الرقابة عليها فيها.

النوع الثاني: حرية التملك: بتيسير إمكانية تملك الشخص وفقد قدراته، وصيانة ملكيته من الاعتداء عليها، وعدم إعاقته من التصرف في ملكه.

النوع الثالث: حرية العمل: بإتاحة الفرصة لكل إنسان أن يختار عمله بحرية، وحمايته من البطالة، وأن تكون الأجور عادلة متكافئة بين العاملين المتماثلين، وحق العامل في الراحة وفي إجازات دورية بأجر، وعدم إكراه الإنسان على عمل لا يرضاه.

القسم الثاني: الحريات المتعلقة بمصالح الأفراد المعنوية، وهي أنواع أيضًا أبرزها:

النوع الأول: حرية العقيدة والعبادة: وتتمثل في حرية الإنسان بألا يعتقد شيئًا البتة، أو أن يعتنق أي دين يشاؤه، أو أن ينتقل بين الديانات حرًّا دون مساءلة.

كما تعني حرية ممارسة المتدين شعائر دينه، سواء كان ذلك في بيته أو في معابد دينية، وينبغي على الدولة أن تنظم وضعها حفاظًا عليها وحفظًا للمجتمع من أن يتجاوز الحدود المسموح له بها.

واعتناق الدولة لدين معين، لا يسوّغ لها مصادرة حرية أصحاب الأديان الأخرى في اعتقاداتهم وعباداتهم.

النوع الثاني: حرية الرأي والتعبير: وتعني إتاحة الفرصة للفرد أن يعبر عن آرائه وأفكاره، وأن ينشرها سواء كان بالاتصال المباشر بالناس

أو عبر وسائل الإعلام والصحافة أو غيرها من الوسائل.

النوع الثالث: حرية الاجتماع للناس، بأن يلتقوا ويتحادثوا ويعبروا عن آرائهم، وأن ينشئوا جمعيات أو هيئات يستطيعون من خلالها تحقيق أهدافهم الاجتماعية: خيرية أو تعليمية أو غيرها.

النوع الرابع: حرية التعليم: وتعني عدم حرمان أي إنسان من التعليم، بل أن تقوم الدولة بكفالة تحقيق حد معين من التعليم المجاني، تعني أيضًا حق الآباء في تربية وتعليم أبنائهم وفقًا لعقائدهم وفلسفاتهم.

النوع الخامس: الحرية السياسية: وتتضمن حق المواطن في المشاركة في الحكم، مما يدخل فيه حق الانتخاب وحق الترشيح، بحيث يصبح الشعب هو مصدر سلطة الحكومة.

وينبغي أن ندرك أمورًا ثلاثة بشأن مفهوم الحرية في الغرب:

أولها: أن هذه الحرية قد تكاتفت على تأييدها مواثيق حقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية وأنها معتمدة في عامة النظم الديمقراطية الغربية اليوم.

ثانيها: أن هذه الحريات ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بالقانون الذي يفرض عليها إطارات محددة لا تتجاوزها، فمثلاً حرية الرأي تقيدها أكثر النظم بألا تسيء إلى أمن الدولة ولا عقيدة الشعب ولا سمعة الأفراد بغير حق ولا أن تطعن في الأديان ومعتنقيها.

ثالثها: أن هذه الحريات ليست من واقعها دالة على ما توحي به صورتها النظرية الزاهية، فهناك عوامل تؤثر فيها وتحد منها بل تتلاعب بها في أحيان كثيرة ومن أهم هذه العوامل:

كثرة القيود التي تفرضها النظم بحجة وقاية الأمن العام والنظام، والمؤسسات المالية الضخمة التي صارت تتحكم بالصحافة وتؤثر على القضاء وتسخر وسائل الإعلام لصالحها، فأصبحت الحرية ملكًا لهذه الفئة القليلة المسيطرة.

الحرية في منهج الإسلام:

الحرية في الغرب بشعبها التي أشرنا إليها، نتاج لردة فعل عند الأوروبيين للتسلط الكنسي الذي ساد قبل نهضة أوروبا الحديثة، حيث مارس هذا التسلط عملية كبح مفرطة لكل نشاطات الإنسان الفكرية والعلمية والحركية في الكون، فأفرط الغرب في ردة فعله بالمقابل في الصياح بالحرية في أصداء بعيدة، ولكنه في الواقع المعيشي لم يستطع أن يطبق حريته المفرطة هذه فحدها بالقانون الذي وضع فيه المشرعون – وهم بشر – حدودًا لهذه الحرية، لا بد أن يخضع الناس لها ويقفوا عندها وإلا عاقبهم القانون.

فالذي تغير هو نوع القيود على الحرية ومرجعيتها، فبعد أن كان الدين – كما يتصور الأوروبي – أصبحت العلمانية فلسفة وأداة حكم.

أما في الإسلام فالأمر يختلف تجاه موضوع (الحرية)، فهو يقرر بدءًا أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في حالة انفلات تام نفسيًا وعمليًا.

ففي الجانب النفسي لا بد له من (معبود) يتجه إليه، ويقدسه، ويشعر بفوقيته، ويخضع له خضوعًا يشعر أنه يرضيه، وهذه هي غريزة (التدين) التي شهد التاريخ البشري أنها لا تنفك عن الإنسان.

ولا تخدعنا دعاوي الملاحدة كالشيوعيين ونحوهم، بأنهم قد ألغوا

التألـه مـن نفوسـهم تمامًـا، فهـذا كـذب صـراح، والدليـل ذلـك أن الاتحـاد السـوفيتي كان يمثـل فيـه تمثـال لينيـن صنمًـا يعبـد تقديسًـا وطوافًـا، وأوضح مـن ذلـك انكشـاف تلـك القشـرة الخادعـة فـور سـقوط الشـيوعية حيـث تبيـن أن ملايـين البشـر فـي ذلـك الاتحـاد كانـوا ينطـوون علـى أديانهـم فـي حنايـا صدورهـم طيلـة ذلـك العهـد.

وفـي الجانـب العملـي لا بـدَّ للإنسـان مـن نظـام يحفـظ لـه حقوقـه مـن أن يجُـار عليهـا، ويحفـظ حقـوق الآخريـن مـن جـوره هـو.

أمـام هاتيـن الحقيقتيـن اللتيـن تمثـلان سـنَّتين مـن سـنن الله فـي خلقـه، يحمّـل الإسـلام الإنسـان- كل إنسـان- مسـؤولية الاختيـار بيـن موقفيـن لا ثالـث لهمـا، وهـو حـر فـي أن يختـار أحدهمـا، لكنـه أيضًـا مسـؤول عـن هـذا الاختيـار:

الموقـف الأول: أن يتجـه إلـى الله بالعبوديـة والخضـوع والدينونـة، وأن يسـتقيم علـى شـرعيته فـي حركـة حياتـه.

وهـو بهـذه العبوديـة والاسـتقامة إنمـا يحقـق كرامتـه الإنسـانية حينمـا يعطيهـا مـا تحتاجـه، ويوجهها إلـى المجـال الـذي هيئـت لـه، حيـث تشـعر بسـعادتها وكمـال وجودهـا.

وبهـذه الكرامـة المرتكـزة علـى العبوديـة لله يتحـرر المسـلم مـن كل القيـود الذاتيـة أو الخارجيـة التـي يفرضهـا البشـر علـى البشـر، بـل ربمـا تكـون لفظـة (يتحـرر) أقـل ممـا تحققـه هـذه العبوديـة، لأنهـا – العبوديـة- تدفـع الإنسـان فـي مجـال التحـرر والحركـة الإيجابيـة دفعًـا متنوعًـا، حيـث تدفعـه:

- على التفكر في آيات الله الكونية والتشريعية والقرآنية.

- وإلى الاجتهاد في معرفة مرادات الله من الإنسان في مستجدات حياته.
- وإلى النصيحة وإبداء الرأي فيما يحقق مصلحة أو يدرأ مفسدة.
- وإلى رفض الكهانة أو العرافة ووصاية البشر على الروح مما يمارسه الدجالون وبعض رجال الأديان لاستغلال الناس.

الموقف الثاني: أن يرفض عبودية الله والاحتكام إلى شرعه:

وهنا حتمًا سيقع في العبودية لغير الله من المخلوقات بشرية أو حيوانية أو غيرها، وسيحتكم إلى شرعة من وضع البشر تتحكم في حريته بما فيها من حق وباطل- شأن أحكام البشر- مما يجعله متلبسًا بالشقاء النفسي من جهة، وفساد الحياة في كل جوانبها من جهة أخرى.

لكن بيان هذه القاعدة العظيمة في شأن الحرية إسلاميًا، لا يكفي عن الإشارة إلى الحرية كما تتمثل في بعض جوانب الحياة وفق منهج الإسلام، كما يلي:

- **في مجال الحرية الشخصية أو في شأن الحياة والأمن:**

عظّم الإسلام حق الحياة وحرمتها، فقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فَإِنَّ دِماءَكُم، وأَمْوالَكم وأَعْراضَكُم حرامٌ عَلَيْكُم كَحُرْمة يومِكُم هَذَا، في شهرِكُمْ هَذَا» وقال ﷺ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْونُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رجلٍ مسلمٍ»، حتى غير المسلم من أهل الذمة لحياته حرمتها العظيمة، وفيه جاء قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة».

وحرم الإسلام جميع أنواع الاعتداء على الإنسان، سواء كان اعتداءً بالضرب والجرح والسجن والجلد، أو بالسب والشتم والتخويف وظن السوء.

في مجال حرية التنقل:

أقر الإسلام هذه الحرية في مجال المباحات، كالترويح عن النفس والتجارة قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: ١٥]، وندب الشرع بعض صور السفر والانتقال، مثل قصد البقاع الشريفة الثلاثة الواردة في قوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»، ومثل ذلك السفر لزيارة الإخوان في الله، كما في قوله ﷺ: «زار رجل أخًا له في قرية فأرسل الله ملكًا على مدرجته فقال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تؤديها؟ قال: لا، إني أحبه في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته»، ومن السفر والانتقال الواجب: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام مرة في العمر على المسلم المستطيع.

ومنع الإسلام من الإساءة لحرية التنقل، سواء كانت داخل البلدة أو خارجها، وسواء كانت نفسية أو جسدية، ومن ذلك أمره الجالسين في الطرقات بكف الأذى وغض البصر ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما وضع عقوبات على قطاع الطرق الذين يسعون في الأرض فسادًا قتلاً وصلبًا ونفيًا من الأرض.

في مجال حرية المسكن:

فقد حرّم الإسلام الاعتداء على حرمة المساكن ومن الدخول عليها

بدون استئذان، ومنع التجسس والتلصص على البيوت بدون وجه حق، فضلاً عن الاستيلاء عليها دون رضا أهلها إلا لمصلحة ظاهرة.

في مجال حرية الرأي والتعبير:

فإن الإسلام لا يكتفي بمجرد فتح المجال ليقول الإنسان الحق، بل يوجه المسلم إلى ذلك إلى درجة الإيجاب إذا كان تركه يفوت مصلحة شرعية، ومن هذا وجوب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفادة المستشير، ولقد كان من عناصر مبايعة الصحابة لرسول الله ﷺ: (أَنْ نَقُولَ بِالْحَقّ أَيْنَمَا كُنَّا لا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ)[1] ، ولهذا راعى الخلفاء الراشدون حرية الرأي، واستنطقوا رعيتهم الحق إذا عرفوه؛ ولكن حرية الرأي في الإسلام ليست مطلقة بدون ضوابط، كلا، إن الإسلام جاء لتحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد، مما يقضي بأن تنضبط حرية الرأي بهذا الإطار، فمنع الإسلام العبث بضروريات الحياة الإسلاميَّة وأهمها الدين، ومنع انتهاك الأعراض بالسب والقذف بغير وجه حق، وحرم الرذائل الخلقية كالكذب وتلبيس الحقِّ بالباطل وفحش الكلام، وما يثير الفتنة في المجتمع المسلم أو يهدد أمنه.

وقد جاء في كل ذلك نصوص كثيرة من الشرع، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[النور: ١٩].

قوله تبارك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ

(١) رواه البخاري ومسلم.

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:١١: ١٢].

أما حرية التدّين، فكما سبق أن الإسلام وجه أتباعه في تعاملهم مع أهل الأديان الأخرى: يهودية أو نصرانية ونحوها حينما تكون للمسلمين الغلبة الحضارية أن يعرضوا عليهم منهج الإسلام بصفته مطلوب الله من عباده، مبيّنين مسئوليتهم أمام الله في الاختيار، ثم يدعونهم لاختياراتهم الحرة دون إكراه كما قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فإن أسلموا أصبحوا جزءًا من الأمَّة المسلمة، وإن بقوا على أديانهم، بقيت لهم في المجتمع الإسلامي حرمتهم الإنسانيَّة في أشخاصهم ومساكنهم ودور عبادتهم.

أما المرتد- وهو الشخص الذي دخل الإسلام ثم أعلن كفره به واستهتاره بشريعته- فإن حكمه بعد إدانته وإصراره على الكفر، هو القتل حدًّا، لأن الارتداد عن الإسلام في المجتمع المسلم ليس مجرد وجهة فكرية لصاحبها، ولكنه خيانة للأمة وحرب للمجتمع والدولة ولهذا ورد في وصفه في قوله ﷺ: (التارك لدينه المفارق للجماعة)، ومعلوم أن الخيانة الوطنية جريمة لها عقوبات مشددة في كل نظم العالم.

وفي ظل العولمة المعاصرة استغل الغرب قيمة الحرية المحببة للقلوب من أجل ترويج ضلالاته، وتفكيك القيم المحافظة لدى الأمم التي لم تصل إلى تحلل الغرب وتهتّكه.

وأبرز صور ذلك ما يتعلق بالمرأة والأسرة حيث جعل من مقتضيات الحرية الشخصية للمرأة حقوق مصادقة الرجال حتى بغير رضا زوجها، والإجهاض، وإنجاب أطفال خارج إطار الزواج فضلاً عن التعري والسفور والاختلاط المشبوه.

ومن صور هذه الحرية ما يسمى بحرية الكتابة والإبداع التي جعلت وسيلة لنشر الضلال والسخرية بالله ودينه وإعلان الكفر، ووصم من يقاوم هذه الشطحات بأنه عدو للحرية رافض للإبداع.

وتلك الصور ومثيلاتها، لا يمكن أن يُقرّها الإسلام، وهو الدين الذي جاء بأهدى السبّل وأقومها لعمارة الحياة بالصلاح وبناء المدنية والحضارة الزاكية، وإنما تدخل تلك الصور في باب المفاسد والمهلكات وإشاعة الفاحشة، وإثارة الفتنة وحرب الله ورسوله، ولهذا فهي مرفوضة في دين الله، ولمن فعلها ودعا إليها عقوبات مقرّرة في شريعة الإسلام، لأنها لا تنطوي على شيء من الحرية بمفهومها الصحيح.

رابعًا: حقوق الإنسان

تلتقي حقوق الإنسان في التصور الغربي المعاصر مع حقوق الإنسان في الإسلام بجزئيات كثيرة، وتختلف في أخرى، لكن الخلاف الأكبر بين الجانبين هو في المرتكز الذي تقوم عليه الحقوق في كل منهما، مما يسهل تبينه من تعريف كل منهما من خلال أصله الذي انبثق عنه:

فحقوق الإنسان في الإسلام: منحة من الله للإنسان، أنعم بها عليه من أجل تحقيق كمال وجوده الإنساني وسعادته في الدنيا والآخرة.

أما في الفكر الغربي المعاصر فهي وفق تعريف: (اندرو ليفين): مطالب مشروعة لأناس من آخرين في إطار واقع اجتماعي يتبادل المنافع.

فمن خلال هذين التعريفين وامتدادات كل منهما:

نجد أن حقوق الإنسان في الإسلام مصدرها الله خالق الإنسان والعليم بمتطلبات وجوده الحقيقية، وهي منحة من الله للإنسان، لأن هذه الحقوق فيما بين العباد تمثل بالدرجة الأولى واجبات ملزمة للمؤمنين تجاه الآخرين، وموجبها هو الله سبحانه، فهو الذي طلبها من العباد لمصلحة العباد أنفسهم، بينما مصدرها في الحضارة الغربية الإنسان نفسه من خلال حاجاته وتجارب حياته وما عاناه من إهدار لهذه الحقوق واستهتار بإنسانيته عبر قرون طويلة، لكن الإنسان مهما بلغ في علمه وخبرته، يبقى قاصرًا عن تحقيق التشريع الكامل المحقق لكل متطلبات الفطرة الإنسانية بتوازن وشمول.

ثـم إن هـذه الحقـوق الوضعيـة مقصـورة علـى النطـاق الدنيوي وسـعادة هـذه الحيـاة، أمـا الحقـوق فـي الإسـلام فهـي بالدرجـة الأولـى وسـيلة لتحقيـق السـعادة الأخرويَّـة، فضـلاً عـن تحقيـق أمـن الدنيـا وسـعادتها.

وفـي الإسـلام تسـتهدف هـذه الحقـوق تحريـر الإنسـان مـن كل الضواغـط الخارقـة لهـا، سـواء كانـت طغيانًـا بشـريًا أو إغـواءً شـيطانيًا أو شـهوات آثمـة.

أمـا فـي الفكـر المعاصـر فهـي محصـورة بالعنصـر الأول وهـو الطغيـان البشـري، أيضًـا، فـإن قاعـدة هـذه الحقـوق فـي الإسـلام همـا: الحقـان المتبـادلان بيـن الله تعالـى وعبـاده، الـواردان فـي الحديـث الشـريف الـذي رواه معـاذ بـن جبـل رضي الله عنه. قـال: (كنـتُ رديـفَ النبـيِّ ﷺ علـى دابـة فقـال: (يـا معـاذ هـل تـدري مـا حـق الله علـى العبـاد، ومـا حـق العبـاد علـى الله؟) قلـت: الله ورسـوله أعلـم، قـال: (فـإنَّ حـق الله علـى العبـاد أن يعبـدوه ولا يشـركوا بـه شـيئًا، وحـق العبـاد علـى الله، إذا فعلـوا ذلـك أن لا يعذبهـم)[1].

أمـا فـي نصـوص حقـوق الإنسـان المعاصـرة فغائبـة هـذه القاعـدة تمامًـا، حيـث يعتبـر الأوروبيـون أن العصـور الوسـطي- عندهـم- هـي عصـور امتهـان الإنسـان وتمريـغ كرامتـه وهتـك حقوقـه، وذلـك لمّـا سـاد الظلـم والطغيـان والإقطـاع الجائـر والامتيـازات الطبقيـة والعقوبـات الوحشـية والتعذيـب الدينـي والسياسـي.. ولكـن أوروبـا بـدأت تبحـث عـن حقـوق للإنسـان تنـادي بهـا وتسـعي لتطبيقهـا بعـد ذلـك الوضـع، فقـط فـي البدايـات الأولـى مـن القـرن الثالـث عشـر الميـلادي حينمـا صـدرت فـي بريطانيـا الوثيقـة الكبـرى لعـدد مـن تلـك الحقـوق نتيجـة ثـورة الشـعب

(١) البخاري: الرقاق، ومسلم: الإيمان.

على طبقات الملك، ثم تممت بوثيقة أخرى عام ١٦٨٩م، وأُتبعت عام ١٧٠١م بوثيقة (إعلان الحقوق).

وفي أمريكا صدر إعلان حقوق الإنسان من خلال إعلان الدستور الأمريكي عام ١٧٧٦م، وفي فرنسا صدر الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان عام ١٧٨٩م.

ثم بعد ذلك في القرن العشرين الميلادي انتقل الاهتمام بحقوق الإنسان في الغرب من النطاق المحلي إلى النطاق الدولي عبر المؤسسات الدولية، حيث تُوِّج هذا الاهتمام بإصدار (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨م.

يتمثل هذا الإعلان في مقدمة تبين أن هذه الحقوق مطالب إنسانية أصلية وأنه ينبغي التعاون على إقامتها للقضاء على الظلم والتعدي على كرامة الإنسان وحريته.

ثم تضمّن الإعلان ثلاثين مادة تتناول مختلف الحقوق السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والمدنية، وكلها تأكيدات على القيم العامة، مثل: حق الحرية وحق الحياة والمساواة والتعليم وتنمية شخصية الإنسان وحماية المصالح المادية والأدبية للناس.

وحينما وقّعت دول العالم على هذا الإعلان تحفظت المملكة العربية السعودية على ما جاء فيه مما يخالف الإسلام مثل:

- حرية الإنسان في تغيير دينه، لمخالفته حد الردة في الإسلام.
- وحرية المرأة أن تتزوج من تشاء، دون أي قيد بسبب العرق أو

الجنسية أو الدين لمخالفته تحريم زواج المسلمة بغير المسلم وزواج المسلم بالمشركة والكافرة غير الكتابية.

وقد ردت المملكة بمذكرة تبين موقفها المبني على الإسلام في هذه القضايا.

أما الجوانب الإيجابية في هذا الإعلان فإنها – وإن كانت إنجازًا عظيمًا بالنسبة للغرب بحكم فقدانه لها في عصوره السابقة وفقدانه الوحي الذي يهديه بشأنها- فهي بالنسبة للمسلمين تمثل معالم تشريعية في دينهم الذي ارتقت حضارتهم وتسامت إنسانية وجودهم حينما كانوا مستقيمين على هداه، وتراجعت حضارتهم وساءت حياتهم حينما فرطوا فيه.

وقد سعت بعض الهيئات الإسلاميَّة لصياغة إعلان حقوق الإنسان وفق منهج الإسلام، ومنها إعلان القاهرة في ١٤ محرم ١٤١١هـ الذي وَضعَته منظمة المؤتمر الإسلامي للدول الإسلاميَّة وصيغ على مسالك إعلانات حقوق الإنسان المعاصرة، وإليك هذا الإعلان:

تأكيدًا للدور الحضاري والتاريخي للأمة الإسلاميَّة التي جعلها الله خير أُمة أورثت البشرية حضارةً عالمية متوازنة ربطت الدنيا بالآخرة وجمعت بين العلم والإيمان، وما يجب أن تقوم به هذه الأمة اليوم لهداية البشرية الحائرة بين التيارات والمذاهب المتنافسة وتقديم الحلول لمشكلات الحضارة المادية المزمنة.

ومساهمة في الجهود البشرية المتعلقة بحقوق الإنسان التي تهدف إلى حمايته من الاستغلال والاضطهاد، وتهدف إلى تأكيد حريته وحقوقه في الحياة الكريمة التي تتفق مع الشريعة الإسلاميَّة ..

وإيمانًا بأن الحقوق الأساسية والحريات العامة في الإسلام جزء من دين المسلمين، لا يملك أحد بشكل مبدئي تعطيلها كليًا أو جزئيًا، أو خرقها أو تجاهلها، فهي أحكام إلهية تكليفية أنزل الله بها كتبه، وبعث بها خاتم رسله، وتمم بها ما جاءت به الرسالات السماوية، وأصبحت رعايتها عبادة، وإهمالها أو العدوان عليها منكرًا في الدين، وكل إنسان مسئول عنها بمفرده، والأمة مسئولة عنها بالتضامن.

إن الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي تأسيسًا على ذلك تعلن ما يلي:

المادة الأولى:

(أ) البشر جميعًا أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوة لآدم، وجميع الناس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية وفي أصل التكليف والمسئولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللون أو اللغة أو الجنس أو المعتقد الديني أو الانتماء السياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات، وأن العقيدة الصحيحة هي الضمان لنمو هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان.

(ب) إنَّ الخَلْق كلهم عيال الله، وإنَّ أحبهم إليه أنفعهم لعياله، وإنه لا فضل لأحد منهم على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

المادة الثانية:

(أ) الحياة هبة الله وهي مكفولة لكل إنسان، وعلى الأفراد والمجتمعات والدولة حماية هذا الحق من كل اعتداء عليه، ولا يجوز إزهاق روح دون مقتضى شرعي.

(ب) يحرم اللجوء إلى وسائل تُفضي إلى إفناء الينبوع البشري.

(ج) المحافظة على استمرار الحياة البشرية إلى ما شاء الله واجب شرعي.

(د) سلامة جسد الإنسان مصونة، ولا يجوز الاعتداء عليها، كما لا يجوز المساس بها إلا بمسوغ شرعي، وتكفل الدولة حماية ذلك.

المادة الثالثة:

(أ) في حالة استخدام القوة أو المنازعات المسلحة، لا يجوز قتل من لا مشاركة لهم في القتال كالشيخ والمرأة والطفل، وللجريح والمريض الحق في أن يداوى وللأسير أن يطعم ويؤوى ويكسي، ويحرم التمثيل بالقتلى، ويجب تبادل الأسرى وتلاقي اجتماع الأسر التي فرقتها ظروف القتال.

(ب) لا يجوز قطع الشجر أو إتلاف الزرع والضرع أو تخريب المباني والمنشآت المدنية للعدو بقصف أو نسف أو غير ذلك.

المادة الرابعة:

لكل إنسان حرمته والحفاظ على سمعته في حياته وبعد موته، وعلى الدول والمجتمع حماية جثمانه ومدفنه.

المادة الخامسة:

الأسرة هي الأساس في بناء المجتمع، والزواج أساس تكوينها، وللرجال والنساء الحق في الزواج، ولا تحول دون تمتعهم بهذا الحق قيود منشؤها العرق أو اللون أو الجنسية.

وعلى المجتمع والدولة إزالة العوائق أمام الزواج وتيسير سبله وحماية الأسرة ورعايتها.

المادة السادسة:

(أ) المرأة مساوية للرجل في الكرامة الإنسانية، ولها من الحق مثل ما عليها من الواجبات، ولها شخصيتها المدنية وذمتها المالية المستقلة وحق الاحتفاظ باسمها ونسبها.

(ب) على الرجل عبء الإنفاق على الأسرة ومسئولية رعايتها.

المادة السابعة:

(أ) لكل طفل عند ولادته حق على الأبوين والمجتمع والدولة في الحضانة والتربية والرعاية المادية والصحية والأدبية، كما تجب حماية الجنين والأم وإعطاؤها عناية خاصة.

(ب) للآباء ومن بحكمهم، حق في اختيار نوع التربية التي يريدونها لأولادهم، مع وجوب مراعاة مصلحتهم ومستقبلهم في ضوء القيم الأخلاقية والأحكام الشرعية.

(ج) للأبوين على الأبناء حقوقهما، وللأقرب حق على ذويهم وفقًا لأحكام الشريعة.

المادة الثامنة:

لكل إنسان التمتع بأهليته الشرعية من حيث الإلزام والالتزام، وإذا فقدت أهليته أو انتقصت قام وليّه مقامه.

المادة التاسعة:

(أ) طلب العلم فريضة، والتعليم واجب على المجتمع والدولة وعليها تأمين سبله ووسائله وضمان تنوعه، بما يحقق مصلحة المجتمع ويتيح للإنسان معرفة دين الإسلام وحقائق الكون وتسخيرها لخير البشرية.

(ب) من حق كل إنسان على مؤسسات التربية والتوجيه المختلفة من الأسرة والمدرسة والجامعة وأجهزة الإعلام وغيرها أن تعمل على تربية الإنسان دينيًا ودنيويًا تربية متكاملة ومتوازنة تنمي شخصيته وتعزز إيمانه بالله واحترامه للحقوق والواجبات وحمايتها.

المادة العاشرة:

الإسلام دين الفطرة، ولا يجوز ممارسة أي لون من الإكراه على الإنسان، أو استغلال فقره أو جهله لحمله على تغيير دينه إلى دين آخر أو إلى الإلحاد.

المادة الحادية عشرة:

(أ) يولد الإنسان حرًّا، وليس لأحد أن يستعبده أو يذله أو يقهره أو يستغله، ولا عبودية لغير الله تعالى.

(ب) الاستعمار بشتى أنواعه وباعتباره من أسوأ أنواع الاستعباد محرم تحريمًا مؤكدًا، وللشعوب التي تعانيه الحق الكامل للتحرر منه وفي تقرير المصير، وعلى جميع الدول والشعوب واجب النصرة لها في كفاحها لتصفية كل أشكال الاستعباد أو الاحتلال، ولجميع الشعوب الحق في الاحتفاظ بشخصيتها المستقلة والسيطرة على ثروتها ومواردها الطبيعية.

المادة الثانية عشرة:

لكل إنسان الحق في إطار الشريعة في حرية التنقل، واختيار محل إقامته داخل بلاده أو خارجها، وله- إذا اضطهد- حق اللجوء إلى بلد آخر، وعلى البلد الذي لجأ إليه أن يجبره حتى يبلغه مأمنه ما لم يكن سبب اللجوء اقتراف جريمة في نظر الشرع.

المادة الثالثة عشرة:

العمل حق تكفله الدولة والمجتمع لكل قادر عليه، وللإنسان حرية اختيار العمل اللائق به مما تحقق به مصلحته ومصلحة المجتمع، وللعامل حقه في الأمن والسلامة وفي كافة الضمانات الاجتماعية الأخرى، ولا يجوز تكليفه بما لا يطيقه، أو إكراهه أو استغلاله أو الإضرار به، وله – دون تمييز بين الذكر والأنثى- أن يتقاضى أجرًا عادلاً مقابل عمله دون تأخير، وله الإجازات والعلاوات والفروقات التي يستحقها، وهو مطالب بالإخلاص والإتقان، وإذا اختلف العمال وأصحاب العمل، فعلى الدولة أن تتدخل لفض النزاع ورفع الظلم وإقرار الحق والإلزام بالعدل دون تحيز.

المادة الرابعة عشرة:

للإنسان الحق في الكسب المشروع، دون احتكار أو غش أو إضرار بالنفس أو بالغير والربا ممنوع مؤكدًا.

المادة الخامسة عشرة:

(أ) لكل إنسان حق التملك بالطرق الشرعية، والتمتع بحقوق الملكية بما لا يضر به أو بغيره من الأفراد أو المجتمع، ولا يجوز نزع الملكية إلا لضرورات المنفعة العامة ومقابل تعويض فوري وعادل.

(ب) تحرم مصادرة الأموال وحجزها إلا بمقتضى شرعي.

المادة السادسة عشرة:

لكل إنسان الحق في الانتفاع بثمرات إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني أو التقني، وله الحق في حماية مصالحه الأدبية والمالية على أن يكون هذا الإنتاج غير مناف لأحكام الشريعة.

المادة السابعة عشرة:

(أ) لكل إنسان الحق في أن يعيش في بيئة نظيفة من المفاسد والأوبئة الأخلاقية تمكنه من بناء ذاته معنويًا، وعلى المجتمع والدولة أن يوفرا له هذا الحق.

(ب) لكل إنسان على مجتمع ودولته حق الرعاية الصحية والاجتماعية، بتهيئة جميع المرافق العامة التي تحتاج إليها في حدود الإمكانات المتاحة.

(ج) تكفل الدولة لكل إنسان حقه في عيش كريم يحقق له تمام كفايته وكفاية من يعوله، ويشمل ذلك المأكل والملبس والمسكن والتعليم والعلاج وسائر الحاجات الأساسية.

المادة الثامنة عشرة:

(أ) لكل إنسان الحق في أن يعيش آمنًا على نفسه ودينه وأهله وعرضه وماله.

(ب) للإنسان الحق في الاستقلال بشئون حياته الخاصة في مسكنه وأسرته وماله واتصالاته، ولا يجوز التجسس أو الرقابة عليه أو الإساءة إلى سمعته، وتجب حمايته من كل تدخل تعسفي.

(ج) للمسكن حرمته في كل حال، ولا يجوز دخوله بغير إذن أهله أو بصور غير مشروعة، ولا يجوز هدمه أو مصادرته أو تشريد أهله منه.

المادة التاسعة عشرة:

(أ) الناس سواسية أمام الشرع، يستوي في ذلك الحاكم والمحكوم.

(ب) حق اللجوء إلى القضاء مكفول للجميع.

(ج) المسئولية في أساسها شخصية.

(د) لا جريمة ولا عقوبة إلا بموجب أحكام الشريعة.

(هـ) المتهم بريء حتى تثبت إدانته بمحاكمة عادلة توفر له فيها كل الضمانات الكفيلة بالدفاع عنه.

المادة العشرون:

لا يجوز القبض على إنسان أو تقييد حريته أو نفيه أو عقابه بغير موجب شرعي، ولا يجوز تعريضه للتعذيب البدني أو النفسي أو لأي نوع من المعاملات المذلة أو القاسية أو المنافية للكرامة الإنسانية.

ذلك نموذج لصياغة إعلان إسلامي لحقوق الإنسان الشرعية، وهي حقوق مقرّرة في هذا الدين، ومعلومة في أصوله ومصادره، وحسبها أنها من الله تعالى العليم بما يصلح للإنسان فردًا وجماعة في الدنيا والآخرة.

السيرة النبويَّة

لدورات الأئمة والخطباء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين

أما بعد

فهذا منهج السيرة النبويَّة المقرر لدورات الأئمة والخطباء، ويهدف إلى:

١- التعريف بأهمية النبوة في حياة البشر، والغاية منها.

٢- تعليم الدارس جوانب من سيرة النبي ﷺ.

٣- تربية الدارس على محبة النبي ﷺ والاقتداء به.

ويراعى في كل ما سبق التركيز على الدروس والعبر.

والمقرر مختار ليناسب الملتحقين بالدورات من حيث المحتوى وسهولة مفرداته، ومن حيث اشتماله على أهمّ ما يحتاج الطالب معرفته في هذه المرحلة من سيرة النبي الكريم ﷺ .

وصلى الله وسلَّم على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

مداخل عامة

أولاً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسل:

١ - تعريف البشر بخالقهم وحكمة وجودهم:

إن أرباب العقول المتأملين في هذا الكون العظيم بأرضه وسمائه وأفلاكه وما فيه من أحياء وما يحويه من آيات عظيمة يدركون أن له خالقًا عظيمًا ومدبّرًا حكيمًا، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] ولكنهم لا يدركون صفات هذا الخالق ولا يعرفون حقيقته، إذ ليس بمقدور عقولهم معرفة ذلك وإدراكه بالتفصيل، ولقد ضلّ من أراد التعرف على الله أو وصفه باجتهاد منه، فهناك من قال بوحدة الوجود، وهناك من يزعم بأن الطبيعة هي المتصرفة بنفسها، وهناك من جعل لله ولدًا، وهناك من يعتقد في بعض المخلوقات النفع أو الضر كالنور أو الظلام وغير ذلك من انحرافات،

لـذا كان لابـد مـن إرسـال الرسـل لتعريـف البشـر بخالقهـم وغيـر ذلـك مـن انحرافـات، لـذا كان لابـد مـن إرسـال الرسـل لتعريـف البشـر بخالقهـم إلـى الرسـل لتعريفهـم بخالقهـم، فهـم أيضًـا بحاجـة لبيـان الهـدف مـن خلقهـم فـي هـذه الحيـاة وهـو عبـادة الله والسـير علـى صراطـه المسـتقيم كمـا قـال تعالـى: ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلَّا لِيَعبـدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢-الإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة:

هنـاك مـن ينكـر الحيـاة بعـد المـوت ويـرى أن المـوت هـو نهايـة الأحيـاء كمـا قـال الله عـن هـؤلاء: ﴿وَقَالُـوا مَـا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَـا الدُّنْيَـا نَمُـوتُ وَنَحْيَـا وَمَـا يُهْلِكُنَـا إِلَّا الدَّهْـرُ وَمَـا لَهُـمْ بِذَلِـكَ مِـنْ عِلْـمٍ إِنْ هُـمْ إِلَّا يَظُنُّـونَ﴾ [الجاثيـة: ٢٤]، وهنـاك مـن يـدرك بفطرتـه السـليمة أن هنـاك حيـاة أخـرى بعـد المـوت، ولكـن هـؤلاء لا يعلمـون تفاصيـل هـذه الحيـاة، لأن أخبارهـا مـن أمـور الغيـب التـي لا يدركهـا العقـل ولا يمكـن التوصـل إليهـا إلا بالنقـل الصحيـح ممـن يعلمهـا وهـو الله. والرسـل هـم المخبـرون عـن الله فـي ذلـك.

٣- تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر:

عندمـا تطـول المـدة بعـد بعـث الأنبيـاء والرسـل، تتعـرض الشـرائع التي جـاءوا بهـا إلـى التحريـف ويبـدأ الضـلال يسـري فـي أممهـم فيعـم الجهـل ويحـل الشـرك محـل الديـن الصحيـح، فيحتـاج الأمـر إلـى إرسـال رسـل يـردون البشـر إلـى جـادة الصـواب ويصححـون الانحرافـات، كمـا قـال تعالـى: ﴿كَانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَـثَ اللَّهُ النَّبِيِّـينَ مُبَشِّرِيـنَ وَمُنذِرِيـنَ وَأَنـزَلَ مَعَهُـمُ الْكِتَـابَ بِالْحَـقِّ لِيَحْكُـمَ بَـيْنَ النَّـاسِ فِيمَـا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ

وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان بين نوح وآدم عشر قرون[١] كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

٤-حاجة البشر في الدنيا إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم:

يحتاج البشر في حياتهم إلى بعض الضوابط التي توفر لهم سبل العيش الآمن السعيد وتحقق لهم العدل والمساواة في تعامل بعضهم مع بعض اجتماعيًا واقتصاديًا وهذا ما تضمنته الشرائع التي جاءت بها الرسل، لذا نجد بعض الرسل يركز في دعوته لقومه – بعد اهتمامه بالتوحيد – على إصلاح جانب من جوانب الحياة، قومه بحاجة إليه. كمال قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

---

(١) القرن مائة عام.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٤. وقال: رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

ثانيًا: مضمون دعوة الأنبياء:

يشترك جميع الأنبياء والرسل في الدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى، فهو أول ما دعوا إليه أقوامهم وقضوا طوال مدة رسالاتهم مجتهدين في ترسيخ معانيه في حياة أممهم. فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعبدونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعبدوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعبدوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

والمقصود بالتوحيد الذي دعت له الرُّسل هو التوحيد الكامل بأنواعه الثلاثة:

- **توحيد الربوبيَّة:** وهو اعتقاد أنَّ الله وحده هو خالق العالم ومدبِّر الكون والمتصرف فيه.
- **توحيد الأسماء والصفات:** وهو الاعتقاد بأنَّ الله متصف بصفات الكمال منزَّه عن صفات النقص فيثبت لله ما أثبته لنفسه وأثبته رسوله ﷺ من أسماء وصفات.

وتوحيد الإلهية: وهو إفراد الله بالعبادة[1]، وهذا التوحيد هو الذي

(١) العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والفعال مثل: الدعاء، والخوف، والحب، والرجاء، والنذر، والذبح، والتوكل، والاستعانة إلى غير ذلك من العبادات التي يجب أن تكون كلها خالصة لله عز وجل. (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص: ١٤.

دعت إليه الرسل وهو متضمن لأنواع التوحيد الأخرى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنَّما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله فلا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلاّ عليه ولا يوالي إلا له ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله وذلك يتضمن ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣][1]. ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وورد في كثير من الآيات أن الرسل كانوا يفتتحون دعوتهم لأقوامهم بهذا التوحيد بقولهم: ﴿اعبدوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

ويؤكد الرسول المصطفى ﷺ اشتراك الأنبياء كلهم في دعوة أقوامهم إلى التوحيد بقوله: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»[2].

وهذا التوحيد هو الذي فطر الله الناس عليه كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وقول الرسول ﷺ (كُلُّ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، وكانت البشرية على هذا التوحيد منذ أن نزل آدم على الأرض وأخذته منه ذريته جيلاً بعد جيل واستمروا عليه عشرة قرون – كما سبق ذكره – وكما جاء في الصحيح عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح

(١) انظر كلام ابن تيمية في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٢، ١٣.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ٣/ ١١٨. صحيح مسلم: القدر: ٨/ ٥٢، ٥٣.

عشرة قرون كلهم على الإسلام»[1] ثم بدأ الانحراف عن هذا التوحيد ودخل الشرك في حياة الناس حين لبَّس الشيطان على بعض بني آدم واستدرجهم إلى الشرك وعبادة ما سوى الله، وذلك أنه كان هناك قوم صالحون بين آدم ونوح اشتهروا بالصلاح وكثرة العبادة، فجاء بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأوحى لهم أبليس: لو صورتموهم صورًا تذكركم بهم وعبادتهم فيزيدكم ذلك نشاطًا في العبادة كلما نظرتم لهم، ففعلوا فلما ماتوا نشأ قوم من بعدهم فأوحى لهم إبليس بأنَّ الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فبدأ بذلك الشرك[2].

ويقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قول تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ.....﴾ [النحل: ٣٦]: أي بعث في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه. فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام»[3].

فنوح عليه السلام أول رسول بعد حدوث الشرك في ذرية آدم، ثم تتابع إرسال الرسل والأنبياء كل نبي يُبعث في قومه وربَّما بعث أكثر من نبي ورسول[4] في عصر واحد كموسى وهارون عليهما السلام، وإبراهيم ولوط عليهما السلام. حتى كان آخرهم وخاتمهم نبينا محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

(٢) انظر حول بداية الشرك في ذرية آدم: الشوكاني: فتح القدير: ٥/ ٣٠٠: الألوسي: روح المعاني: ٢٩: ٧٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٩.

(٤) أصح ما قيل في الفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول ما أرسل بشريعة جديدة وأنزل معه كتاب، وأما النبي فهو من بعثه الله ليدعو إلى شريعة من قبله. انظر: كتاب النبوات لابن تيمية: ٢٥٥، تفسير أضواء البيان للشنقيطي: ٥/ ٧٣٥.

ما يجب على المسلم تجاه الأنبياء:

يجب على المسلم أن يؤمن بأنَّ هؤلاء الرسل والأنبياء أكرم البشر وأكملهم، اختارهم الله للقيام بمهمة عظيمة لا تنال بكثرة المال، ولا بكثرة العبادة، ولا تدرك بالذكاء ولا بالجد والاجتهاد، وإنما هي اصطفاء من الله وتكريم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ....﴾ [الأنعام: ١٢٤].

كما يجب عليه أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله في القرآن[١] والذين لم يذكرهم، ويقتضي الإيمان بهم أن نقدرهم ونحترمهم ولا نفرق – في الإيمان – بين أحد منهم، فلا نجحد نبوَّة أحد منهم. لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ولكن ليس لنا أن نتبع سوى شريعة خاتمهم محمَّد بن عبد الله ﷺ لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل من قبله. لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ محمَّد بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

---

(١) وعددهم خمسة وعشرون هم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: ١/ ٢٤٠.

تفضيل الأنبياء:

والأنبياء يتفاضلون في الدرجة والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿..... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأفضلهم على الإطلاق محمَّد بن عبد الله ﷺ، لأنّ الله اصطفاه واختاره ليختم به أنبياءه ويجعل دينه أكمل الأديان وأعظمها لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وقوله ﷺ: (فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وأُرسِلْتُ إلى الخَلقِ كافَّةً وخُتِم بي النَّبيُّونَ)[1] وقوله ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ النَّاس آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

وعلى الرغم من أن نبينا محمدًا ﷺ آخر الأنبياء إلا أن ذكره وفضله قد شاع وسبق ظهوره، فقد ورد ذكره وفضله على لسان بعض الأنبياء وذكر في بعض الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومن ذلك حديث

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد/ ٥.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء/ ٣.

أبي إمامة رضي الله عنه حين قال: قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دَعوةُ أبي إبراهيمَ وبِشارةُ عيسَى ورُؤيا أُمِّي الَّتي رأت أنَّهُ خرج منها نورٌ أضاءَت لهُ قُصورُ الشَّامِ)[1] ودعوة إبراهيم هي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى هي ما ورد في القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/ ٢٦٢، والطبراني في المعجم الكبير: ٧٧٢٩. والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٤، وابن سعد في الطبقات: ١/ ١٠٢. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٢. إسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه. ولمزيد من تخريج هذا الحديث وشواهده انظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي: ٢٥.

ثالثًا: أهمية سيرة النبي محمَّد ﷺ ومظاهر تميزها:

شهد تاريخ البشرية منذ القدم ولا يزال يشهد عددًا من بني البشر الذين برزوا في مجتمعهم وعلا ذكر سيرهم بين أقوامهم كالملوك العادلين، والقادة الأبطال، والزعماء المصلحين، أو الشعراء المبدعين، وأرباب الفكر والاختراع وغيرهم ممن اشتهر لدى العامة ذكر سيرهم وبرزوا على مسرح التاريخ. ولكن هناك طائفة من بني البشر غير هؤلاء ذكرهم أشرف، وسيرهم أعظم وأعم نفعًا، ذلكم هم الأنبياء، ذلك لأن عظمة سيرهم غيرهم من بني البشر تبدو في جانب أو جوانب محدودة الأثر والنفع في حياة البشر، بينما سير الأنبياء والرسل تكون أعم نفعًا وأشمل أثرًا في حياة البشر، حيث اختارهم الله واصطفاهم لهداية البشر، وجعل حياتهم نبراسًا لأقوامهم ينير لهم الطريق في هذه الحياة في جوانبها المختلفة، وجعلهم محلاً للاقتداء كما قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، نعم، لقد كانت سير الأنبياء أكمل السير في حياتهم وبين أقوامهم، وبعد مبعث النبي محمَّد بن عبد الله ﷺ أصبحت سيرته أكمل سير الأنبياء وأعظمها وهي السيرة الوحيدة – من بين سير الأنبياء – الصالحة للاقتداء إلى قيام الساعة، وجاء تميز سيرته ﷺ من عدة وجوه نذكر أهمها:

١ – تكامل حلقاتها ودقة تفاصيل أطوارها من الولادة حتى الوفاة:

تعد سيرة المصطفى ﷺ السيرة الوحيدة – من بين سير الأنبياء – من حيث تكامل حلقاتها ووضوح أطوارها منذ ولادته حتى وفاته،

وتفاصيل أحداثها مدونة معلومة في جميع مراحل عمره. أما الأنبياء غيره فيكتنف سيرهم الغموض في عدد من مراحل حياتهم، فهناك من الأنبياء من لا نعرف عنهم شيئًا إلا أنّ الله أرسلهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أما الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن فمنهم من لا نعرف عنه إلا الاسم، والكثير منهم لا نعرف من سيرهم إلا حوارهم لأقوامهم ومعجزاتهم التي أيدهم الله بها، وحين نتبين سيرة أشهر رسولَين قبل نبينا محمَّد عليهم السلام وهما: موسى وهو أشهر رسول لبني إسرائيل والذي أنزلت عليه التوراة، وأكثر الأنبياء السابقين ذكرًا في القرآن الكريم، فحين نحاول التعرف على سيرته سنجد أن كثيرًا من أطوارها مجهول. فنحن لا نعرف عنه إلا مولده والظروف التي أحاطت به، وعيشه في أول عمره في بيت فرعون، ثم هجرته إلى مدين وزواجه فيها ومكثه بها عشر سنين لا نعلم تفاصيل سيرته خلالها، ثم عاد إلى مصر وفي الطريق أوحى الله إليه، وعاد إلى مصر ليدعو فرعون وملأه وليرفع عن قومه بني إسرائيل ظلم فرعون. وقد بين الله تفاصيل الحوار بين موسى وفرعون والمعجزات والآيات التي لم ينتفع بها فرعون وملؤه ثم هلاك فرعون وملئه ونجاة بني إسرائيل. ولهذا فإن هناك حلقات مجهولة في سيرة موسى عليه السلام وفترات غامضة من حياته اشتملت على كثير من أخلاقه وعبادته وتعامله مع من حوله وغير ذلك مما هو فيه محل الاقتداء لكنا لا نعلم عنها شيئًا.

أما الثاني فهو عيسى عليه السلام الذي يقول في شأن سيرته علّامة الهند في عصره السيد سليمان الندوي رحمه الله: «ومن أقرب الرسل عهدًا

بالإسلام عيسى عليه السلام الذي يزيد عدد المنتسبين إليه – بحسب إحصاءات الأوربيين – على عدد الديانات الأخرى، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شئون حياته وأحوال معيشته أخفى من غيره وأغمض، وقد أسدل الزمان عليها حجابًا أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل الذين يعدون من أصحاب الأديان المشهورة» ثم قال: «إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثًا وثلاثين سنة كما يروي الإنجيل. والأناجيل الموجودة في الأيدي – على ما في رواياتها من ضعف ولبس – مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات في أواخر حياته وحسب، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد، وجيء به إلى مصر وأراه الله آية أو آيتين في صباه، ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره... فأين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة – على الأقل من حياته؟ وفيمَ قضاها؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئًا ولن تعلم..»[1].

أما سيرة نبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم فقد دونت بتفصيل دقيق وبيان واضح منذ ولادته وحتى وفاته بشكل لم يحدث من قبله ولا من بعده، حيث دون فيها أقواله وأفعاله وابتساماته وحتى سكونه وصمته حال إقامته وسفره، وفي سلمه وجهاده، وفي منزله وخارجه.

وقد أجبرت هذه الميزة الكبيرة لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم غير المسلمين على ما في قلوبهم من حقد على الاعتراف بها. كتب جون ديون بورت في مقدمة كتابه عن السيرة المحمدية سنة ١٨٧٠م

(١) سليمان الندوي: الرسالة المحمدية: ٥٧، ٥٨.

وعنوانه(الاعتذار من محمَّد والقرآن) قال في مقدمته: «لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنّوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بما هو أكثر تفصيلاً وأشمل بيانًا مما يعرفون من سيرة محمَّد وأحواله»[١].

ويقول الإنجليزي باس ورث سميث: «..... لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئًا، ولا نتبين حقيقتها أبدًا، أو تبقى منها أمور مجهولة؛ بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس، وروابطه، وعاداته، ونعلم أول تفكيره، وتطوره، وارتقاءه التدريجي، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته...»[٢].

٢- صحة نقلها إلينا وثقة مصدرها:

إن مما يميز سيرة نبينا محمَّد ﷺ – بالإضافة إلى ما سبق – وصولها إلينا بطرق صحيحة ومن مصادر بلغت أعلى درجات الثقة والصدق. فمن أهم مصادر سيرته ﷺ القرآن الكريم حيث ورد فيه جزء كبير من سيرته ﷺ اشتمل على أوصافه وأخلاقه، وأطوار دعوته، ووصف بعض معاركه، ومواقف أعدائه من دعوته وتعامله معهم. والمصدر الثاني للسيرة النبويَّة كتب السنة النبويَّة وقد دونت السنة النبويَّة بطريقة فريدة لم تدون بها سيرة نبي قبله. فما وصل من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام لم يدّون في كتبهما ألا بعد مفارقتهما هذه الحياة، فالتوراة لم تدون إلا بعد موسى بقرون[٣]، مما جعلها تتعرض لكثير

(١) نقلًا عن سليمان الندوي: الرسالة المحمدية: ٩٨.
(٢) المرجع السابق: ١٢١.
(٣) محمود شاكر: السيرة النبوية: ٣٠.

من التحريف، ودخلها آراء كثير من الكتاب، وبسبب ذلك وقع فيها بعض التناقض. أما الأناجيل فقد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأكثر من ستين سنة، وتجعل اللغة التي دونت بها ومن قام بترجمتها، كما دخل التحريف كثيرًا من هذه الأناجيل بعد عدة قرون على أيدي القساوسة والملوك. أما سنة نبينا محمَّد ﷺ فقد دونت في حياته بطريقتين: الأولى الحفظ المتقن حيث تخصص مجموعة من الرواة المؤمنين الصادقين بملازمة الرسول ﷺ وأوقفوا حياتهم وفرغوا أذهانهم لحفظ كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، بل حتى وصف أحواله من تبسمه ومشيته وصمته وغير ذلك. وذلك في سفره وإقامته بل حتى في بيته[1]. وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بقوة الحفظ واعتنوا به عناية كبيرة فاعتمدوا عليه في حفظ تاريخهم وأشعارهم وأنسابهم.

والطريق الثاني: الكتابة حيث كان عدد من رواة الصحابة وفي عهد الرسول ﷺ يقوم بكتابة ما يسمعه ويراه من سنة الرسول ﷺ. ومن أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقد كان يكتب ما يسمعه في صحيفة سماها (الصادقة) وعبد الله بن عباس رضي الله عنه ترك بعد وفاته حمل بعير من كتبه، ثم جاء جيل التابعين الذين نقلوا ما رواه الصحابة حفظًا وكتابة وسطروا في جمع السنة النبويَّة أمثلة رائعة في التفاني والدقة، فقد قاموا بالرحلة لتدوين الحديث وقطعوا المسافات الطويلة من أجل حديث واحد يذكر لأحدهم.

(١) وأهم هؤلاء الرواة رضي الله عنهم: أبو هريرة وحفظ (٥٣٧٤) حديثًا. وعبد الله بن عباس (٢٦٦٠) حديثًا. أم المؤمنين عائشة (٢٢١٠) أحاديث. عبد الله ابن عمر (١٦٣٠٠) حديثًا. جابر بن عبد الله (١٥٦٠) حديثًا. أنس بن مالك (١٢٨٦) حديثًا. أبو سعيد الخدري (١١٧٠) حديثًا. عبد الله بن عمرو ابن العاص.

ثم تسلم تابعو التابعين المَهمَّة بالأمانة نفسها ودونت كتب الحديث ووضعت الشروط لرواية السنة حماية لها من التحريف والكذب[١]. وقد اهتم بعض الرواة والكتاب بجمع ما له صلة بسيرة الرسول واستخلاصها من السنة، فهناك من اهتم بمغازي الرسول ﷺ وتدوينها في كتب خاصة[٢] ثم جاء من جمع دلائل النبوَّة ومعجزات الرسول[٣]. كما كتب بعض الكتاب كتبًا في شمائل الرسول ﷺ وأخلاقه وما يعمله في يومه وليلته[٤] إذًا فسيرته ﷺ دُوِّنت في زمن مبكر ونقلت إلينا بطريقة موثوقة تجعلها السيرة الوحيدة الصحيحة الصالحة للاقتداء.

٣- شمولها لجميع جوانب الحياة البشرية:

يختلف البشر في عيشهم في هذه الحياة، فهم أقسام وأنواع عدة من حيث مراكزهم الاجتماعية، ومن حيث مسؤولياتهم ومهامهم في هذه الحياة، وأوضاعهم في أطوار حياتهم، وكل هؤلاء بحاجة إلى قدوة مثالية جامعة تتكامل فيها جوانب الحياة البشرية يتأسون بها في حياتهم. ولا نجد هذه القدوة إلا في سيرة نبينا محمَّد ﷺ، فما بين أيدينا من سير للأنبياء غيره ينقصها هذا الجانب، فعيسى عليه السلام مثلاً لم يتزوج ولم تكن له ذرية، كما أنه لم يكن حاكمًا يرأس دولة، وفي سيرة موسى عليه السلام التي بين أيدينا جوانب ناقصة تحتاجها الحياة البشرية

(١) لمعرفة مراحل تدوين السنة انظر: صبحي صالح: علوم الحديث ومصطلحه: ١٤ وما بعدها.
(٢) مثل مغازي عروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ) ومغازي الإمام الزهري (ت: ١٢٤هـ) وتلميذه موسى بن عقبة (ت: ١٤١هـ).
(٣) مثل كتاب: دلائل النبوة لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ).
(٤) مثل كتاب الشمائل للترمذي (ت: ٢٧٩هـ).

للاقتداء بها، في الجوانب الاجتماعية كعلاقته مع زوجه وأهله، وفي الجوانب السياسية كمنهجه في الحكم والتعامل المالي وغير ذلك[1]، أما سيرة محمَّد ﷺ فهي كما قال سليمان الندوي – رحمه الله –: «جامعة يجد فيها الناس كلهم على اختلاف طوائفهم الأسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها»[2].

فيجد فيه الحاكم قدوته في سياسة دولته، والأب يجد فيه قدوته في تربيته لأولاده، والزوج في تعامله مع زوجته، وهو معلم بارع يعلم أصحابه يجد فيه المعلم قدوته، وهو تلميذ مؤدَّب يتلقى الوحي من جبريل، وزاهد صادق في زهده، وتاجر صدوق في تعامله، وعامل أمين في رعيه للغنم، وغني شاكر، وفقير صابر، ويتيم محتاج للرعاية والعطف، كما أنه كان كافلاً للأيتام راعيًا لهم، وهو داعٍ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة كما أنه مجاهد لا يخشى في الله لومة لائم، وهو عابد لا يملُّ من التقرب لله بأنواع العبادات، وقائد عسكري محنك له نهجه الخاص في إدارة المعارك والتعامل مع الأعداء، كان في انتصاره متواضعًا كما كان في هزيمته عزيزًا، إلى غير ذلك من الأحوال البشرية التي جمعها الله في سيرته فاستحقَّ أن يكون بذلك قدوة صالحة لجميع بني البشر في جميع أحوالهم وأطوارهم فصلوات الله وسلامه عليه.

(١) انظر حول هذا الكلام عن موسى إلى السيرة النبوية لمحمود شاكر: ٢٩، ٣٠.
(٢) الرسالة المحمدية: ١٣٢.

موضوعات مختارة من السيرة النبويَّة قبل البعثة:

نسبه:

هو محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة وينتهي نسبه إلى عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة[1].

فنسبه من جهة أبيه وأمه يرجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فنسبه في أعلى درجات الأصالة والشرف، وقد خصه الله بذلك واصطفاه، ويقول صلى الله عليه وسلم في شرف نسبه: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)[2].

(١) السيرة النبوية لابن هشام: تعليق محمد محيي الدين عبد الحميد: ١/ ١. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٩١، ٩٠. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ١٩، ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

فهو صفوة من صفوة وخيار من خيار، وفي ظهور النبي ﷺ من أسرة رفيعة الشأن عريقة النسب حكم عظيمة منها: أن في ذلك عاملاً من عوامل نجاح الدعوة في أول أمرها حيث كان للعصبية القبلية وزنها عند العرب، بدليل أن من أسلم في أول الأمر ممن لا عصبية له لقي من العذاب أشد من غيره، وعلى الرغم من أن محمَّدًا ﷺ وجد من أقرب النَّاس له أشد الأذى كأبي لهب إلا أنَّه وجد مزيدًا من العناية والحماية من عمِّه أبي طالب مكَّنته من تخطي عقبات كبيرة في تبليغ الدعوة.

كما أن في شرف هذا النسب النبوي ردًا على من يفكر في اتهام النبيِّ في دعوته أو في بعض تعاليم شريعته بأنها جاءت رد فعل لواقع اجتماعي كان يعيشه، كما هو شأن كثير من أصحب الدعوات المادية كـ«ماركس» وغيره ممن كانت دعواتهم ردود فعل لما عانوه في واقع حياتهم؛ فلو كان ﷺ وضيعًا في نسبه لفسر أعداؤه دعوته على أنها محاولة لتعويض ما يشعر به من نقص في واقعه، وعلى أن ما يدعو له من مساواة إنما هو سعى منه لرد اعتباره ومن هم على شاكلته.

مولده وطفولته:

ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين وفي عام الفيل[1] بلا خلاف. أما اليوم الفعلي الأشهر أنه ولد في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول الموافق سنة ٥٧٠ للميلاد، ولم يقدر الله لهذا المولود الجديد أن يرى والده عبد الله الذي توفي قبيل ولادة ابنه وهو يقوم بمهمة لوالده عبد

(١) هو العام الذي قدم فيه أبرهة الحبشي من اليمن ليهدم الكعبة ويتقدم جيشه الفيل فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

المطلب في المدينة، وكان عبد المطلب (والد عبد الله) خير معين لزوجة ابنه (آمنة) في تولي أمر هذا الوليد الجديد، فاحتفى بمولده وسماه محمَّدًا.

رضاعته وشق صدره:

كان من عادة قريش أن تبعث أطفالها إلى البادية ليعيشوا هذه السن المبكرة من أعمارهم بين أحضان الطبيعة حيث طلاقة الهواء وجودة الغذاء مقارنة بما في القرى، وليكسبوا من أخلاق أهل البادية القوة والخشونة، وهذه مهمة في حياة العرب التي فيها القتال سمة بارزة من سمات حياتهم. لذا كانت المرضعات من أهل البادية يأتين بين الحين والآخر يبحثن عن مواليد جدد في مكة مقابل أجر يأخذنه على ذلك. وفي العام الذي ولد فيه محمَّد ﷺ قدم عدد من المرضعات وكلما عُرض عليهن رفضنه لموت والده والسبب كما قالت مرضعته حليمة: «فقلنا ما عسى أن تصنع بنا أمّه أو عمُّه أو جدُّه» وكانت حليمة السعدية[1] آخر مرضعة قَدِمت بسبب ضعف دابتها وقد سبقها المرضعات وأخذن المواليد الجدد ولم يبق إلا محمَّد فلم تأخذه أول الأمر فلما لم تجد أحدًا قالت لزوجها الذي قدم معها: «والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم أخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه».

ومنذ اللحظات الأولى ظهرت بركة محمَّد ﷺ على بيت حليمة فما إن رضع من ثديها حتى درَّ عليه وعلى ابنها وكان ثدياها قد جفَّا من اللبن أو كادا. كما كان معهم شاة قد جف ضرعها هي الأخرى من شدَّة هزالها فدر لبنها تلك الليلة فشربت وزوجها، فباتوا تلك الليلة بخير ليلة.

(١) هي حليمة بن الحارث من بني سعد.

فأدرك زوج حليمة أن هذا الوليد ليس مولودًا عاديًّا فقال: «يا حليمة تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة» وكانت راحلتها التي قدمت عليها سبب تأخرها في قدومها لما تعاني من الهزال، وفي العودة نشطت حتى سبقت من تقدمها من المرضعات فتعجبن من أمرها وقلن: ما شأنها؟ فقالت: والله حملت عليها غلامًا مباركًا.

وتوالت بركة محمَّد على بيت حليمة وزوجها، فعندما وصلوا إلى ديارهم ديار بني سعد وكانت سنتهم سنة جدب وقحط، وكانت أغنام قومها تروح جياعًا وتعود جياعًا من قلة المرعى، إلا أن غنم حليمة وزوجها تروح جياعًا وتعود بطانًا شبعى فيحلبون منها ويشربون.

ولما كان من المعتاد بقاء الرضيع سنتين عند مرضعته فقد عادت حليمة ومعها زوجها بمحمد بعد سنتين إلى أمه لا لترده ولكن لتطلب منها أن تبقيه عندهم مدة أطول طمعًا في استمرار البركة عليهم، فأذنت آمنة بأن يعود ابنها معهما فعادا به، وبعد أشهر حدثت له حادثة شق الصدر[1].

حادثة شق الصدر الأولى:

حدث شق صدر الرسول ﷺ وهو في السنة الثالثة من عمره[2] وقد أورد الإمام مسلم رحمه الله قصة هذه الحادثة في رواية موجزة عن أنس ابن مالك رضي الله عنه (أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ.

(١) عن أخبار رضاعة ﷺ من حليمة أنظر: سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٢-١٧٧. ابن حبان موارد الظمآن: ٥١٢، ٥١٣، الطبراني: المعجم الكبير ٢٤/ ٢١٢-٣٢١. أبو نعيم: دلائل النبوة: ١/ ١٩٣-١٩٦، وأنظر تخريج الخبر في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١٠٢، ١٠٣، وصحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي: ٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٥، ١٧٦.

فَأَخَـذَهُ فَصَرَعَـهُ فَشَـقَّ عَـنْ قَلْبِـهِ، فَاسْـتَخْرَجَ الْقَلْـبَ، فَاسْـتَخْرَجَ مِنْـهُ عَلَقَـةً. فَقَـالَ: هـذَا حَـظُّ الشَّـيْطَانِ مِنْـكَ، ثُـمَّ غَسَـلَهُ فِـي طَسْـتٍ مِـنْ ذَهَـبٍ بِمَـاءِ زَمْـزَمَ. ثُـمَّ لأَمَـهُ[1] ثُـمَّ أَعَـادَهُ فِـي مَكَانِـهِ. وَجَـاءَ الْغِلْمَـانُ يَسْـعَوْنَ إِلَـى أُمِّـهِ يَعْنِـي ظِئْـرَهُ[2] فَقَالُـوا: إِنَّ مُحَمَّـدا قَـدْ قُتِـلَ. فَاسْـتَقْبَلُوهُ وَهُـوَ مُنْتَقِـعُ اللَّـوْنِ[3]. قَـالَ أَنَـسٌ: وَقَـدْ كُنْـتُ أَرَى أَثَـرَ ذلِـكَ الْمِخْيَـطِ فِـي صَـدْرِهِ[4]. ويقـول د: أكـرم العمـري معلقًـا علـى هـذه الحادثـة: ولا شـك أن التطهيـر مـن حـظ الشـيطان هـو إرهـاص مبكـر للنبـوَّة، وإعـداد للعصمـة مـن الشـرِّ وعبـادة غيـر الله؛ فـلا يحـل فـي قلبـه شـيء إلا التوحيـد، وقـد دلـت أحـداث صبـاه علـى تحقـق ذلـك فلـم يرتكـب إثمًـا ولـم يسـجد لصنـم رغـم شـيوع ذلـك فـي قومـه[5].

وحدث شق صدره ﷺ مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج.

وفاة أمه وجده:

مكث ﷺ عند حليمة حتى ردته إلى أمه وهو ابن أربع أو خمس سنين ليعيش بجوار أمه وينهل من حنانها لكن الله شاء ألا ينعم بالعيش في أحضانها طويلاً فقد وافاها الأجل بين مكة والمدينة بعد رجوعها مع صبيها من زيارة أخواله، وعمره حينئذ ست سنوات، فانتقلت كامل رعايته إلى جده عبد المطلب الذي كان يحوطه الرعاية مع والدته. وبعد وفاتها ازدادت عناية الجد بالصبي اليتيم وخصه بمكانة لم يخصها أحدًا من أبنائه أو أحفاده.

إلا أن هـذه الحـال لـم تـدم طويـلاً حيـث توفـي جـده عبـد المطلـب بعد

(١) جمعه وضم بعضه إلى بعض.
(٢) مرضعته وهي حليمة.
(٣) متغير.
(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله. ١/ ١٦٦.
(٥) السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٠٤. وقال انظر اجتهاد العلماء في استجلاء الحكمة من الحادثة الروض الأنف للسهيلي: ٢/ ١٧٣. وفتح الباري لابن حجر: ٧/ ٢٠٥.

وفاة والدته بسنتين وعمره عليه السلام ثمان سنوات، فكفله عمه أبو طالب الذي لم يكن بأقل عناية ورعاية لمحمد من أمه وجده.

ولا شك أن لله سبحانه وتعالى حكمًا عظيمًا في تقلب محمَّد عليه السلام في مراحل اليتم التي عاشها في صباه، فلم تكتحل عيناه برؤية والده حيث ولد بعد وفاته، كما لم ينعم بجوار أمه أكثر من سنتين وما كاد حر مصيبة فقده لأمه يتلاشى حتى أصيب بفقد جده.

كل ذلك وهو لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. فلعل من تلك الحكم أن الله أراد أن يتولى رعايته، وأن يكون اعتماده على الله منذ نشأته لا على أحد سواه، ومن كان اعتماده على ربه وتولى الله رعايته فالخير قرينه والتوفيق حليفه، وإنّا لنرى في واقع حياتنا عددًا من الأيتام توفي عن بعضهم أحد والديه أو كلاهما فرثى من حولهم لحالهم وتخوفوا على مآلهم في هذه الحياة الدنيا، ولكن اعتماد متوليهم على الله ورعاية الله لهم جعلت حياتهم أسعد وأفضل من غيرهم ممن حظى برعاية والديه وكان اعتماده عليهما كبيرًا.

رعيه الغنم:

بعد وفاة عبد المطلب عاش محمَّد في كنف عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال ومع ذلك قبل رعاية ابن أخيه وأسبغ عليه عظيم عطفه وكبير إحسانه، فأراد صلى الله عليه وآله وسلم ألا يبقى عالة على عمه دون أن يشاركه في تخفيف العبء وتحمل المسؤولية، فكان يتولى رعي الغنم لأهل مكة مقابل قراريط يأخذها على ذلك. ورعي الغنم هي مهنة الأنبياء عليهم السلام في بعض مراحل حياتهم كما جاء في الحديث الصحيح: (مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ...)[1].

(١) صحيح البخاري: كتاب الإجارة باب: رعي الغنم، وقال ابن حجر (رحمه الله) قال العلماء: الحكمة

أخلاقه ومكانته قبل البعثة:

على الرغم من أن محمدًا ﷺ عاش في مجتمع اختلطت فيه محاسن الأخلاق بسيّئها إلا أن الله صانه من الوقوع في سيئها واصطفى له أحاسنها مما أكسبه مكانة رفيعة في نفوس الناس كبيرهم وصغيرهم، فلم يسجد لصنم من الأصنام قط، ولم يكن يأكل مما يذبح لها، بل كان يكرهها كرهًا شديدًا فحين يسأله أحد باللات والعزى كان يقول له: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئًا بغضهما.

واشتهر عنه الصدق في القول والعمل وحسن أداء الأمانة، حتى أصبح (الأمين) لقبًا يميزه عن غيره، كما لم يكن يمارس ما كان أقرانه من الشباب يمارسونه من اللهو والطرب، فهمَّ مرة أن يسمر ليلة كما يسمر الفتيان فترك غنمه التي يرعاها عند صاحب له من الرعاة، فلما دنا من مكة أخذه النوم فما أفاق إلا على حرّ الشمس، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فعصمه الله بالنوم أيضًا. ويقول ﷺ في ذلك (فما هممت بعدها بأمر سوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته)[1]، وعلاوة على ذلك كان يشارك قومه في عظائم الأمور: فعندما نشبت

في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النوبة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفون به من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم. (فتح الباري: ٤/ ٤٤١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٤٥. وقال حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. العلي: صحيح السيرة النبوية: ٤٣.

حرب الفجار كان يناوله أعمامه فيها النبال[1] وحضر وهو غلام حلفا عقدته قبائل قريش فيما بينها تعاهدوا فيه على ألا يجدوا مظلومًا في مكة من أهلها أو من غيرهم إلا كانوا معه على من ظلمه حتى يردوا له حقه[2] وحين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قامت قريش بتحديد بناء الكعبة فكان يشارك قومه في أعمال البناء ويقوم بنقل الحجارة[3] وتتجلى مكانته وتبدو رجاحة عقله وحسن تدبيره في حادث رفع الحجر الأسود، فحين أرادت قريش أن تضع الحجر الأسود مكانه حدث بينهم خلاف حول من يتشرف بوضعه في مكانه، كل منهم يريد هذا الشرف، وانتهى خصامهم بتحكيم أول داخل من باب بني شيبة لحل خلافهم، فكان محمَّد ﷺ أول داخل ثم أمرهم جميعًا أن يرفعوه ثم أخذه فوضعه مكانه[4] فأنهى بهذا التصرف الحكيم خلافًا كاد يؤدي إلى نزاع وفرقة بين قبائل قريش.

كل تلك الأخلاق العالية والتصرفات الحكيمة جعلت محمَّدًا يتبوَّأ

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٠١. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١١٢. وحرب الفجار وقعت بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان وسميت بذلك لأنها وقعت في الشهر الحرام.

(٢) قال ﷺ عن هذا الحلف: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه» أخرجه الإمام أحمد: ١/ ١٩٠-١٩٣. والحاكم في المستدرك: ٢/ ٢١٩، ٢٢٠ وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة: ٤/ ٥٢٤. وفي رواية «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ٩٢.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب كراهة التعري في الصلاة وغيرها. وفي كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، مستدرك الحاكم: ٣/ ٤٥٨، وانظر تخريج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١١٦. انظر: نسب قريش للزبيري: ٢٣١، وابن حزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

مكانة في مجتمعه لفتت الأنظار إليه وجعلت النَّاس من حوله يجلُّونه ويحترمونه.

زواجه من خديجة رضي الله عنها:

برز في مجتمع العرب عدد من النساء اشتهر بعضهن بالحكمة ورجاحة العقل، وبعضهن اشتهر بالمتاجرة ووفرة المال، وكانت خديجة بنت خويلد ممن جمعت بين ذلك، وكان تستأجر الرجال للمتاجرة بمالها في أسواق الجزيرة العربية، فلما سمعت بأخلاق محمَّد وكريم صفاته، عرضت عليه أن يخرج ليتاجر بمال لها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال، فقبل وخرج متاجرًا لها يرافقه غلام خديجة (مَيْسَرة) فعاد محمَّد عليه السلام، وقد نجح في مهمته خير نجاح وحقق لخديجة ربحًا وفيرًا.

وقد ذكر ميسرة لسيدته خديجة مزيدًا من الصفات الحسنة التي شاهدها خلال صحبته لمحمَّد فذكر لها أمانته وصدقه في المعاملة فزادها ذلك إعجابًا به ورغبة في القرب منه، فدعاها ذلك إلى التفكير في الزواج منه، ولم يكن ذلك حبًّا منها لمجرد الزواج، فقد كان كثير من رجال قريش وأشرافهم يطمعون في الزواج منها ولكنها ترفض الزواج من أي واحد منهم، أما محمَّد فقد طمعت في أخلاقه وجميل صفاته، فعرضت عليه الزواج فوافق على ذلك، ولم تكن موافقته على الزواج منها، وهي أكبر منه، طمعًا في مالها، بل طمعًا في أخلاقها ورجاحة عقلها مما يوفر له معها حياة أفضل، ويتوقع منها أكثر من غيرها تفهمًا لواقعه المتميز عن واقع قومه، وهي قبل ذلك وبعده اصطفاء من الله له لتكون -بما تملكه من صفات متميزة- سنده الذي

يشد من أزره، ويخفف من أعباء مهام الدعوة التي تنتظره في مستقبله المرتقب.

وكان عمره حين تزوجها خمسًا وعشرين سنة، وعمرها على المشهور أربعين سنة، وبقيت زوجته الوحيدة حتى توفيت، وأنجبت له أربع بنات، وابنين اثنين[1].

وقد كانت لها مكانة كبيرة في الإسلام ومنزلة عند الله عظيمة لما كان لها من شأن عظيم في وقوفها مع النبي ﷺ عندما بُعث، تؤمِّن من روعه عند الفزع، وتشد من أزره حين يخذله الناس، وتواسيه وتسليه بما يخفف عنه ما يلاقيه من أعباء في طريق الدعوة، لذا استحقت من الله التقدير والتكريم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ)[2]، كما استحقت من الرسول ﷺ حبَّها وجميل الثناء عليها حتى بعد وفاتها.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، مستدرك الحاكم: ٣/ ٤٥٨. وانظر تخريج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري، ١/ ١١٦. انظر: نسب قريش للزبيري: ٢٣١. وابن حزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب تزويج خديجة وفضلها:. وصحيح مسلم: فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين.

البعثة النبويَّة

حالة العرب قبل البعثة:

الحالة الدينيَّة:

يدين معظم العرب قبل البعثة بالوثنية التي تؤمن بوجود الإله وتقرُّ بأنَّه خالق الكون ومدبره: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ولكنَّهم في وثنيتهم جحدوا توحيد الله بالعبادة فأشركوا معه الأصنام في العبادة وزعموا أنَّها تقربهم إلى الله زلفى، واتخذت كل قبيلة صنما لها تعظمه وتفخر به، كما كانوا ينكرون البعث بعد الموت، كما ذكر ذلك الله عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. وكانت الأجيال يتابع بعضها بعضًا في تلقي هذه المعتقدات دون تفكير أو مناقشة في مدى صحتها. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وبجانب العرب الوثنيين كان هناك طوائف قليلة خرجت عن هذه العموم الوثني: فهناك طوائف اليهود في يثرب وخيبر، وهناك من يدين بالنصرانية في نجران، وأفراد قليلون من الذي أدركوا فساد ما عليه العرب من الشرك فتعبدوا على بقايا دين إبراهيم، ويسمى هؤلاء المتحنثون.

الحالة السياسية:

قامت في أطراف الجزيرة العربية قبل البعثة بزمن طويل عدة دول عربية في اليمن والشام والعراق، ولكن تلك الدول اندثرت قبل البعثة بزمن، حتى أصبحت الجزيرة العربية مفككة سياسيًا لا تحكمها دولة ولا يسودها نظام واحد، وغلب على العرب الطابع القبلي حيث تُعدّ القبيلة هي الوحدة السياسية التي ينتمي إليها الفرد، فبأمرها يأتمر وتحكمه أعرافها، ومن أجلها يناضل وعن شرفها يدافع. كما أن القبيلة بأسرها مسؤولة عن الدفاع عن أفرادها والذود عن حقوقهم وعلى كل فرد أن يقف مع أخيه من قبيلته ظالمًا أو مظلومًا، ونتيجة لذلك نشبت حروب طاحنة بين بعض القبائل العربية دام بعضها عقودًا من السنين كان سببها خلاف بين أفراد، كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء، وقد كانت تلك الأوضاع ممهدة لقبول العرب للدين الإسلامي حيث أفنت تلك الحروب أعدادًا هائلة من العرب وأدَّت بهم إلى حال سيئة أصبحوا ينشدون الخلاص منها فوجدوا ذلك في الدين الجديد.

الحالة الاجتماعية:

ساد في المجتمع العربي قبل البعثة جملة من الأخلاق والأعراف الاجتماعية منها ما هو حسن ومنها ما هو سيئ، ونشير إلى بعض النوعين:

فمن جملة الأخلاق السيئة انتشار شرب الخمر، ولعب الميسر (القمار) ووأد البنات[1] عند بعض القبائل، ومنها التطير. وقد حرم الإسلام تلك الأخلاق وخلص العرب منها ووجههم إلى خير منها. فكانوا يلجؤون لشرب الخمر للتخفيف عن نفوسهم مما يجدونه في حياتهم من العناء والهموم بسبب كثرة موتاهم من جراء الحروب أو بسبب قساوة المعيشة. فلما جاء الإسلام حرم الخمر لما فيه من المفاسد الكبيرة على الجسم والعقل، ولأن في الإيمان بالله بما يزرعه من طمأنينة خير عزاء للمسلم فيما يجده من هموم الحياة ومشاكلها. كما حرم الإسلام وأد البنات حيث كان سببه يرجع إلى خوف العار عندما تسبي المرأة. والعربي معروف بشدة حرجه عندما يخدش شرفه. أو خوفًا من الفقر. ولكلا الأمرين كان كثير من العرب يكره البنات ويفرح بإنجاب الأبناء. فلما جاء الإسلام حرم هذا النوع من التعامل مع المرأة وأبطل كل نظرة تقوم على احتقار المرأة وكرّمها تكريمًا يليق. بمكانتها ويتناسب مع طبيعتها.

ولكن كان لدى العرب جملة من الأخلاق الحسنة التي فاقوا غيرهم فيها كالشجاعة، والكرم، والوفاء بالعهود، والحفاظ على العرض، وصفاء الذهن وبساطة العيش. وقد أكد الإسلام على التمسك بتلك الأخلاق ووجهها توجيهًا سليمًا، ولعل العرب بتلك الصفات الحسنة استحقوا أن ينالوا شرف احتضان الإسلام في سنين مهده، وتحمل أعباء انطلاقته الأولى.

(١) وأد البنت: دفنها وهي حية.

بدء الوحي:

كان لا بدَّ لنزول الوحي على محمَّد ﷺ من تمهيد وتهيئة، وتمثل ذلك في الرؤيا الصالحة يراها في منامه ثمَّ تتحقق في يقظته واضحة كوضوح فلق الصبح.

وفي ذلك تهيئة لنفسه ﷺ لقبول نزول الوحي عليه، ثم تطور الأمر إلى أن بدأ يشعر بالرغبة في العزلة عن الناس والخلوة بنفسه، ووجد في غار حراء القريب من مكة مكانًا مناسبًا لخلوته، فكان يمكث فيه أيامًا وليالي يطيل فيه الفكر والتدبر حتى ينفد زاده ثم يعود لزوجته خديجة يتزود منها بالزاد ثم يعود للغار.

وبينما هو في حالته تلك إذ أنزل عليه الله ملكًا من ملائكته وهو جبريل عليه السلام فقال لمحمد ﷺ: «اقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ» أي لا أعرف القراءة وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب» فأخذه جبريل فضمه إليه بشدة ثم تركه وقال: «اقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه جبريل وضمه مرة ثانية حتى بلغ منه الجهد ثم تركه وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

فلما ذهب عنه جبريل عاد محمَّد ﷺ إلى زوجته خديجة وقد امتلأ رهبة وأوصاله ترتجف من شدة الموقف وقال لها: «زملوني زملوني» فزملته، أي غطته في فراشه حتى هدأ وذهب عنه الروع فأخبر خديجة بخبره وقال: لقد خشيت على نفسي، ولكن الزوجة الصالحة – وهي تعرف خصاله الحميدة- قالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وزيادة في تثبيت فؤاد محمَّد واستجلاء أمره انطلقت خديجة معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وهو من العرب الباحثين عن الحق فدخل دين النصرانية وتعلم الإنجيل، فلما عرض عليه محمَّد ﷺ ما حدث له قال له ورقة: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى، تمنى ورقة أن يعيش حتى يدرك ظهور دين محمَّد ﷺ فيتبعه وينصره على ما من عاداه، ولكنه توفي قبل ذلك.

أدرك محمَّد ﷺ - بعد حديث ورقة له- أنه نبي، لذا حزن حزنًا شديدًا حين لم يعاوده الوحي حتى أصابه همٌّ شديد، ولكن لم تدم مدة انقطاع الوحي حيث نزل عليه جبريل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].

ثم تتابع نزول الوحي[1]. كان عمره ﷺ حين نزل عليه الوحي أربعين سنة، وقد بدأ بذلك محمَّد ﷺ مرحلة جديدة في حياته، محملة بالمسؤولية الجسيمة، مسؤولية تبليغ الدعوة العظيمة من ربه تعالى إلى الناس كافة، وقد استمرت تلك المرحلة ثلاثًا وعشرين سنة، انقسمت إلى طورين هما: الدعوة في العهد المكي: والدعوة في العهد المدني.

الدعوة في العهد المكي:

وتنقسم الدعوة فيه إلى مرحلتين هما: المرحلة السرية، ومرحلة الجهر بالدعوة.

(١) عن قصة نزول الوحي عليه ﷺ انظر: صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان باب بدء الوحي، سيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٠ وما بعدها. السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٣٨٥.

المرحلة السرية:

استمرت الدعوة فيها ثلاث سنوات[1]، اقتصر ﷺ في هذه الدعوة على الذين من حوله ممن له بهم علاقة حسنة، ويتوسم فيهم الاستجابة لدعوته لما يعرفه عنهم من حسن الخلق ورجاحة العقل وصدق القول، فهم إن لم يستجيبوا له فلن يفشوا له سرًّا.

دخل في هذه المرحلة في الإسلام أقرب الناس لرسول الله ﷺ من الرجال والنسا، فكان أول من استجاب له زوجته خديجة، واستجاب له صديقه أبو بكر وابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب على صغر سنه، ومولاه زيد بن حارثه رضي الله عنهم، كما سعى هؤلاء لدعوة غيرهم للدخول في الدين الجديد فدخل على يد أبي بكر عدد من المسلمين، حتى تكاثر عدد الداخلين في الإسلام في هذه المرحلة فبلغ أكثر من ثلاثين مسلمًا ومسلمة، وكل ذلك خفية حتى أن هؤلاء المسلمين لا يعرف بعضهم بإسلام بعضهم الآخر.

الجهر بالدعوة والابتلاء:

إن دعوة مثل دعوة محمَّد ﷺ - جاءت لجميع البشر- لا يمكن أن تطول مدة سرّيتها، بل لا بدَّ أن تعلن للملأ ويجهر بها علنًا، لذا أمر الله نبيه في السنة الرابعة من البعثة أن يجهر بالدعوة حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وأمره أن يبدأ بعشيرته الأقربين حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. فكان

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٤. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٩. محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ: ٦٧.

يجمع قومه ليدعوهم إلى دين الله وينذرهم من عاقبة إعراضهم عن دعوته. فمن ذلك أنَّه صَعِدَ يومًا على جبل الصفا ونادى: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب؛ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال عمه أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

لكن قومه بادئ الأمر لم يعطوا دعوته أهمية، فلم يستجيبوا، ولم ينكروا حتى بدأ يظهر عيب آلهتهم، ويسفه عقولهم بعبادتهم أصنامًا لا تضر ولا تنفع، حينها تبدل موقفهم إلى مواجهته بالعنف والسعي للقضاء على دعوته وإيقاف حركة الدخول فيها، سالكين في ذلك أساليب شتى نذكر أهمها:

الاستهزاء والسخرية: به وبأتباعه وبما أنزل عليه، فكانوا يقولون: أما وجد الله إلا أن يرسله مع أن في قريش أشرف منه وأعظم. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وكانوا لا يسمونه باسمه، بل بألقاب فيها السخرية مثل(مذمم) و(الصابي) ويسخرون من أتباعه فيقولون: أما تبعه إلا هؤلاء من بيننا، ويقولون له- سخرية-: إذا أردت أن نتبعك فاطردهم عنك. ورموه بالسحر، والكهانة، والجنون، والكذب، وقد رد الله عليهم في كل ما اتهموه به من تلك الأوصاف التي هي أول من يعلم براءته منها.

والسخرية والاستهزاء والكذب سلاح ما فتئ أعداء الإسلام يستخدمونه لتشويه صورة الإسلام والمسلمين ولاسيما في هذا العصر

مستغلين جميع وسائل الإعلام وذلك حين عجزوا أمام حجج الإسلام وبراهينه الساطعة الدامغة.

إيذاء الرسول في بدنه: لما رأت قريش أن محمدًا ماضٍ في دعوته والداخلين في دينه في تزايد لم تكتف في إيذائها له بالسخرية والاستهزاء، بل حاولت أن تعتدي عليه بالإيذاء، خاصة بعد وفاة عمه الذي كان يوفر له قدرًا كبيرًا من الحماية، فمن ذلك أنه كان قائمًا يصلي عند الكعبة وبعض رجالات قريش ينظرون إليه فقال أحدهم: أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيضعه عليه إذا سجد، فقام عقبة بن أبي معيط فجاء بذلك ووضعه على الرسول ﷺ حين سجد، فضحك القوم حتى وقع بعضهم على بعض. فلما علمت ابنته فاطمة رضي الله عنها جاءت فألقت عن أبيها وهي تبكي وتسبهم، والرسول مستمر في صلاته فلما فرغ منها أقبل عليهم وقال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. وأخذ يذكر أسماء أشدهم إيذاءً له ويدعو عليهم. فما بقي ممن ذكر إلا وهلك في معركة بدر[1].

وأقسم أبو جهل مرة أن يطأ على رقبة محمَّد ﷺ إن رآه يصلي، فلما جاء النبي يصلي تقدم إليه أبو جهل ليفعل به ما قال، ولكن الله منعه من ذلك، فقد جعل بينه وبين محمَّد خندقًا من نار وأمورًا رآها ولم يرها غيره، فعاد خائفًا.

كما تعرض له بالأذى عقبة بن أبي معيط مرة أخرى عند الكعبة حيث أخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه على عنقه فخنقه خنقًا

(١) عن هذه الحادثة أنظر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا، وصحيح مسلك: ٣/ ١٤١٨-١٤٢٠أ

شديدًا حتى تدخل أبو بكر رضي الله عنه فدفع عقبة وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله[1]. بل لم يسلم ﷺ من أذى النساء كما كانت زوجة أبي لهب تضع الأذى في طريقة فنزل فيها قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٤، ٥] وكل ذلك والرسول ﷺ ماضٍ في دعوته يبلغ أمر ربه.

اضطهاد أتباعه وفتنتهم:

لقي أتباع محمَّد ﷺ من الأذى أشده ومن التعذيب أقساه من قريش في محاولة لهم لإيقاف حركة هذا الدين الجديد، وصد الناس عن الدخول فيه، ويقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه موضحًا ظروف تلك الفترة العصيبة التي عاشها أوائل المسلمين: (كَانَ الإِسْلاَمُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ: إِمَّا يَقْتُلُونَهُ وإِمَّا يُوثِقُونَهُ)[2] وكان نصيب الضعفاء الذين لا يجدون عشيرة تحميهم من هذا التعذيب أكبر قدرًا من غيرهم.

وكان من وسائلهم في ذلك الضرب، وحبسهم في حر الشمس وقتًا طويلاً مع وضع الصخور الثقيلة عليهم أو إلباسهم الحديدة الحارة، وأمر الصبيان بسحبهم في الطرقات ليسخر منهم الناس. فمنهم من فقد بصره من شدة الأذى كزنيرة رضي الله عنها، ومنهم من مات كسمية أم عمار رضي الله عنها، ومنهم من يغمي عليه من شدة الأذى، واضطر بعضهم أن يستجيب لقريش من شدة الأذى وينطق مكرهًا بالكفر بمحمد ليتخلص من العذاب، فأنزل الله على نبيه قرآنًا يبيح لهم ذلك ما دامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا

(١) ابن أبي شيبة: المصنف: ١٤/ ٢٩٧.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ٣٠.

مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] ويلجأ بعض أقارب المسلمين من الكفار إلى الضغوط النفسية كما فعلت أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين أقسمت ألا تكلمه وألا تأكل ولا تشرب حتى يكفر بدينه، وقالت: زعمتَ أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. فكان يغشى عليها من الجهد والتعب، فإذا أجبرت على شربة ماء دعت على سعد فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]. ومن تلك الضغوط طلب قريش من أبي طالب عم الرسول ﷺ أن يكف محمَّد عن سب آلهتهم وانتقاد عاداتهم، فدعاه أبو طالب أمام وفد قريش وطلب منه أن ينتهي عن أذاهم، فنظر الرسول ﷺ إلى الشمس فقال لهم: أترون هذه الشمس؟ قالوا نعم. قال فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها شعلة[1] أي: إن أخذ شعلة من الشمس- وهو مستحيل عليكم – أهون من أن أدع ما أنا عليه.

المساومة والمفاوضات:

لما رأت قريش أن العنف وحده لم يجدِ مع محمَّد وأصحابه لجأت كذلك إلى أسلوب المساومة والمفاوضة، فطلب بعضهم منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبد وا إلهه سنة فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[2].

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار: ١٥٥. بسند حسن، وصحح الألباني هذه الرواية «الأحاديث الصحيحة ١/ ١٤٧».

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/ ٥٢٧.

وورد أن قريشًا بعثت عتبة بن ربيعة ليعرض على محمَّد بعض الإغراءات فقدم عليه وعرض إن كان يريد المال جمعوا له حتى يكون أغناهم، وإن كان يريد الملك والرياسة ملكوه عليهم، وغير ذلك من العروض، ولكن الرسول ﷺ قرأ على عتبة بعد أن انتهى من عروضه صدر سورة فصلت حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فخاف عتبة وطلب منه أن يسكت ورجع إلى قريش[1].

محاولة إحراج الرسول وطلب المعجزات:

وفي محاولة من قريش لإحراج الرسول ﷺ أخذوا يلحون عليه بطلب المعجزات كتحويل بعض جبال مكة إلى ذهب، وتفجير الأرض ينابيع، كما استعانوا باليهود في إثارة الأسئلة المحرجة له، ولكن كان الله يتولى الرد عليهم في عدد من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

مقاطعة قريش بني هاشم:

لما رأت قريش أن كل وسائلهم السابقة لم تجد مع محمَّد ﷺ في إيقاف دعوته ولم تعمل شيئًا في منع أحد من الدخول فيها، بل

(١) المصنف لابن أبي شيبة: ١٤/ ٢٩٥. أبو يعلي في مسنده: ٣/ ٣٤٩. والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣ وصححه ووافقه الذهبي، وأورد ابن كثير الروايات في تلك الحادثة في تفسيره: ٧/ ١٥١.

إن أمره في ازدياد خاصة بعد دخول عمه حمزة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في الإسلام مما زاد المسلمين عزة وقوة؛ لما رأت ذلك لجأت إلى موقف أكثر جدية ففكرت في قتل محمَّد ولكنهم علموا أن عمه أبا طالب وقومه من بني هاشم والمطلب لن يتركوهم وذاك، فقامت جميع بطون قريش ومعهم قبيلة كنانة على توقيع اتفاقية مقاطعة بني هاشم والمطلب بألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يكلموهم حتى يسلموهم محمدًا للقتل. فاضطر أبو طالب ومعه بنو هاشم والمطلب: مسلمهم وكافرهم إلى دخول أحد الشعاب، ومكثوا على هذه الحالة محصورين سنتين أو ثلاث سنوات نالهم فيها الجهد والجوع والخوف حتى لم يستطيعوا الخروج منه إلا للحاجة للطواف بالبيت أو قدوم السوق حينما يعلمون أن قافلة تجارية قادمة للتمون منها.

أخذت الشفقة خمسة من كبار قريش وحكّموا عقولهم فأعلنوا معارضتهم لهذه المعاهدة الجائرة ومزقوا الصحيفة التي كتبت فيها، فخرج الرسول ﷺ وقومه من الشعب وما زاده هذا الحصار إلا إصرارًا على المضي في دعوته[1].

ابتلاؤه ﷺ بوفاة عمه وزوجته:

وما كادت مقاطعة قريش لبني هاشم تنتهي حتى أصيب ﷺ بابتلاء عظيم تمثل في فقده عمه أبا طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها وذلك في السنة العاشرة من مبعثه، وسمى هذا العام عام الحزن لما اجتمع عليه فيه من الأحزان والمصائب، فقد كان عمه يؤمن له الحماية من أن تنال

(١) أخرج البخاري أصل حادثة الحصار في كتاب الحج: باب نزول النبي مكة، ومسلم في صحيحه: كتاب الحج: باب النزول بالمحصب يوم النفر. وفصلت كتب السير والمغازي في تفصيل الحادث سيرة ابن هشام: ١/ ٣٧١.

منه قريش ما تريد وكان قد عاهد قومه على نصرة ابن أخيه فوافقوه مع كفرهم تقديرًا لأبي طالب، فلما توفي أبو طالب لم يعد قومه على استعداد لتقديم ذلك القدر من الحماية لمحمد ﷺ لما يجره عليهم ذلك من صدام مع قريش فتخلوا عن نصرته. لذا اشتد أذى قريش عليه وخلصوا إلى ما لم يكونوا يخلصون إليه في حياة أبي طالب. أما زوجته خديجة رضي الله عنها فكانت سندًا قويًا له في قيامه بدعوته فكلما أصابه هم أو غم في طريق دعوته ورجع إليها خففت من آلامه وهونت عليه مصابه وأعطته دفعة قوية للمضي في سبيله. لذا دخل عليه ﷺ همٌّ وغمٌّ بفقد عمه وزوجته.

حاول ﷺ إيجاد سند يخلف عمه في حمايته لمواصلة دعوته فرحل إلى الطائف أملاً في نصرة أهلها لكنهم قابلوه بالسخرية والأذى فعاد إلى بلده وأخذ يعرض نفسه في موسم الحج على القبائل فلم يجد من يقوم بنصرته، حتى هيأ الله له نفرًا من أهل المدينة من الأوس والخزرج آمنوا به وبايعوه على ذلك.

موقف الرسول ﷺ من هذه الابتلاءات:

وقف الرسول ﷺ في تلك المرحلة من أنواع الابتلاءات التي مرت به وأصحابه موقفًا عظيمًا يتناسب مع عظمة رسالته، مستمدًا تلك المواقف من توجيهات ربه ونجملها في الآتي:

تربية أصحابه تربية إيمانية قوية تمدهم بالعزيمة التي تعينهم على تحمل تلك الابتلاءات، فكان يغرس فيهم الإيمان ويرسخه في نفوسهم حيث كان يلتقي بهم سرًا في دور بعضهم، يعلمهم القرآن وما ينزل عليه من تعاليم ربه، كما كان يقوي فيهم الصلة بربهم فيقوم

معهم نصف الليل أو قريبًا منه لأداء الصلاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:١: ٤]. فقاموا سنة على ذلك حتى تفطرت أقدامهم فخفف الله عنهم بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].ولا شك أن لقيام الليل أثره الكبير في إعداد ذلك الجيل الفريد لتحمل تلك المسؤولية السامية والمهمة العظيمة، وهذا ما ذكره الله تعالى في توجيهه لنبيه ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٥، ٦]. ومثل هذه التربية ضرورية لكل من يتصدى لمثل تلك المهمة العظيمة، مهمة الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، وهي ضرورية لكل مسلم ينشد لنفسه اجتياز الدنيا وشهواتها ومفاتنها وابتلاءاتها بنجاح.

كان الله يأمر نبيه بأن يتحلى بالصبر على ما يلقاه من سخرية وأذى في طريق الدعوة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾. وكان الرسول ﷺ بدوره يحث أصحابه على الصبر على ما يلقونه من تعذيب وابتلاء، ويعدهم الجنة لقاء صبرهم وثباتهم، فكان يمر على آل ياسر وهم يعذبون فيقول: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1] وجاء خباب بن الأرت وبعض الصحابة رضي الله عنهم وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم أن يخفف عنهم ما يجدونه من العذاب فتغير وجهه وقال: (لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ٧٠. وقال: قال الهيثمي في المجمع: ٩/ ٢٩٣ رواه الطبراني ورجاله ثقات.

فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ...)[1].

ولما رأى ﷺ الأذى يزداد على أصحابه حتى مات بعضهم ندب من يستطيع أن يهاجر إلى ارض الحبشة قائلاً: (إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه)، فهاجر مجموعة من أصحابه إلى الحبشة الهجرة الأولى وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، ومكثوا أشهرًا ثم عادوا إلى مكة وفي حسبانهم أن حدة موقف قريش قد هدأت، ولكن لما وجدوا أن موقف قريش لم يتغير، بل زاد سوءًا، عندها أذن لهم ﷺ بالهجرة مرة أخرى فهاجروا في مجموعة أكثر من المرة الأولى حيث بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، ووجدوا هناك الأمن والاطمئنان ولا سيما بعد فشل محاولات قريش مع ملك الحبشة لردهم إلى مكة[2].

بمثل هذه التربية الإيمانية والتوجيهات الربانية تخطى ﷺ وأصحابه تلك المرحلة الحجرة من عمر الدعوة في مكة بثبات وعزيمة صادقة حتى أذن الله بالفرج متمثلاً في الهجرة إلى المدينة.

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين.
(٢) عن تفاصيل الهجرة إلى الحبشة انظر: سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٣، السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٣.

الهجرة إلى المدينة

مقدمات الهجرة:

بدء إسلام الأنصار وبيعتا العقبة:

إن المطلع على ملابسات وظروف الهجرة النبويَّة ليدرك بجلاء أن أحداث الدعوة الإسلامية كانت تجري بتدبير محكم من العليم الحكيم يحوطها برعايته، ويصونها بعنايته، ويهيئ لها الأسباب رغم الصعاب. فمن ذلك أن هيئ المناخ المناسب في(يثرب)[1] لتكون دار هجرة لنبيه، ومحضنًا لدعوته بعدما ضاقت بها مكة، كما هيئ الأوس والخزرج (سكان يثرب) لنصرتها وتحمل أعباء نشرها بعدما تخلى عن تلك المهمة السواد الغالب من قريش وزعمائها في مكة.

فقد سكنت مجموعة من طوائف اليهود «يثرب» بجانب الأوس والخزرج بعد فرارهم من اضطهاد النصارى لهم. وحين وجد هؤلاء اليهود أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد،

(١) اسم المدينة النبوية قبل الهجرة.

وخشوا على أن يفنوا إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر، فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء، وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضًا، في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوي اليهود وتكاثروا، ونمت ثرواتهم[1].

فبسبب تلك الحروب التي قضت على معظم زعماء الأوس والخزرج، وكدَّرت عليهم حياتهم، وزعزعت أمنهم، أصبحت كل قبيلة تبحث عن مخرج لتبقي على البقية الباقية من رجالها، وتنشد ما يحقق لها السلام والوئام.(كما أن اليهود كانوا يذكرون لسكان يثرب بأن هناك نبيًّا قرب زمن خروجه ويتوعدونهم به حين يحل بينهم أدنى خلاف بأنهم سيتبعونه ويحاربون معه العرب ويقتلونهم قتل عاد وإرم. لهذا وذاك أسرع رجال الخزرج والأوس في الدخول في الإسلام راجين بذلك إنهاء الحروب بينهما، وليعبدوا عنهم شبح الحرب التي يخوفهم بها اليهود. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك: كانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وقُتِّلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وجُرِّحُوا، قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسولِهِ ﷺ في دُخُولِهِمْ في الإسْلَامِ)[2].

سارت أحداث الهجرة بشكل تبدو فيه بوضوح عناية الله ورعايته لنبيه ﷺ ودعوته، فبينما كان ﷺ في موسم الحج يعرض نفسه على القبائل يطلب نصرتهم، لقي ستة نفر من الخزرج فاستوقفهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم.

(١) فقه السيرة للغزالي: ١٠٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب مناقب الأنصار حديث ٣٧٧٧. فتح الباري: ٧/ ١١٠.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه وصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك[1]. ثم رجعوا إلى بلادهم يحملون هذا الدين الجديد، وفي الحين الذي كان رسول الله ﷺ ينتظر فيه ثمار ذلك الغراس الجديد في يثرب واصل دعوته في مكة.

بيعة العقبة الأولى:

إنَّ هذا الإيمان الجديد الذي ملأ قلوب أولئك النفر الستة من الخزرج بالسعادة والرضا وغمرهم بالفرحة لما يأملونه من تحقيق سلام دائم بينهم وبين إخوانهم من الأوس جعلهم يجدُّون في إعلانه والدعوة إليه في يثرب حتى أصبحت مجالس الأوس والخزرج عامرة بذكر الإسلام والحديث عنه لا تخلو منه دار، وقد أثمرت دعوة هؤلاء النفر بدخول عدد لا بأس به في الإسلام.

وفي الموسم التالي للحج قدم اثنا عشر رجلاً: «عشرة من الخزرج واثنان من الأوس» والتقوا برسول الله ﷺ سرًّا عند العقبة من

(١) عن إسلام هؤلاء النفر انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٨. دلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ٤٣٣ الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢١٨.

منى، فبايعوه على الالتزام بما أنزل من شرائع الإسلام وأخلاقه، وطاعة الله ورسوله، ولكن لم يكن في هذه البيعة التزام بإيواء محمَّد ونصرة دعوته، يقول عبادة بن الصامت ﵁: «بايعنا رسول الله على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.»[(١)].

ولما أتم النفر حجهم بعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويؤمهم في الصلاة، وقد نجح مصعب ابن عمير ﵁ في القيام بالمسؤولية العظيمة التي اختارها له ﷺ واختاره لها. ولم تكن وسيلته في تحقيق ذلك عصا سحرية يذهل الناس مرآها، ولم يكن صاحب كلام منمق أو لسان حاد يغشي به الجموع يعدهم ويمنِّيهم زخرف الحياة الدنيا كحال من يطمع في كسب أصوات الناس بزخرف الكلام وسراب الوعود في دنيا الانتخابات، كما لم يكن يحمل صررًا من المال يدفعها للفقراء بيد ويجرهم لما يريد بيده الأخرى مستغلاً فاقتهم كما يفعل دعاة التنصير. لم يكن يفعل شيئًا من ذلك، لأنها وسائل لا تصل إلى القلوب ولا تنبئ عن الدخول فيما يريده الداعي عن قناعة وتسليم. إنما كان مصعب ﵁ يملك لتحقيق مهمته السامية إيمانًا يعمر قلبه يلحظه من يراه إشراقًا في وجهه وصدقًا في حديثه، ولديه إصرار وعزيمة صادقة على نشر هذا الدين والتضحية من أجله، اكتسبها من تلك الظروف التي عاشها والمؤمنون في مكة تحت طائلة القهر والاضطهاد، وفوق ذلك فمعه قرآن راسخ في قلبه، فإذا رتله بصوته الندي لا تملك القلوب إلا أن تتجاوب معه.

(١) عن هذه البيعة انظر: صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار وبيعة العقبة. وصحيح مسلم: كتاب الحدود: باب الحدود كفارات لأهلها. سيرة ابن هشام: ٣٩-٤١.

بيعة العقبة الثانية:

أمضى مصعب بن عمير ﵁ قريبًا من سنة في يثرب وهو في دأب لا يفتر وهمَّةٍ لا تقتصر في نشر الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار «الأوس والخزرج» إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1]. وفي مقدمتهم زعماء وكبار القبيلتين، وإذا كان رجاء تحقيق مصلحة السلم والوئام بين الأوس والخزرج، ونبذ حياة الفرقة والقتال من أهم دوافع إسلام رجال القبيلتين، إلا أنه بمجرد دخولهم في هذا الدين وتمكّن الإيمان من قلوبهم فإنهم لم يقفوا عند هذا الهدف القريب الخاص، بل تخطوه إلى ما هو أكبر وأسمى فربطوا مصيرهم بمصير هذا الدين، وأصبح تأمين سبيل الدعوة ونصرة رسول الله ﷺ أهم من النظر إلى مصالحهم وأكبر ما يشغل بالهم، لذا فإنهم سرعان ما سألوا أنفسهم – وهم يعلمون حال رسول الله ﷺ وأصحابه المضطهدين- كما قال جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁: «فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟..» وعقدوا العزم على دعوة الرسول ﷺ لإيوائه ونصرته، وقبل موسم الحج التالي قدم مصعب بن عمير مكة مبشرًا رسول الله ﷺ بما تحقق من نتائج عظيمة ويخبره بقدوم وفد كبير ممن أسلم لمبايعته.

قدم الوفد المسلم من يثرب في موسم الحج مع عامة المشركين من حجاج أهل يثرب وهم يخفون غايتهم التي قدموا من أجلها، وحين قدموا اتصلوا بالرسول ﷺ سرًا فرتب معهم موعد اللقاء بهم جميعًا، وعلى حين غفلة من أهل الموسم تسللوا فرادى تحت جنح

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٦.

الليل حتى تكامل وجودهم عند رسول الله ﷺ في العقبة من منى. وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ودار حوار بين الوفد ورسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذي حضر ليتأكد- على الرغم من بقائه على دين قومه- لابن أخيه ويوثق له العهود والمواثيق من الأنصار. ثم أخذ الرسول ﷺ البيعة منهم: (تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَ الطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لَوْمَةَ لائم، وعلى أن تَنصُروني فتَمنَعوني إذا قَدِمتُ عليكم ممَّا تمنَعون منه أنفسَكُم وأَزواجَكُم وأبناءَكُم ولكم الجنَّةُ) وأحب الأنصار- بعد أن ربطوا بهذه البيعة مصيرهم بمصير الإسلام ورسوله- أن يؤكدوا بألا يكون هذا الارتباط من طرف واحد، فقال أحدهم: «يا رسول الله، إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها – يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[(١)].

عاد الوفد بعد نجاح مهمتهم بلقائهم الرسول ﷺ ومبايعته، منتظرين هجرته وأصحابه إليهم بشوق.

هجرة المسلمين:

بعد فشو الإسلام في يثرب ومبايعة الأنصار لرسول الله في العقبة الثانية على نصرته، أصبحت يثرب مهيأة لهجرة المؤمنين لها، خصوصًا

(١) عن خبر بيعة العقبة الثانية انظر: سنن البيهقي: ٩/ ٩. مستدرك الحاكم: ٢/ ٦٢٤. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ١٩٣. فتح الباري لابن حجر، ٢٢٢.

أن زعماء قريش لما تأكد لهم مبايعة الأنصار للرسول زادوا من أذاهم للمسلمين مما جعل الرسول ﷺ يأمر أصحابه بالهجرة قائلاً: (إن الله ﷻ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها)[1]، وجاء تحديد يثرب لتكون دار هجرة لرسول الله وأصحابه بوحي من الله لنبيه، فقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه رأى في المنام أن مهاجره إلى يثرب[2].

بدأ أصحاب رسول الله هجرتهم إلى يثرب (المدينة) متسللين خفية حتى لا يعلم بهم كفار قريش، ونجح الكثير منهم في الهرب من مكة والإفلات من مراقبة قريش والوصول إلى المدينة.

«وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكن شيئًا من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة»[3].

مضت هجرة أصحاب رسول الله ﷺ رغم كل المعوقات حتى لم يبق في مكة إلا من حبسه المشركون أو من لا يستطيع الخروج، كما بقي رسول الله ينتظر الإذن من الله وأمر أبا بكر بالبقاء ليكون رفيقه في الهجرة وعلى بن أبي طالب ليرد ما عند رسول الله من الأمانات إلى أصحابها.

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٢١٥.
(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب/ ٤٥ هجرة الرسول ﷺ وأصحابه، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٧٩. فتح الباري ٧/ ٢٣١.
(٣) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢٠٢.

خلت طرقات مكة وبطاحها من أولئك المؤمنين وخلت منهم ديارهم فأوحشت بعد إيناس وأقفرت بعد أن كانت آهلة، وغدت خاوية تخفق فيها الرياح وتخفق بخفقها قلوب من يرونها وقد أخرج منها أهلها بغير حق إلا أن يقول ربنا الله فتحرك عواطفهم مهما كانت جامدة، وتلين قلوبهم مهما كانت قاسية. مرَّ عتبة بن ربيعة والعباس (عم الرسول ﷺ) وأبو جهل على واحدة من تلك الدور[١] فنظر إليها عتبة تخفق الريح بأبوابها ليس بها ساكن، فتنفس نفسًا عميقًا وقال:

وكلُّ دارٍ وإن طالتْ سَلاَمتُها ... يومًا سُتدْرِكُها النَّكْبَاءُ والُحوبُ[٢]

ثم قال متألمًا: أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها. لكنّ هناك قلوبًا شاذة نُزعت منها معاني الخير فلا تعرف إلا الشر، وقلب أبي جهل واحد منها، لذا قال لعتبة منكرًا عليه حزنه وتألمه: وما تبكي عليه من «قل بن قل»[٣] ثم التفت على العباس وقال: هذا من عمل ابن أخيك، فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا وقطع بيننا[٤]. وهذه عادة المجرمين والطغاة في كل حين «يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم»[٥].

(١) دار بني جحش.

(٢) النكباء: الريح إذا انحرفت ووقعت بين ريحين. والحوب بالضم، الهلاك والبلاء. (القاموس المحيط).

(٣) تقال لمن لا يعرف ولا يعرف أبوه وهذه سخرية من أبي جهل بصاحب الدار رضي الله عنه.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٩.

(٥) الغزالي: فقه السيرة: ١٦٦.

الهجرة النبويَّة :

حين رأي كفار قريش أن المسلمين هاجروا وأفلتوا من أيديهم زادهم ذلك غضبًا، وأحسوا بأن الخطر الذي يتوقعونه من محمَّد ودعوته بات قريبًا إن لم يتداركوا الأمر، لأنَّه إذا ما تكامل انتقال المسلمين ورسولهم معهم إلى المدينة، فهذا يعني لديهم أنه سيقود حربًا ضدهم. لذا لم يعد في أيديهم - وقد هاجر معظم المسلمين - من الحلول سوى ما يتعلق بمحمَّد، ولأنَّ الأمر لا يحتمل التأجيل، فقد عقدوا اجتماعًا طارئًا في(دار الندوة) لبحث ما يجب أن يفعلوه مع محمد. وقد أشار الله في كتابه الكريم إلى هذا الاجتماع وما تم طرحه فيه من آراء للتخلص من محمَّد فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

اتفق القوم على رأي أبي جهل بقتل محمَّد بطريقة جماعية بحيث تختار كل قبيلة شابًا من شبابها ليقوم مع شباب القبائل الأخرى بضرب الرسول ضربة رجل واحد، فيصعب على قوم محمَّد مواجهة جميع القبائل فيرضون مرغمين بالدية. وتم تحديد موعد للتنفيذ تحت إشراف أبي جهل وتوجيهه.

وهنا حين استكمل الرسول ﷺ جميع الأسباب، واتخذ كل الوسائل، وسلك كل الطرق لدعوة أهل مكة ولكنه وصل معهم إلى طريق مسدود، هنا جاء أمر الله لنبيه بالهجرة.

على الفور شرع ﷺ في أمر الهجرة، ومع يقينه بأنَّ الله ناصره ومتم أمر هجرته، إلا أنه اتخذ كل الأسباب التي عليه كبشر أن يراعيها

ويتبعها، ويترك كل ما هو فوق طاقته لله تعالى يتولاه. فأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في فراشه ليلة موعد تنفيذ القتل، كما أمر أبا بكر أن يعد له الراحلة، واتفق مع أحد المشهورين بمعرفة الطرق ليسلك به طريقًا غير معروف بين مكة والمدينة، واختار أن يختبئ بغار ثور ثلاثة أيَّام حتى يهدأ الطلب والبحث عنه، ويقع هذا الغار في الجهة المعاكسة لطريق المدينة للتعمية على طالبيه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأوي إليهما ليلاً في الغار ليخبرهما بتحركات قريش وكل ما سمعه من أخبار ثم يعود قبل طلوع الفجر، كما كان مولى أبي بكر عامر بن فهيرة يمر عليهما بغنم معه كأنما يرعى بها ويتأخر إلى أول الليل ويمكث حتى ينتشر الظلام فيسقيهما من اللبن، بهذا فعل ﷺ كل الأسباب التي بمقدوره ليكون في ذلك درس لأمته.

أما ما لا قدرة له عليه كبشر فقد تركه لله فتولى الله ذلك، فأخرجه من بيته والقوم محيطون به دون أن يروه بعد أن جعل على أبصارهم غشاوة فلم يروه، وحين وصل بعضهم إلى الغار للبحث عنه حتى لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرأى رسول الله ﷺ وصاحبه أبا بكر مما جعل أبا بكر يخاف على نبيه فقال له ﷺ «ما ظَنُّك يا أبا بكرٍ باثْنينِ اللهُ ثالثُهُما»[1] فأعمى الله أبصارهم فرجعوا موقنين أن ليس في الغار من أحد. وصد عنه سراقة بن مالك حين لحق بهما في الطريق أملاً في كسب تلك الجائزة الكبيرة التي وضعتها قريش لمن يأتي بمحمد، فكان كلما اقترب منهما غاصت قوائم فرسه في الأرض، فعلم أن الله مانعهما منه ومظهر أمر محمَّد ﷺ، فطلب من الرسول ﷺ أن يكتب له كتابًا يكون له آية بينه وبينه فكتب له بذلك، فعاد مخذِّلاً عنهما بعد أن خرج في طلبهما.

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي: باب مناقب المهجرين مناقب أبي بكر.

انطلق ﷺ وأبو بكر بعد ما مكثا ثلاثة أيام في الغار مع دليلهما الذي سلك بهمها الطريق الساحلي المهجور، وكان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج الرسول ﷺ من مكة، فكانوا يجتمعون خارج المدينة ينتظرون مقدمه في الغداة حتى إذا اشتد بهم حر الشمس عادوا إلى منازلهم، فلما كان اليوم الذي قدم فيه وانتظروا حتى زالت الشمس ولم يكن لهم ظل يستظلون به عادوا، فقدم وفد الرسول المبارك حين عودهم فأبصرهم أحد اليهود فصاح مخبرًا المسلمين بقدوم من ينتظرونه، فخرجوا فاستقبلوه والفرحة تعلوهم والسعادة تغمرهم في يوم مشهود شهده الكبير والصغير، والنساء والصبيان يرددون أصوات الفرحة منشدين: قدم رسول الله، جاء رسول الله.

كان نزوله ﷺ أول ما قدم بقباء فمكث به أيامًا أسس فيها مسجد قباء الذي قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ثم انطلق من قباء مارًا بأحياء العرب في المدينة والنساء محتشدون من بين يديه ومن خلفه وصعد الرجال والنساء فوق المنازل، والصبيان ينسابون في الطرقات يرددون: يا محمد، يا رسول الله[١] وكلما مر بحي من أهل المدينة أمسكوا بزمام ناقته وسألوه أن ينزل عندهم فكان يقول: «دعوها فإنها مأمورة»[٢] حتى بركت في مربد ليتيمين من بني مالك بن النجار عند بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وهو المكان الذي بني فيه مسجده ﷺ. ونزل في دار أبي أيوب رضي الله عنه.

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٣١١. وانظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢١٨، ٢١٩.

(٢) انظر تخريج هذا الحديث: العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢١٩. وقال بعد ذكر الروايات الواردة في الحديث: فيرقى إلى الحسن لغيره.

وهكذا استقر الرسول ﷺ في المدينة بين أصحابه من أهل مكة والمدينة، ولقد صدق المسلمون من الخزرج والأوس في بيعتهم فآووا رسول الله وأصحابه حيث نزلوا عليهم في دورهم واتسعت لهم صدورهم، واختفت هنا الأسماء والألقاب المبنية على العنصر القبلي وأصبح لفظ المهاجرين علمًا يشمل كل من هاجر من مكة إلى المدينة كما دخل المسلمون من أهل المدينة تحت مسمى الأنصار، كما اختفى اسم(يثرب) ليحل محله (مدينة الرسول).

ولما ترتب على الهجرة من نتائج عظيمة كان لها أثرها في تاريخ الإسلام لذا استحقت الهجرة أن تكون أعظم حدث في تاريخ الإسلام يؤرخ به المسلمون أحداثهم إلى قيام الساعة.

وحينما كانت دولة الإسلام الناشئة بحاجة إلى القوة لتقف على قدميها وتحمي نفسها في مجتمع يموج بالأعداء المتربصين بها، واجتماع المسلمين وتكثير سوادهم من أهم عوامل تلك القوة، لذا كانت الهجرة إلى المدينة فرضًا على كل مسلم خارجها، وتوعد الله الذين لم يمتثلوا أمره بالهجرة بالعذاب الشديد ولم يستثن سوى العاجزين والمغلوب على أمرهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]. ووعد من يهاجر بالخير الوفير والأجر الكبير في قوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]»

وبعدما أصبحت الدولة الإسلامية قادرة على الدفاع عن نفسها بعد غزوة الأحزاب، وبعدما انتشر الإسلام بين كثير من القبائل في أعقاب صلح الحديبية وبعد كسر شوكة المشركين بفتح مكة أسقطت فرضية الهجرة ووجوبها حيث قال ﷺ: (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)[1].

المجتمع في المدينة:

انتقل المسلمون بالهجرة إلى مرحلة جديدة أعز الله فيها الإسلام وقامت فيها دولة، وأصبح للمسلمين مجتمع خاص تكاملت فيه – على مراحل – مؤسساته المختلفة، وسنتحدث عن أهم الأسس التي شرع رسول الله ﷺ في بنائها بعد الهجرة لتأسيس الدولة الإسلامية وإرسال قواعد المجتمع الإسلامي.

بناء المسجد:

كان أول عمال قام به ﷺ بناء المسجد لأهميته في حياة المسلمين أفرادًا وجماعات، فأصدر أمره ببنائه في المكان الذي بركت فيه ناقته، بعد أن اشتراه من أصحابه، وبهمة لا تعرف الكلل وتفان في الفوز بعظيم الأجر بدأ العمل في مشروع البناء، وشارك الرسول ﷺ أصحابه في العمل مما زادهم همة ونشاطاً، وكان المسجد متواضعًا في مبناه، لبناته من الطين، وأعمدته من جذوع النخيل، وسقفه من جريد النخل[2]، لكنه عظيم في معناه، كبير في مهمته، فهو كما قال عماد الدين خليل: «رمز لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركز روحيًا لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد. باب: فضل الجهاد والسير.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب بنيان المسجد. فتح الباري: ١/ ٥٤٠.

عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ، وتدار في باحاتها الندوات، وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط»[1].

وبني بجوار المسجد دور متواضعة لتكون سكنًا للرسول ﷺ وأزواجه الطاهرات رضي الله عنهن.

المؤاخاة:

كان المهاجرون قد تركوا أوطانهم ومساكنهم وأموالهم وأهليهم في مكة وجاؤوا بأنفسهم لا يملكون غير دينهم الذي فروا به، فاجتمع عليهم عدة مشاكل، غربة الوطن والأهل، وقلة ذات اليد، وعدم السكن والمأوى، ومشكلة النازحين من بلدانهم إلى بلاد أخرى لا تزال مشكلة تعاني منها المجتمعات الإنسانية في كل حين، وليس من السهل حلها في وقت قليل وبجهد يسير، إلا أن سيد البشرية ﷺ وضع حلاً فريدًا وناجعًا لهذه المشكلة في أو جز وقت وبأيسر جهد. وهو نظام المؤاخاة، فربط كل مهاجري بأخ له من الأنصار يواسيه في غربته ويخفف عنه من كربته، ويأنس كل منهما بالآخر. وقد وصلت تلك الأخوة بين المهاجرين والأنصار إلى درجة أعمق من رابطة النسب في صورة لم تشهدها الروابط الإنسانية في عصر من العصور، حتى كان من حقوق تلك الأخوة أن يرث بعضهم بعضًا دون ذوي الأرحام. ولا تحسبن أن هذه المؤاخاة كانت ثقيلة على نفوس الأنصار حيث عليهم العبء الأكبر من الإنفاق.

(١) دراسة في السيرة: ١٤٩.

والمواساة، بل على العكس من ذلك كانوا يودون أن يقدموا أكثر مما تتطلبه هذه الأخوة، فقد عرضوا على الرسول ﷺ أن يقسم مزارع نخيلهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فلما رفض ذلك، عرضوا أن يعمل المهاجرون في مزارعهم ويشاركوهم في الثمر، فوافق على ذلك المهاجرون[1].

وقد امتدح الله الأنصار وبين ما وصلوا إليه من سخاء وإيثار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. بل إن المهاجرين أشفقوا وخافوا أن يذهب الأنصار بالأجر من الله عنهم فقالوا للرسول ﷺ: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن بدلاً من كثير، ولا أحسن مواساة في قليل قد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال ﷺ: (كلا مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ)[2] وتوضح قصة سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجري رضي الله عنهما ما كان عليه الأنصار من صدق في الإيثار وما كان عليه المهاجرون من عرفان للجميل. فحين آخي الرسول ﷺ بينهما عرض سعد على عبد الرحمن أن يعطيه نصف ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها، فقال له عبد الرحمن:

بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فأصبح يغدو ويروح على السوق حتى أصبح من أغنياء المهاجرين[3].

(١) ابن حجر: فتح الباري: ٥/ ٨، ٣٢٢. في شرحه الحديث الذي جاء في صحيح البخاري برقم ٢٣٢٥، ٢٧١.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦٥٣. مسند أحمد: ٣/ ٢٠٠، سنن البيهقي: ٦/ ١٨٣.

(٣) عن هذه القصة انظر صحيح الباري: كتاب البيوع: باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض: حديث ٢٠٤٨، ٢٠٤٩.

وقد أدت تلك المؤاخاة أثرها في ربط قلوب المؤمنين، ومواساة المهاجرين، وبناء مجتمع متراص الصفوف تملؤه المحبة ويسوده التآخي. فلما استقرت حياة المهاجرين وتوفرت لديهم سبل العيش وأغناهم الله أبطل الله حق التوارث في هذه الأخوة بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].[١]

المعاهدة مع اليهود:

عندما قدم الرسول ﷺ المدينة كان اليهود يمثلون جزءا من سكانها، فاستكمالا لتكامل بناء المجتمع في المدينة وإرساء قواعد الدولة الإسلامية على أرضية ثابتة صلبة حتى تسير بعد ذلك في مراحل بناء صرحها بوضوح وعلى خطى ثابتة، كان لابد من تحديد نوع العلاقة مع اليهود وهم جزء من المجتمع المدني، وهذا ما فعله ﷺ، فقد وقع وثيقة معاهدة مع طوائف اليهود، ومن أهم أسس هذه المعاهدة:

- كفالة حرية الدين، «فللمسلمين دينهم ولليهود دينهم».
- اشتراك الجميع في مسؤولية الدفاع عن المدينة حين تتعرض لخطر خارجي.
- أمن المدينة الداخلي مسؤولية الجميع «فعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».
- كل طرف يحترم حلفاء الطرف الآخر باستثناء قريش فلا تجار ولا من نصرها.
- أن تكون العلاقة بين الطرفين مبنية على النصح وعدم إضمار الخداع والغش.

(١) الأنفال: ٧٥.

• وحيث إن الرسول ﷺ هو القائد الأعلى في المجتمع واليهود جزء من هذا المجتمع، فعليهم الخضوع للقيادة العليا، فعند الخلاف يرجع إليه، وتكون الكلمة له في الحروب ونحوها[1]. وببناء المسجد، وعقد المؤاخاة، وكتابة وثيقة مع اليهود، يكون الرسول قد أرسى قواعد الدولة الإسلامية على أسس متينة، «فالمسجد فيه تربية المسلمين وتنظيم سلوكهم، والأخوة ترفد الحياة الاجتماعية بالحب والوفاء والإيثار، والوثيقة تضبط سلوك أولئك الذين لا ينتمون للدين الإسلامي»[2].

وبعد ذلك أخذت الحياة العامة في المجتمع الإسلامي تسير نحو التكامل شيئًا فشيئًا، فنزلت التشريعات التي تمثل تعاليم الإسلام وشريعة الله لتنظيم مختلف جوانب الحياة في المجتمع المسلم والدولة المسلمة، منها ما يتعلق بتنظيم حياة الفرد وعلاقته مع ربه ومع غيره من أفراد المجتمع، ومنها ما يتعلق بتنظيم الدولة فيما يتعلق بواجباتها وحقوقها، وكل ذلك احتاج إلى قيام بعض المؤسسات التي ترعى تطبيق تلك التشريعات من مؤسسات تعليمية لنشر تلك التعاليم وتبصير الناس بأمور دينهم، ومحاكم قضائية لنشر العدل وإقامة الحدود. وأجهزة لضبط الأمن الداخلي، وجيوش لحماية الدولة الإسلامية وفتح البلاد لإيصال دعوة الله إلى الناس كافة.

(١) للوقوف على تفاصيل وثيقة المعاهدة ومعرفة طرقها وتحليلها انظر: العمري: السيرة النبوية الصحيحة: مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٣٠٩-٣١٨. ٢٨٢-٢٩٢.

(٢) صالح الشامي: من معين السيرة: ١٦٥.

موقف الرسول ﷺ من أعداء الدعوة في العهد المدني

كان قيام الدولة الإسلامية في المدينة مؤذنًا بمرحلة جديدة من مراحل الجهاد والابتلاء للمسلمين ودولتهم الناشئة، فلم يعد العداء محصورًا في قريش، بل شاركها العداوة قوى أخرى، وكان هناك أهل الكتاب وفي مقدمتهم اليهود الذين أغاظهم أولاً- أن النبي الذي كانوا يعلمون ظهوره لم يكن منهم، وأغاظهم - ثانيًا - ما ترتب على الهجرة من توحد العرب في المدينة وهم يرون في ذلك إضعافًا لجانبهم وهدمًا لما عملوه في سنين لزرع الفرقة بينهم، كما كان هناك عدو ملتف حول المسلمين وداخل بين صفوفهم ينفذ سهامه المتنوعة كلما وجد فرصة، وهم المنافقون، وسنتناول مواقف الرسول ﷺ من هؤلاء الأعداء.

أولا: موقف الرسول من المشركين:

كان المشركون في مكة أول من ناصب الدعوة الإسلامية العداء ووقفوا في طريقها، وسلكوا كل الوسائل الممكنة للصد عنها، فلما هاجر ﷺ أغاظهم ذلك لإفلاته وأصحابه من أيديهم، وسيطرتهم على طريق تجارتهم، فلا بد أن تضرب ضربتها للقضاء على محمَّد وأصحابه قبل أن يستفحل أمرهم، كما كان من أولوياته بعد الهجرة أخذ الثأر من أولئك الذين عذبوا المؤمنين وسلبوهم أموالهم وشردوهم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، فحين وقع وثيقة المسالمة مع اليهود شدد على عدم إجراء أي تحالف مع قريش أو إجارتهم أو حماية تجارهم، مما يدل على عزمه على الدخول في حرب معهم. وهذا ما حدث، فقد اندلعت الحروب بين الطرفين في السنة الثانية من الهجرة، ويمكن تقسيم مجريات تلك الحروب إلى ثلاث مراحل: مرحلة غزو المشركين للمسلمين، مرحلة الصلح والهدنة، مرحلة غزو المسلمين للمشركين.

المرحلة الأولى: غزو المشركين للمسلمين:

استمرت هذه المرحلة خلال الخمس السنوات الأول بعد الهجرة، التي كانت فيها قريش تزحف وحلفاؤها بجيوشهم نحو المدينة أملاً في القضاء على الدولة الإسلامية الناشئة، وخاض الطرفان خلال تلك المرحلة عدة غزوات سنقصر الحديث بإيجاز على أكبرها شأنًا وهي: غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الأحزاب.

غزوة بدر:

هي أول معركة فاصلة بين المسلمين والمشركين، ومن خلال سبب هذه المعركة وسير أحداثها يدرك القارئ أن الله تعالى أراد من هذه المعركة إنماء حالة الضعف التي عاشها المسلمون في مكة ولا يزال المشركون يتعاملون معهم من خلالها، كما أراد أن تكون ضربة موجعة لكبرياء قريش وتسلطها، ويكون فيها درس للجميع بأن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان وأن الله لا بد ناصر نبيه ومظهر دينه.

سببها:

بعد أن رتب الرسول ﷺ الوضع الداخلي في المدينة التفت إلى قريش ليأخذ ثأره منهم ويسترد بعض ما سلبوه من المهاجرين من أموال ومساكن، وجاءت الفرصة حين علم بخروج قافلة تجارية لقريش متجهة إلى الشام، فأخذ ينتظر فرصة عودتها محملة بالبضائع، فلما حان وقت قدومها خرج بمن كان يسمح ظرفه للخروج معه لاعتراضها على وجه السرعة، ولم ينتظر أحد حيث قال: (فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا)[1].

خرج الرسول ﷺ وأصحابه على أمل اعتراض القافلة ولكن الله أراد غير ذلك، فقد أفلتت القافلة لأن قائدها -أبا سفيان- كان قد بعث من يستكشف الطريق فعلم بخروج المسلمين في طريقه فأخذ طريقًا آخر نحو الساحل وأرسل إلى قريش للخروج لإنقاذ تجارتهم، فخرج منهم على وجه السرعة عدد كبير يقدر بألف وثلاثمائة رجل، وبعد خروجهم جاءهم خبر نجاة قافلتهم فرأى بعضهم أن يعودوا إلى مكة إلا أن الغرور

(١) صحيح مسلم: باب ثبوت الجنة للشهيد.

أخذ أبا جهل وقال: «لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم فيها ثلاثًا، فننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا» فأطاعه معظمهم ورجع حوالي ثلاثمائة، وسار أبو جهل بالقوم حتى وصلوا ماء بدر.

أفلتت قافلة قريش، وتوجهت جموع قريش للنزول أمام بدر لاستعراض قوتها وإخافة المسلمين، فلم يكن أمام محمَّد ﷺ إلا أن يتخذ القرار المناسب لهذا الظرف الحرج، فجمع أصحابه واستشارهم في مواجهة قريش وحربهم، فتكلم كبار المهاجرين وأيدوا المواجهة بكلمات تفيض حماسًا، فأثن عليهم الرسول ودعا لهم، ولكنه استمر في حث الناس على إبداء الرأي و هو يريد أن يعلم موقف الأنصار لأنهم أكثر عددًا، ولأن بيعتهم له في العقبة الثانية لا تلزمهم بالقتال معه خارج المدينة، وفهم الأنصار ذلك فقال حامل لوائهم -سعد بن معاذ رضي الله عنه -: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله «فسر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «سيروا وأبشروا..».

المعركة:

سار المسلمون حتَّى واجهوا المشركين عند ماء بدر، ولكي يتم الله اللقاء بينهما فقد قلل عدد المشركين في أعين المسلمين وقلل عددهم في

أعين المشركين ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤]. وبدأ القتال بمبارزات بين أفراد من الطرفين انتهت لصالح المؤمنين ثم نشب قتال عنيف أسفر عن نتيجة موجعة للمشركين، فقد قتل منهم سبعون رجلاً منهم عدد من رؤوس الكفر وفي مقدمتهم أبو جهل، وأسر منهم سبعون رجلاً، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا فقط.

من أسباب النصر في بدر:

كانت نتيجة غزوة بدر مفاجئة لقريش وقبائل العرب المشركة، بل ستظل هذه النتيجة محل استغراب كل من يطلع عليها من الماديين الذي لا يعترفون إلا بالحسابات المادية المحسوسة. ولكنها تبدو طبيعية عند الذين يدركون السنن الإلهية في هذا الكون. ومن أبرز أسباب نصر المسلمين ما يلي:

١ - **القناعة الذاتية:** استخدم الرسول ﷺ جميع الأسلحة الفعالة في القتال وأهمها تربية أصحابه على القناعة الذاتية في قتالهم للعدو وفي هذا تعويض عن نقص العدد في جانب المسلمين، وهذه القناعة مبنية على الرغبة فيما أعده الله للمجاهد من أجر عظيم، ويكفي مثالاً لتوضيح ذلك قصة عمير بن الحمام رضي الله عنه، حين حث الرسول أصحابه على القتال قائلا: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فقال عمير متعجبا: يا رسول الله؛ أجنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم. فأخرج تمرات كانت معه وأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت - حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى ما تبقى معه ثم قاتل حتى قتل[١].

(١) عن قصة عمير انظر: صحيح مسلم: ٣/ ١٥٠٩، ١٥١٠، حديث ١٩٠١، سيرة ابن هشام: ٢٦٧، ٢٦٨. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٢٥.

٢- **الدعاء:** كما استخدم ﷺ سلاحًا فتاكا كان له أثره في تحقيق النصر، وهو سلاح الدعاء، فبه يستجلب النصر من صانع النصر: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. فقد بات ﷺ ليلة المعركة – والناس نيام – يدعو ربه ويناشده النصر، وكذا في صبيحتها حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله: كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك[١].

٣- **مشاركة الملائكة:** ومن أسباب نصر المؤمنين إمداد الله لهم بالملائكة يثبتون قلوبهم ويقاتلون معهم عدوهم، وقد دلت الآيات والأحاديث الصحيحة على مشاركة الملائكة في القتال مع المؤمنين[٢].

لقد انتهت معرك بدر بالنتيجة التي أرادها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

(١) عن دعاء النبي وتضرعه في بدر انظر: صحيح البخاري: المغازي، باب إذ تستغيثون ربكم حديث رقم: ٣٩٥٩. صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، سيرة ابن هشام: ٢٦٧.

(٢) من الأحاديث صحيح البخاري: كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرًا، وصحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة.

غزوة أحد:

سببها:

بعد هزيمة كفار قريش المروعة في غزوة بدر أرادوا أن يأخذوا بثأرهم ويردوا اعتبارهم عند العرب، فتداعوا إلى الخروج لغزو المسلمين، وجعلوا القافلة التي أفلتت من المسلمين ضمن نفقات الحرب، وخرجوا إلى المدينة يشاركهم عدد من بعض القبائل الحليفة لهم، وعددهم ثلاثة آلاف، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

الرسول ﷺ يستشير أصحابه:

جاء رسول الله ﷺ كتاب من عمه العباس يخبره بأمر قريش، فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر، وكان رأيه وعدد من المسلمين أن يقيموا في المدينة ولا يخرجوا لملاقاة المشركين فإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال في الطرقات والنساء من فوق المنازل، ولكنه كعادته - أحب أن يستشير أصحابه فرأى عدد كبير ممن فاته القتال في بدر أن يخرجوا لقتالهم، وألحوا على الرسول ﷺ حتى وافقهم فدخل منزله ولبس(لأمته)[1] فلما خرج عليهم ندموا على إكراههم لرسول الله وقالوا: إن أحببت أن نمكث بالمدينة فافعل. فقال ﷺ: (ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)[2] فخرج وخرج معه ألف رجل من أصحابه، وفي الطريق رجع عبد الله بن أبي بن سلول ورجع معه ثلث الجيش من المنافقين، وكان ممن يرى البقاء في المدينة، وقال: أطاعهم وعصاني، فعلام نقتل أنفسنا. وأبدى هو

(١) أي سلاحه.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة: باب قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم. ٢٨. سيرة ابن هشام: ٣/ ٧.

وأصحابه عذرًا تافهًا فقالوا: لو تعلم أنكم تقاتلون لم نرجع.

التخطيط للمعركة:

كان المشركون قد نزلوا قريبًا من جبل أحد، فجاء رسول الله وجعل الجبل في ظهره واختار خمسين من أصحابه من الرماة وجعلهم على تل مقابل لجبل أحد وجعل عبد الله بن جبير رضي الله عنه أميرًا عليهم، وأمرهم بالذب عن ظهور المسلمين ونبل المشركين لإعاقة تقدمهم خلال القتال.(وأمرهم بلزوم مكانهم على التل وألا يفارقوه مهما كان الأمر حتى لو رأوا المسلمين تخطفهم الطير)[1].

أحداث المعركة:

لما بدأت المعركة استطاع المسلمون بقوة إيمانهم وهذا التخطيط المحكم أن يتفوقوا على أعدائهم وحلت الهزيمة بالمشركين على كثرتهم فاضطرهم المسلمون إلى الفرار من ميدان المعركة، وهنا حدث ما كان يخشاه الرسول ﷺ وحذر من وقوعه، فلما رأى الرماة انتصار المسلمين وفرار المشركين اجتهدوا فقرروا النزول لمشاركة المسلمين جمع الغنائم، وعلى الرغم من تحذير أميرهم عبد الله لهم من خطورة تصرفهم هذا، وتذكيره هم بتوجيهات الرسول لهم إلا أنهم أصروا على النزول، فنزلوا ولم يبق مع أميرهم إلا نفر يسير دون العشرة. وكان لمخالفة هؤلاء الرماة لأمر الرسول ﷺ أثر غير مسار المعركة، فلما رأى خالد بن الوليد -وكان على ميمنة قريش - الرماة نزلوا من التل، قام بحركة التفاف من وراء جبل أحد حتى صعد جبل الرماة وقاتل بفرقته من بقي من الرماة حتى قتلهم وهجم على المسلمين من

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة أحد.

خلفهم، فلما رأى من بقي من المشركين ما قام به خالد عادوا لميدان القتال، فأصبح المسلمون في موقف حرج، فاضطربوا واختل نظامهم، وتفرقوا، واشتد عليهم المشركون فاستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، ونال الرسول ما ناله من الأذى فجرح وكسرت رباعيته، وأشيع أنه قتل فقلل هذا من معنويات بعض المسلمين، وظل المسلمون على الرغم مما حل بهم يقاتلون حتى تبين لهم أن رسول الله ﷺ حي لم يقتل فالتفوا حوله، واستطاع ﷺ بشجاعة وثبات أن ينحاز بالمسلمين جهة الجبل ليخفف من وطأة المشركين عليهم، أما المشركون فقد اكتفوا بما حققوه من نصر وتركوا الميدان بعد شتائم وجهها قائدهم أبو سفيان للمسلمين وتوعده لهم بلقاء آخر في العام القادم: فقال الرسول لأصحابه قولوا: نعم موعدنا العام القادم.

وبقي رسول الله ﷺ الميدان وأمر بعض أصحابه ليستطلع له: هل توجهت قريش إلى مكة أم أنهم يريدون مهاجمة المدينة وقال: (والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسير إليهم فيها ثم لأناجزهم) فلما تأكد من أنهم توجهوا إلى مكة أخذ يتفقد الشهداء، ثم صلى عليهم ودفنهم وعاد إلى المدينة.

وقبل وصول قريش إلى مكة كأنهم ندموا على عودهم دون أن يستأصلوا المسلمين ويقضوا على شوكتهم، فقرروا العودة لاستئصال البقية من المسلمين، فلما علم بذلك ﷺ أمر أصحابه الذين خرجوا معه في أحد دون غيرهم بالخروج لملاقاة المشركين، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

غزوة أحد دروس وعبر:

على ما أصاب المسلمين في غزوة أحد من بلاء إلا أن فيها من الدروس والعبر ما جعلها من أعظم الغزوات نفعًا للمسلمين في حينها وفي كل حين، وقد أنزل الله إحدى وستين آية في سورة آل عمران وحدها تناولت العبر وبينت الحكم مما أصاب المسلمين في هذه الغزوة، ومنها:

١- **تمحيص الصف:** فميزت تلك الغزوة المؤمنين الصادقين من أهل النفاق، فأما المؤمنون فقد ثبتوا في موطن الشدة وبقوا على صدقهم حتى آخر رمق فيهم، يقول أحدهم موصيًا من وقف عليه وهو يلفظ أنفاسه: قل لقومي من الأنصار لا عذر لكم إن يخلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف[1]. وكان من حول الرسول ﷺ يفدونه بأنفسهم حتى استشهد دفاعًا عنه عشرة من أصحابه رضي الله عنهم. وأما المنافقون فقد فرحوا بما أصاب المؤمنين وأظهروا ما تخفي نفوسهم من حقد فعرفوا وظهر أمرهم.

٢- **تنبيه المؤمنين بدرس عملي** إلى أهمية طاعة الله ورسوله وعدم مخالفة أمرهما ويدخل في ذلك طاعة القيادة المسلمة في كل زمن أو مكان ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

٣- **تنبيه المؤمنين إلى أنه يجب** أن يكون قتالهم وجهادهم لنصرة دين الله فلا يصرفهم عن ذلك أو يقلل من حماسهم فقد الرسول أو

(١) ورد هذا عن سعد بن الربيع رضي الله عنه: سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٦، الذهبي سير أعلام النبلاء ١/ ٣١٨، ٣١٩. وورد مثله عن أنس بن النضر رضي الله عنه.

من يتولى قيادتهم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٤- **إن الموت في سبيل الله شرف** عظيم يتفضل الله به على الشهداء فليسوا كغيرهم من الأموات ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

٥- على المسلمين أن يتوقعوا الهزيمة كما تحل بغيرهم إذا قصروا في فعل الأسباب ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٦- ويطول المحال بتعداد الدروس المستفادة من غزوة أحد، وقد ذكرها ابن القيم -رحمه الله- بشيء من التفصيل في كتابه زاد المعاد)[١].

(١) ٢١٨ وما بعدها.

غزوة الأحزاب:

سميت بهذا الاسم لأنَّه اشترك فيها جميع أعداء المسلمين على مختلف أنواعهم وطوائفهم من المشركين واليهود والمنافقين. وكانت في السنة الخامسة من الهجرة.

سببها:

سعي زعماء يهود بني النضير - بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة - إلى قريش والقبائل المشركة وتحريضهم على حرب المسلمين، ولأنَّ قريشًا تسعى للقضاء على المسلمين وتحرير طريق تجارتهما من خطرهم فقد وافقوا على المشاركة ودعوا إليها حلفاءهم من قبائل نجد وتهامة، وقد أغرى اليهود قبيلة غطفان – كبرى قبائل نجد- بدفع نصف ثمار خيبر لهم. وبلغ عدد المشاركين في هذه الحرب عشرة آلاف مقاتل.

المسلمون وفكرة حفر الخندق:

علم المسلمون بنبأ مسير الأحزاب إليهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بفكرة حفر خندق في الجهة الشمالية للمدينة وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة، في حين تتمتع بقية الجهات بتحصينات طبيعية حيث تتشابك فيها الأبنية مع البساتين في جهة، وفي جهات أخرى تمتد الحرات التي من الصعب اختراقها[1]. وافق الرسول ﷺ والمسلمون على فكرة سلمان وشرعوا في التنفيذ على الفور، فجعل الرسول على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعا[2]، وقد تخطى المسلمون كل العوائق التي مرت بهم في حفر

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٦، ٦٧. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٢٠.
(٢) أي قرابة عشرين مترًا.

الخندق، من قصر المدة، وبرودة الطقس، وقلة الزاد، ووعورة الأرض، وضعف آلات الحفر. وقد كان لمشاركة الرسول ﷺ أصحابه في أعمال الحفر أثرها الكبير في حماسهم للعمل.

كانت فكرة حفر الخندق جديدة لا يعرفها العرب، لذا فوجئت جموع الأحزاب حينما قدموا ووقفوا أمام الخندق مدهوشين، فاضطروا إلى أن يعسكروا أمامه دون أن يخترقوه، وقد رتب الرسول المسلمين وعددهم ثلاثة آلاف، فجعل أناسًا يقومون بدوريات حراسة في المدينة خوفًا من غدر اليهود والمنافقين داخل المدينة، وبقية الجيش لحراسة الخندق ومنع اقتحام الأحزاب له.

وقد حاول المشركون اقتحام الخندق عدة مرات إلا أن المسلمين تمكنوا من صدهم، وحدثت مناوشات رشق بالنبل من وراء الخندق، وظل بإمكان المسلمين السيطرة على الوضع حتى اشتدت بهم الأزمة عندما تمكن الأحزاب من إقناع يهود بني قريظة داخل المدينة من نقض عهدهم مع المسلمين وإعلان الحرب، فأصبح المسلمون في وضع حرج دفع الرسول ﷺ أن يستشير أصحابه في إغراء بعض القبائل المشاركة بدفع مقدار من ثمار المدينة لهم مقابل انسحابهم، لكن الأنصار قالوا: «لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الإسلام» وزاد من حرج الوضع إشاعة المنافقين الخوف والسخرية بالمؤمنين، وقد صور الله حالة المؤمنين الحرجة بقوله:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

وحين فعل المسلمون ما في وسعهم واستكملوا الأسباب المطلوبة

منهم، وبعد أن أصبح الأمر فوق طاقتهم، هنا جاء نصر الله لهم، فرغم أن المسلمين لم يواجهوا قوة مثل هذه القوة إلا أن الخسائر كانت أقل، فقد أفسد الله ما بين الأحزاب واليهود حيث تمكن نعيم بن مسعود - الذي أسلم ولم يعلم المشركون ولا اليهود بإسلامه وكان على علاقة حسنة بالطرفين - تمكن من زرع الشك بينهم حتى اختلفوا وارتاب كل منهما بالآخر[1]. وأرسل الله جنوده على الأحزاب حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. فاضطر الأحزاب إلى الرحيل عن المدينة خائبين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وبنهاية هذه الغزوة تحول المسلمون من سياسة الدفاع عن المدينة إلى غزو المشركين والهجوم عليهم في بلادهم وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه النتيجة مسبقًا فور رحيل الأحزاب حيث قال: (الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ)[2].

(١) عن قصة نعيم بن مسعود انظر: سيرة ابن هشام: الواقدي: المغازي: ابن كثير: السيرة النبوية: ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق: حديث ٤١١٠.

المرحلة الثانية: مرحلة الصلح:

مكث المسلمون في المدينة بعد الهجرة ست سنوات منقطعين عن زيارة المسجد الحرام والطواف به، وهم أحق بزيارته وعمارته من المشركين، ولكن كانت ظروف المرحلة السابقة تمنعهم من زيارته، أما وقد أظهر الله المسلمين وكثر عددهم وأضعف جانب المشركين بعد الخندق، فإن من المناسب أن يسعى المسلمون لزيارة المسجد الحرام كغيرهم من العرب الذين يفدون إليه، ودفع الرسول لذلك ما رأى في المنام من أنه يطوف وأصحابه بالبيت الحرام معتمرين، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]. وكان ﷺ يتوقع منع قريش لهم من دخول مكة، لذا حاول جمع أكبر عدد من المسلمين للسير معه فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين[١] وقد حاول جهده أن يظهر لقريش نواياه السلمية وأنه لم يخرج لحرب، فساق الهدي أمامه، وأحرم بالعمرة، ولما علم في الطريق أن قريشًا تستعد لمنعه من الدخول وعزمهم على حربه غير طريق سيره تلافيًا للصدام معهم، وسار حتى نزل(الحديبية).

بيعة الرضوان:

ومن الحديبية بعث ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه للحوار معهم وإقناعهم بضرورة فتح المجال للمسلمين بدخول المسجد الحرام وأداء العمرة،

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية. صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام.

ولكن قريشًا حبسوا عثمان وأشاعوا قتلة لمعرفة رد فعل المسلمين، هنا طلب الرسول ﷺ من أصحابه مبايعته على الموت، فبايعوه على ذلك، وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة هناك، وقد أثنى الله على هذه البيعة وأهلها حيث قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. فلما علمت قريش بذلك أطلقت سراح عثمان رضي الله عنه، ثم بعثت عددًا من الرسل للتفاوض مع محمد، وقد أثبت كل واحد من هؤلاء الرسل لقريش أن محمدًا وأصحابه لم يأتوا لحرب وإنما قدموا لزيارة البيت الحرام، ولكن كان من العسير على قريش أن تسمح لهم بذلك، لأن فيه - كما يرون - خدشًا لكبريائهم أمام العرب، لذا بدأوا يفكرون في المخرج، فحاولوا التوصل لصلح يحفظ لهم كبرياءهم ويظهرون فيه ضعف المسلمين وهذا ما يبدو من بنود الصلح التي وقعها الرسول ﷺ معهم وهي:

- أن يرجع المسلمون هذا العام دون دخول مكة للعمرة، ويأتوا في العام القادم.
- وقف الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات.
- أن من قدم من مكة مسلماً للمدينة يرد إلى مكة.
- من قدم إلى مكة مرتدًا عن الإسلام من المدينة لا ترده قريش إلى المسلمين.
- أن من أحب من القبائل الدخول في حلف محمَّد أو في حلف قريش فلهم ذلك و يحترم طرف حلفاء الآخر.

وفي ظاهر تلك الشروط إجحاف بحق المسلمين مما جعل الصحابة يراجعون رسول الله ﷺ ويظهرون عدم رضاهم عنها، ولكنه قال لهم: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ) واتضح للمسلمين فيما بعد أن تلك الشروط تحولت كلها لصالح المؤمنين، حتى إن قريشًا بنفسها طلبت إلغاء ما كان المسلمون يظنون أن فيه إجحاف بحقهم.

نتائج صلح الحديبية:

لقد سمى الله هذا الصلح فتحًا حيث أنزل على رسوله في طريق عودته قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١][١] فسأله رجل: أفتح هو؟ فقال: (نعَمْ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ)[٢].

ومن أهم نتائجه ما يلي:

١- في هذا الصلح اعترفت قريش لأول مرة بكيان المسلمين ودولتهم حين وقعت معهم الصلح، وقد أدى هذا إلى دخول بعض القبائل في التحالف مع المسلمين علانية دون خوف من قريش أو مجاملة لها. كما فعلت خزاعة.

٢- أتاح وقف الحرب للمسلمين التفرغ لتصفية الحساب مع أعداء آخرين للإسلام، فتم غزو اليهود في خيبر وفتحها سنة سبع. وغزو غطفان في نجد في غزوة ذات الرقاع، وتوجيه جيش إلى مؤته شمال الجزيرة وآخر في غزوة ذات السلاسل لتأديب بعض القبائل.

٣- كما أتاح لهم هذا الصلح التفرغ لنشر الإسلام، فبعث الرسول رسله إلى الملوك والرؤساء في الجزيرة وخارجها يدعوهم للإسلام،

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣٨٤٢٠، والحاكم في مستدركه: ٢/ ٤٥٩. وصححه ووافقه الذهبي.

كما أعطى هذا الصلح القبائل الأخرى الجرأة في الاتصال بالمسلمين والتعرف على الإسلام، ويدل على سرعة انتشار الإسلام خلال سنتين من الصلح أنه سار مع الرسول لفتح مكة عشرة آلاف مجاهد. كما دخل في الإسلام عدد من مشاهير قريش كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

المرحلة الثالثة: غزو المسلمين للمشركين:

فتح مكة:

سببه:

بعد صلح الحديبية بثمانية عشر شهرًا قامت حرب بين قبيلة خزاعة حليفة المسلمين وقبيلة بني بكر حليفة قريش، وتدخلت قريش فأعانوا حلفاءهم في الحرب، وبمقتضى شروط صلح الحديبية فإن أي اعتداء على الحليف يعد نقض للصلح، وبذا خرقت قريش معاهدة الصلح، لذا سارع الرسول ﷺ لنجدة خزاعة حين استنجدوا به.

مسير المسلمين إلى مكة وفتحها:

ندمت قريش على اعتدائها على حلفاء الرسول ﷺ، لذا أرسلت على الفور أبا سفيان لتأكيد الهدنة مع الرسول ﷺ، ولكنه فشل في تحقيق ذلك، وعاد إلى مكة خائبًا. وأمر الرسول أصحابه بالتهيؤ للخروج معه دون أن يبين جهة خروجه، حتى إذا حان موعد السير أخبرهم بعزمه على غزو مكة، ويريد من ذلك مباغتة قريش حتى تستسلم دون قتال.

خرج المسلمون مع رسولهم في العاشر من شهر رمضان في السنة الثامنة، وعددهم عشرة آلاف مقاتل، وعندما قرب المسلمون من مكة لقيهم نفر من زعماء قريش في طلعات استكشافية، فلما رأوا قوة المسلمين وكثرة عددهم أسلموا، ومنهم أبو سفيان الذي عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى التسليم وينهاهم عن المقاومة، وقسم الرسول ﷺ جيشه لدخول مكة ونهاهم عن القتال إلا حين يقاتلهم أحد، ونجح

المسلمون في دخول مكة، ولم يجد المسلمون سوى مقاومة يسيرة في بعض النواحي، وفور دخول الرسول مكة أعلن الأمان لكل من دخل داره وأغلقها عليه أو دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن حقنا منه ﷺ للدماء، وكان دخوله دخول المتواضع الخاضع لربه، ولم يكن دخوله دخول الملوك الجبارين، أو الموتورين الحاقدين، فعلى الرغم مما لقيه المسلمون من أذى أهل مكة قبل الهجرة و بعدها، يعلن الرسول مفاجأته للجميع وقد تمكن من العقاب فيقول مخاطبًا جموع قريش الحائرة: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] فعفى عن أهل مكة غير نفر يسير أهدر دمهم لعداوتهم الشديدة وتكرر نقضهم العهود، وتطاولهم بالسخرية من الرسول ﷺ ودين الله. كما أمر بتحطيم جميع أصنام قريش وتطهير المسجد الحرام منها. وأرسل بعض أصحابه لهدم أصنام القبائل الأخرى. وبفتح مكة وإعلان الرسول ﷺ العفو العام دخل أهل مكة في الإسلام وانتهت مقاومة قريش.

من نتائج فتح مكة:

كان فتح مكة آخر ضربة وجهت لكفار قريش، وباستسلام قريش - زعيمة الشرك - أزيحت عقبة كبرى في طريق الإسلام، فقد كانت القبائل الأخرى تتربص ما يؤول إليه الصراع بين محمَّد وقريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام بادرت القبائل الأخرى

(١) أبو عبيد: كتاب الأموال: ١/ ٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢. وفيها اذهبوا فأنتم الطلقاء. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث بتقوى هذه الطرق.

بالدخول في الإسلام[1]، وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:١- ٣]، ويدل على كثرة الداخلين في دين الله بعد الفتح أنه حضر مع الرسول ﷺ في غزوة حنين في أعقاب الفتح أثنا عشر ألف مقاتل[2].

ثقيف تتزعم الشرك

حاولت قبيلة ثقيف، كبرى قبائل هوازن أن تخلف قريشًا في زعامة الشرك والدفاع عنه ومحاربة المسلمين، لذا توجه لهم المسلمون بعد فتح مكة والتقوا بهم في معركة حنين، وكانت الجولة الأولى فيها لهوازن الذين بلغ عددهم عشرين ألف مقاتل، ولكن كسب المسلمون الجولة الثانية منها وهزموا ثقيفا ومن معها من قبائل هوازن وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة. ولم يكتف الرسول ﷺ بهزيمة ثقيف في حنين، بل توجه إلى الطائف لحصارهم، ومكث مدة محاصرا لهم ثم رجع إلى المدينة، وأيقنت ثقيف لما رأت البلاد من حولها دخلت الإسلام ألا مفر لها من الدخول مع من دخل فجاءوا في العام التاسع من الهجرة إلى المدينة معلنين إسلامهم[3].

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨/ ٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام: تاريخ خليفه بن خياط: ٨٨، طبقات ابن سعد: ٢/ ١٥٤، ١٥٥، وانظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢:٤٩٦.

(٣) عن غزوة حنين وحصار الطائف انظر: البخاري: المغازي، باب قوله تعالى «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم/ ٥٤ وباب غزوة الطائف/ ٥٦. سيرة ابن هشام: ٤/ ٦٥، ١٢٧.

ثانيًا: موقف الرسول ﷺ من أهل الكتاب:

موقفه من اليهود:

كان اليهود أجدر الناس باتباع محمَّد ﷺ حين بعث، لأنهم يعلمون قرب خروجه ويخبرون الناس بذلك ويعلمون أوصافه، لكنهم لما علموا أنه من غيرهم أبوا الدخول في دينه وكتموا الحقيقة التي يعلمونها حسدًا من عند أنفسهم، ولم يكتفوا بكتمان الحقيقة، بل إنهم قلبوها حين سألت قريش بعض زعمائهم عن أمرهم وأمر محمَّد فقال اليهود: أنتم خير وأهدى من محمد، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. كما كانوا يمدون قريشًا ببعض الأسئلة لإحراج محمَّد ﷺ[١].

ولما قدم الرسول ﷺ المدينة أبدى تسامحًا مع اليهود، وأظهر لهم حسن التعامل، وفتح معهم الباب واسعًا لتحقيق علاقة متينة قائمة على تحقيق مصلحة الطرفين، فوقع معهم معاهدة سلمية - كما سبق- ولكن اليهود كما أوضحت الأحداث قد وقعوا تلك المعاهدة تمشيًا مع الواقع الجديد وفي نفوسهم تحين للفرص، وتطلع للتخلص من وجود المسلمين في المدينة، وقد عبروا عن حقدهم على الإسلام والمسلمين بصور شتى من السخرية والاستهزاء، وإثارة الشبه والشكوك، ومحاولة إثارة النعرة القبلية من جديد بين العرب في المدينة، وتشجيع حركة النفاق حيث كان بعضهم يدخل في الإسلام نفاقًا وكذبًا ثم يخرج منه ليشككوا الناس في دين الله كما قال تعالى

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٣٦٦. حديث: ٥١٤٨.

عنهم: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ومع هذا ظل الرسول ﷺ ملتزمًا بمعاهدته معهم حتى تطورت عدواتهم إلى المواجهة الصريحة ونقضوا عهدهم، وسنستعرض موقف الرسول ﷺ من طوائف اليهود الثلاث بعد نقضها العهد.

نقض بني قينقاع العهد:

كان لانتصار المسلمين في معركة بدر وقع مؤلم في نفوس اليهود الذين يتربصون بالمسلمين السوء، وقد أظهر يهود بني قينقاع ما في نفوسهم من حقد بعد معركة بدر، لذا أسرع الرسول بجمعهم في سوقهم وقال: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا. فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم». قالوا يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[1] وعلى الرغم من تحديهم للرسول ﷺ في هذا الموقف فقد أمهلهم حتى حدث منهم اعتداء على إحدى المؤمنات حين ذهبت إلى سوقهم فجلست عند صائغ منهم، فأرادوها على كشف وجهها فأبت، فتحايل الصائغ وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها فتضاحك اليهود فصاحت، فوثب أحد المسلمين فقتل اليهودي، فاجتمع عليه اليهود فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين واليهود[2].

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٢٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢٤٢٧.

جلاء بني قينقاع:

عد الرسول ﷺ ما حدث من يهود بني قينقاع نقضًا للعهد فسار بأصحابه إلى حصونهم فحاربهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، وهنا تدخل حليفهم المنافق عبد الله بي بن سلول، وألح على الرسول أن خلي سبيلهم فقال ﷺ: «هم لك» فأخرجهم من المدينة ولحقوا بأذرعات في الشام[1] وفي موقف عبد الله بن أبي سلول نزل قوله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥١،٥٢].

نقض يهود بني النضير العهد وجلاؤهم:

بعد معركة بدر ظهر من بعض أفراد يهود بني النضير مثل ما ظهر من بني قينقاع من حقد على المسلمين، وخاصة من كعب بن الأشرف حيث ذهب بعد معركة بدر إلى مكة لمواساة قريش في مصابهم، وكان شاعرًا فقال أشعارًا في رثاء قتلاهم، وحرضهم على قال المسلمين، كما كان يقول أشعارًا في نساء المسلمين يتغزل بهن، لهذا أمر الرسول أصحابه بقتله قائلاً: (مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ) وتنفيذًا لأمره ﷺ قام بعض الصحابة بقتله[2].

اعتبر الرسول ﷺ تصرفات كعب عملاً فرديًا ولم يؤاخذ به قومه

(١) المصدر السابق: ٤٢٨، ٤٢٧. طبقات ابن سعد: ٢/ ٩٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب قتل كعب بن الأشرف/ ١٥.

بني النضير، بل إنه لما أثار مقتل كعب مخاوفهم وقع معهم معاهدة أكد فيها ما تم توقيعه في المعاهدة السابقة حين قدم المدينة.

ولكن بني النضير لم يدعهم الحقد والحسد لنبي الله حتى نقضوا عهودهم، ويظهر ذلك في اتصالاتهم السرية مع قريش لتحريضهم على المسلمين، ودلالتهم على عورات المسلمين، وتقديم بعض المساعدة لهم[(١)].

إلا أن الحادث الذي دفع الرسول إلى إعلان الحرب عليهم وإجلائهم هو محاولة اغتيالهم إياه، حين قدم الرسول ﷺ عليهم في ديارهم طالبًا منهم مساعدته في دفع دية قتيلين قتلهما أحد أصحابه خطأ، وقد أظهروا له استعدادهم لمساعدته تحقيقًا لما بينه وبينهم من المعاهدة، وطلبوا منه الانتظار فجلس إلى جدار أحدهم، ثم خلا بعضهم إلى بعض وتآمروا على قتله مستغلين فرصة وجوده بينهم، واتفقوا على أن يصعد أحدهم بصخرة كبيرة فيلقيها على الرسول ﷺ ليقتله، فأوحى الله إلى رسوله بذلك فقام مسرعًا وعاد إلى المدينة، فأمر أصحابه بالسير معه لحرب بني النضير، فسار إليهم المسلمون وحاصروهم، وطلب منهم الرسول أن يعطوه عهدًا جديدًا فأبوا، فقاتلهم حتى استسلموا وفرض عليهم الرسول الجلاء من المدينة على أن لهم ما حملت الإبل من الأمتعة فحملوا ما استطاعوا حمله وأخذوا يخربون ما أمكنهم تخريبه في بيوتهم حتى لا يستفيد منه المسلمون، فمنهم من خرج إلى خيبر ومنهم من خرج إلى الشام، وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة[(٢)]. وفي أمر بني النضير أنزل الله سورة الحشر.

(١) مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤١٨.

(٢) عن جلاء بني النضير انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير

نقض يهود بني قريظة العهد وموقف الرسول منهم:

جاء نقض بني قريظة العهد في ظروف حرجة للمسلمين حيث كانوا مشغولين بالتصدي لعشرة آلاف من الأحزاب يحاصرون المدينة، وكان نقضهم للعهد بتحريض من يهود بني النضير الذين نزلوا خيبر بعد جلائهم من المدينة، فقد تسلل زعيمهم حيي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد، فما زال يحرضه حتى وافق له على نقض العهد ومشاركة الأحزاب في قتال المسلمين واستئصالهم، وحين علم المسلمون بذلك دخلهم هم كبير وخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة، ولكن الرسول ﷺ اتخذ التدابير اللازمة فنظم فرقًا يطوفون بالمدينة لحراستها داخليًا من اليهود. ولما هزم الله الأحزاب ورحلوا عن المدينة جاء الأمر من الله لنبيه بالتوجه فورًا لبني قريظة فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالمسير إليهم قائلاً: (لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ)[1] ثم تكامل المسلمون أمام حصون بني قريظة وحاصروهم خمسًا وعشرين ليلة حتى استسلموا ونزلوا على حكم رسول الله، وطلبوا منه أن يحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس فطمعوا في أن يخفف عليهم الحكم للحلف الذي بينهم وبين قومه كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول مع بني قينقاع، فقبل ذلك ﷺ واستدعى سعدًا وكان قد جرح في أيام الأحزاب، فلما حضر سعد رضي الله عنه حكم فيهم بأن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم. فقال ﷺ: (قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ)[2].

رقم١٤. سيرة بن هشام:٣/ ١٩١. البيهقي: دلائل النبوة: ٣/ ١٨١، ١٨٢.

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ٣٠. غزوة بني قريظة.

(٢) المصدر السابق نفسه: الكتاب والباب نفسهما.

وتنفيذًا لهذا الحكم تم حجز اليهود وحفرت الأخاديد في المدينة وجيء بهم جماعات جماعات من ثبت أنه بلغ الحلم قتل، ثم دفنوا، وبلغ عددهم على الأرجح أربعمائة رجل، وقيل أكثر من ذلك[١]، ولم يقتل عدد يسير ممن أسلم[٢] أو ممن حصلوا على الأمان من بعض الصحابة[٣] وقسمت أموال بني قريظة ونساؤهم وأولادهم على المسلمين.

لماذا هذا العقاب الشديد لبني قريظة؟

قد يستغرب بعض من يطلع على ما ناله بنو قريظة من عقاب ويرى أن فيه قسوة، ولكن يزول ذلك حينما ينظر نظرة إنصاف وعدل ويمعن النظر في ظروف وملابسات الحكم، ومنها.

١- جاء نقض بني قريظة العهد بعد أن رأوا ما حل بطوائف اليهود قبلهم بني قينقاع وبني النضير بسبب نقضهم للعهد فكان في ذلك إنذار لهم ولكنهم لم يستفيدوا من هذا الإنذار ولم يعتبروا، ولا شك أن عقاب من يكثر إنذاره أشد ممن هو أقل منه في الإنذار.

٢- جمع بنو قريظة بنقضهم العهد بين جريمتين: الجريمة الأولى تخليهم عن العهد الذي وقعوه بينهم وبين المسلمين وهو الدفاع عن المدينة إذا داهمها عدو.

والجريمة الثانية أفظع من الأولى حيث لم يكتفوا بالتخلي عن المشاركة في الدفاع، بل تواطؤوا مع العدو في مهاجمة المسلمين. وعقاب من جمع جريمتين أشد وأنكي من عقاب صاحب الجريمة الواحدة.

(١) عن الروايات في عددهم انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٤١٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤٦١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير رقم ١٤.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦١- ٢٦٣.

٣- كان نقض بني قريظة في ظروف حرجة للمسلمين، ومن المؤكد - لولا عناية الله ونصره للمؤمنين - أن يحدث لهم على يد الأحزاب واليهود مثلما حدث لبني قريظة من قتل رجالهم وسبي أموالهم ونسائهم، لذا كان عقاب بني قريظة موافقًا لعظم جريمتهم وجزاؤهم من جنس عملهم.

٤- إذا كان سعد بن معاذ رضي الله عنه هو الذي نطق بهذا الحكم عليهم إلا أنه حكم الله فيهم كما أخبر به ﷺ بقوله لسعد: (قضيت بحكم الله) ومن أعدل وأحسن من الله حكمًا، فهو أعلم باليهود ونواياهم وأعلم بالحكم الموافق لجريمتهم، وليس لأحد أن يعترض على حكم أحكم الحاكمين.

وبالقضاء على يهود بني قريظة وجلاء بني قينقاع وبني النضير من قبل يكون المسلمون في المدينة قد استراحوا من عدو ماكر يتربص بهم الدوائر ويتحين كم الفرص.

موقف الرسول من يهود خيبر:

أصبحت خيبر بعد جلاء اليهود من المدينة أكبر تجمع يهودي في جزيرة العرب، وفر إليها رؤوس طوائف اليهود المخرجين من المدينة، ومنها أخذوا يدبرون الخطط للقضاء على الإسلام، فمنهم نبعت فكرة غزو الأحزاب المدينة، وكان من الحزم توجيه ضربة لهم والقضاء على خطرهم، وحدث هذا بعدما وقع الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، فتوجه إلى خيبر في السنة السابعة وحاصرها بالمسلمين وفتحها -وهي مجموعة حصون- حصنًا بعد الآخر، واستسلموا بعد قتال عنيف ورضخوا لحكم الرسول بجلائهم[1]. ولكن لما كانت خيبر

(١) عن فتح خيبر انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

منطقة زراعية وتجارية فليس من الحكمة ترك تلك المزارع تموت دون أن ينتفع منها المسلمون، وليس بإمكان المسلمين أن يحلوا محل اليهود، لانشغالهم بالعمل لنصرة الإسلام ونشره بين الناس والجهاد في سبيله، لذا وافق ﷺ على طلب اليهود أن يبقيهم في مزارعهم يعملون فيها ولهم نصف الثمر[1]، على أن للمسلمين إخراجهم منها إذا لزم الأمر. فبقوا على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث أخرجهم عندما حتمت المصلحة إخراجهم. وبعد فتح خيبر اضطر بقايا اليهود في الجزيرة إلى الدخول تحت حكم النبي ﷺ مثل يهود فدك، وتيما، ووادي القرى، فعاملهم معاملة يهود خيبر[2].

وهكذا نجد أنه كان بإمكان اليهود العيش في المدينة وفي جزيرة العرب في هدوء وسلام لو وفوا للمسلمين عهودهم، وأظهروا حسن نياتهم، ولكنهم سعوا إلى حتفهم بأنفسهم، فقد أعماهم الحقد والحسد لهذا النبي الكريم والدين الجديد عن حقائق الأمور، منذ أول وهلة في علاقتهم بهذا النبي وحتى آخر لحظة. فتذكر صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن أسلمت وتزوجت رسول الله ﷺ أن والدها حيي بن أخطب النضيري حين قدم النبي المدينة ذهب إليه هو وأخوه أبو ياسر بن أخطب، ثم رجعا يمشيان بفتور وضعف لا تكاد أقدامهما تحملانهما لما أصابهم من الوهن حين تبين لهما أنه النبي حقًا، وتقول صفية: وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[3]. وصدق في عداوته الرسول الله بكل ما أوتي. فلما أمكن الله منه وتم

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب معاملة النبي أهل خيبر: رقم ٤٠. صحيح مسلم: كتاب المساقاة: باب المساقاة والمعاملة بجزء من التمر والزرع.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان: ٤٢- ٤٨. ابن القيم: زاد المعاد: ١/ ٤٠٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٠، ١٤١. يرويها عن ابن إسحاق.

القبض عليه مع يهود بني قريظة وجيء به ليقتل ورأى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل الله[1].

ويقول الغزالي رحمه الله[2] في بيان سبب عداوة اليهود للمسلمين: «إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، وأنهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة وأثرهم اللازمة ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذى يدعيه القوم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة:٩١] وقال: «والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة، فلما توهم أن هذه المطامع مهددة الزوال ظهر الكفر المخبوء، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين».

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٠. السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٢٣٩. كلاهما عن ابن إسحاق.
(٢) فقه السيرة: ٢٦١، ٢٦٢.

موقف الرسول من النصارى:

يعد وجود النصارى في جزيرة العرب قليلاً إذا ما قورن بوجود اليهود فيتركز وجودهم في نجران، وهناك بعض القبائل العربية المنتصرة في شمال الجزيرة في طرف الشام الجنوبي، وبسبب بعدهم عن موطن البعثة النبويَّة فلم يكن لهم احتكاك بالمسلمين في السنوات الأولى، ولكن يذكر هنا موقف ملك الحبشة النصراني المتسامح مع المسلمين حين هاجروا إليه ومنحهم من عدله، وحين عز جانب الإسلام بعد فتح خيبر وفتح مكة، بدأ الرسول ﷺ خطوة متقدمة لنشر الإسلام في ربوع الجزيرة وخارجها، فوجه عدداً من الكتب والرسائل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم للدخول في دين الله وهنا بدأ الاحتكاك مع النصارى.

نصارى نجران:

بعث ﷺ كتاباً إلى أسقف نجران يدعوه للدخول في الإسلام، فاستشار صاحب نجران أصحابه فأشاروا عليه أن يبعث وفداً لمناقشة محمَّد ومعرفة خبره، فقدم الوفد والتقي بالرسول ﷺ وناقشوه في بعض المسائل وأجابهم عنها حتى سألوه عن عيسى عليه السلام، فقال: «ما عندي فيه شيء يومي هذا.» فلما أصبح من الغد جاءهم وقد أنزل الله عليه الإجابة في عيسى في قوله تعالي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] إلا أنهم لم يعترفوا بتلك الحقيقة في شأن عيسى، فطلب الرسول ﷺ مباهلتهم كما في الآية [آل عمران: ٥٩] ولكنهم خافوا سوء عاقبتها عليهم فلم يستجيبوا له، ونزلوا على دفع الجزية وطلبوا من الرسول تحديدها، فكتب

معهم إلى صاحب نجران كتاباً حدد فيه دفع جزية مقداها ألف حلة في السنة. وعاد الوفد إلى نجران، وبعد مدة جاء أسقف نجران على رأس وفد إلى المدينة، وأقاموا مدة عند رسول الله وسمعوا بعض ما أنزل عليه من القرآن، فلما عادوا كتب لهم الرسول كتاب أمان ما أصلحوا ونصحوا. ودخل في الإسلام عدد من نصارى نجران قبل وفاته عليه السلام[1].

نصارى الشمال:

أما النصارى في الشمال – المتمثلون في دولة الروم وبعض القبائل العربية الحليفة لهم – فبدأ الاحتكاك بهم عندما اعتدى بعضهم على أحد رسل رسول الله الحاملين لكتبه بالقتل، وتحرش بعضهم الآخر بسرايا رسول الله الذين بعث بهم لنشر الإسلام[2] لهذا وجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعوثه وسراياه نحو نصارى الشمال، للرد على مواقفهم السابقة، وللبدء في الانطلاق نحو نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية تحقيقاً لرسالته العالمية. وجه الرسول سنة ثمان من الهجرة سرية في ثلاثة آلاف مقاتل التقى المسلمون فيها بالروم في مؤته، واستشهد فيها قادتها الثلاثة الذين عينهم رسول الله واحداً بعد الآخر قبل انطلاق الجيش من المدينة. وفي السنة التاسعة أمر أصحابه للمسير معه إلى الشمال فيما عرف بجيش العسرة أو غزوة تبوك، وقد أعادت تلك

(١) عن تفاصيل وفد نجران انظر: البيهقي: دلائل النبوة: ٥/ ٣٨٥ – ٣٩١. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ١٠٠ – ١٠٨. وورد في صحيح البخاري خبر المباهلة، كتاب المغازي: باب قصة وفد نجران.

(٢) مثل قتل رسول الله الحارث بن عمير رضي الله عنه إلى صاحب بصرى (أسد الغابة لابن الاثير: ١/ ٣٤١) وقتالهم لأفراد السرية التي بعث على رأسها كعب ابن عمير رضي الله عنه (السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٤٥٤. عن الواقدي).

الغـزوة هيبـه المسـلمين فلـم يقـم الـروم وحلفائهـم مـن القبائـل العربيـة المنتصـرة بمواجهـة المسـلمين كمـا فعلـوا فـي مؤتـة، فوجـه الرسـول بعـض السـرايا لإخضـاع بعـض القبائـل هنـاك، كمـا عقـد الصلـح مـع بعضهـا الآخر[1].

وقبيـل وفـاة الرسـول ﷺ بـدأ فـي إعـداد جيـش لغـزو الـروم وجعـل علـى قيادتـه أسـامة بـن زيـد رضي الله عنه ولكـن توفـي ﷺ قبـل مغـادرة الجيـش المدينـة فلمـا تولـى أبـو بكـر رضي الله عنه الخلافـة أنفـذه سـيراً علـى نهـج الرسـول ﷺ.

(١) مثل مصالحة ملك آيلة: صحيح البخاري: كتاب الجزية / باب إذا وادع الإمام: رقم ٣.

موقف الرسول من المنافقين:

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو نوعان:

١- نفاق اعتقادي وهو إظهار الإسلام وإسرار الكفر وهذا يخلد صاحبه في النار.

٢- ونفاق عملي وهو من أكبر الذنوب[١] وهو من يتصف ببعض صفات المنافقين، ومن يخالف قوله عمله.

ظهور النفاق:

لم يظهر النفاق إلا بعد الهجرة، لأن المسلمين في مكة ضعفاء والقوة للمشركين فليس من أراد البقاء على الشرك بحاجة إلى مجاملة المسلمين، ولكن حين تمت الهجرة إلى المدينة وقوي جانب المسلمين وأصبحت لهم الغلبة وجد من أراد البقاء على كفره ممن لا يفكرون إلا في مصالحهم الخاصة، ولا ينظرون إلا إلى حياتهم الدنيوية وهم في الأخرة هم الغافلون، وجد هؤلاء أنهم سيكونون شواذ في المجتمع وأن مراكزهم ومصالحهم التجارية والاجتماعية معرضة للخطر، لذا آثر هذا الصنف العيش بشخصية منفصمة، ذات وجهين، هي البقاء في دواخلهم على كفرهم، وادعاء الإسلام ظاهرياً ليرضوا المؤمنين بذلك. ولم يكن هؤلاء واضحين في بادئ الأمر، لكن الأحداث كشفت عن كثير من أشخاصهم وجلت مواقفهم.

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٧٢.

أساليب المنافقين في مقاومة الإسلام:

مع أن المنافقين لم يحملوا السلاح لمحاربة المسلمين إلا أنهم من أخطر أعدائهم، ذلك لأنهم يعيشون بينهم ويعرفون أسرارهم، ويتظاهرون بمحبتهم وقد سلكوا عدة وسائل لمحاربة الإسلام والمسلمين نذكر أهمها فيما يلي:

١- محاولة تفريق كلمة المسلمين بعد أن جمعهم الله على الدين:

يعتقد المنافقون أن وجود المهاجرين من المسلمين في المدينة كان على حسابهم، لذا كانوا يحاولون إيغار صدور الأنصار على المهاجرين كلما وجدوا لذلك فرصة، مثلما حدث في غزوة بني المصطلق عندما حدث شجار بين أنصاري ومهاجري فاستغل كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الفرصة فأخذ يعاتب الأنصار على إيوائهم المهاجرين وأمرهم بعدم الإنفاق عليهم حتى ينفضوا عن الرسول ﷺ فأنزل الله فيه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

٢- التخذيل عن الجهاد بالقول والعمل:

يدرك المنافقون أن انتصارات المسلمين على المشركين أو اليهود تؤدي إلى زيادة قوتهم وتثبت أقدامهم في المدينة، لذا حاولوا إشاعة روح التخاذل عن الجهاد وإضعاف معنويات المسلمين، تارة بالقول كما كانوا يقولون في غزوة تبوك لا تنفروا في الحر. وفي أحد حين قتل من قتل من المسلمين قالوا كما قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. فدل على أنهم كانوا يخذلون؛ أما بالعمل فمواقفهم كثيرة منها انسحابهم من جيش المسلمين في غزوة أحد حين خرجوا معهم وعددهم ثلاثمائة ليحدثوا بذلك خللاً في صفوف المسلمين ويضعفوا من معنوياتهم.

٣- موالاة أعداء الإسلام ومظاهرتهم في حربهم للمسلمين:

أوضح الله صلة المنافقين بأعداء الإسلام والاشتراك معهم للتخطيط في الخفاء لحرب الإسلام والمسلمين فمن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. والمراد بشياطينهم هنا رؤساؤهم من أحبار اليهود والمشركين والمنافقين[١].

ومن ذلك بناؤهم مسجداً أظهروا أنهم أقاموه للصلاة شفقة على الضعيف والمريض، ولكنهم في الحقيقة بنوه لكي يجتمعوا فيه بعيداً عن أنظار المسلمين فيقولوا ما شاؤوا، ويتلقون فيه برسل أعداء المسلمين ويرسمون فيه خططهم، وكانوا قد بنوه قبيل خروج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه ليكون في ذلك حجة لهم وإقراراً منه لهم، فوعدهم بالصلاة فيه إذا عاد من تبوك، ولكن بعد عودته وقبل وصوله المدينة بيوم أنزل الله عليه آيات كشف فيها نوايا المنافقين من بناء هذا المسجد فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٧٦.

٤- السخرية والاستهزاء بالمسلمين:

ومن أساليب السخرية بالمسلمين، والاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين وذلك كثير، ففي أثناء حفر الخندق بشر الله رسول الله ﷺ المؤمنين بأن الله سيفتح لهم بلاد الشام وفارس واليمن، فلما قدمت جموع الأحزاب المدينة قالوا كما قال الله عنهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. وحين يرون المؤمنين يتسابقون للإنفاق في سبيل الله حين أحجموا هم يسلطون ألسنتهم بالسخرية، فمن رأوه أنفق كثيراً اتهموه بالرياء فأنزل الله فيهم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

٥- ترويج الإشاعات الكاذبة في المجتمع المسلم:

ومن أساليب نشر الإشاعات الكاذبة خاصة تلك الإشاعة التي تعمل عملها في تفريق الصفوف وتنافر القلوب، ومن أبشع تلك الإشاعات ما أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سنحت لهم الفرصة عند قدوم الرسول من غزوة بني المصطلق، فحدث أن عائشة سقط قرط لها فذهبت تبحث عنه والرسول وأصحابه قد تجهزوا للمسير فتأخرت فحمل الرجال هودجها[١] وهم يظنون أنها فيه وكانت خفيفة الوزن، فلما جاءت وجدت القوم قد رحلوا فجلست في مكانها فمر الصحابي صفوان بن المعطل رضي الله عنه – وكان يتعقب الجيش – فحملها على بعيره، فلما قدم المدينة أظهر المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن

(١) الهودج هو مكان مستور يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

أبي بن سلول حقدهم وفاح كفرهم فاتهموا عائشة ﵂ بفعل الفاحشة مع صفوان ﵁ وأشاعوا ذلك وروجوه بين الناس، وعاش البيت النبوي شهراً من المعاناة حتى أنزل الله عشر آيات [النور: ١١- ٢٠] بين فيها عظم ذنب أولئك الذين آذوا رسول الله بمثل هذه الفرية الدنيئة وبرأ ساحة أم المؤمنين وبشرها بأن ذلك الاتهام ليس شراً بل هو خير، وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

موقف الرسول ﷺ من المنافقين:

لما كان واقع المنافقين في حربهم للإسلام معقداً غير صريح، فهم يتظاهرون بالإسلام وإن كانت قلوبهم ممتلئة بالكفر والحقد على الإسلام والغش لأهله، ويعلنون أنهم مع المؤمنين ويحلفون على ذلك الأيمان المغلظة، وإن كانوا في الحقيقة في صف أعدائهم، وهم يقدمون الأعذار بألسنتهم عن أخطائهم المتكررة وقلوبهم مصرة على مقارنة تلك الأخطاء. فالحرب بهذا مع المنافقين ليست مكشوفة في ميدان النفوس وأدغال القلوب، لذا كفى الله المؤمنين خوض الحرب معهم وتولى بنفسه توجيه الضربات لهم، فكشف في آيات كثيرة ما تخفيه قلوبهم وفضح نواياهم وأعلن ما يسرونه في مجالسهم الخاصة، كما بين صفاتهم للمؤمنين ليحذروهم في كل حين، وهذا سر كون الآيات التي تحدثت عنهم أكثر بكثير من الآيات التي تحدثت عن المشركين لأن مواقف المشركين واضحة معلنة، أما مواقف المنافقين وأساليبهم فهي خفية تحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح ففي سورة آل عمران تفصيل

وبيان لما تخفيه نفوسهم وفضح لمواقفهم المخزية في غزوة أحد وجاء معظم آيات سورة التوبة كالصواعق المرسلة على المنافقين فما تركت شيئاً مما تكنه نفوسهم من حقد إلا ذكرته، وفصلت في بيان أحوالهم وصفاتهم لذا أطلق على هذه السورة عدة أسماء مرتبطة بموضوع فضحها للمنافقين[1]. وهناك سورة سميت باسم المنافقين وقد كانت تلك الحرب التي شنها الله عليهم بآياته أعظم عليهم من وقع السيوف، حتى أصبحت نفوسهم في قلق وقلوبهم في هلع في كل يوم يتوقعون آية تنزل بفضيحة جديدة لهم كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]. أما رسول الله ﷺ فإنه كان يتعامل معهم بحذر تنفيذاً لأمر الله له بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وكان يعاملهم بسياسة النفس الطويل فيقبل أعذارهم الكاذبة حين يبدونها له ويصبر على تصرفاتهم المشينة، وقد آلت هذه السياسية ثمارها، فحين قال زعيم المنافقين مقولته في غزوة بني المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» يعني أنه سيخرج رسول الله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «دعني أضرب عنق هذا الخبيث» فقال ﷺ: (دعه لا يتحدث الناس أن محمَّداً يقتل أصحابه)[2]

فلما قربوا من المدينة جاء ابن عبد الله بن أبي واسمه مثل أبيه عبد الله وهو مسلم فقال للرسول ﷺ: إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه، وإني لأخشى أن تأمر به

(١) من هذه الأسماء (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين (فتح القدير للشوكاني: ٢/ ٣٣٢)
(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب ما ينتهى من دعوى الجاهلية رقم ٨.

غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال له ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته فقال عمر رضي الله عنه: قد علمت والله، لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[1].

وقد بقيت للمسلمين في كل عصر تلك الآيات القرآنية الخالدة التي توضح لهم صفات المنافقين، وتبين أحوالهم الخفية، وأساليبهم الماكرة، لأن النفاق داء لا ينقطع، وأصحابه هم أصحابه في كل حين لا يختلفون باختلاف الزمن.

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧. عن ابن إسحاق بسند متقطع. ورواه الطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ٣١٨. وقال الهيثمي رجاله ثقاه. وانظر: مهدى رزق الله: السيرة النبوية: ٤٣٦.

الأحداث الأخيرة في حياة الرسول ﷺ

الوفود إلى رسول الله ﷺ

بعد فتح مكة وانتهاء مقاومة قريش ودخولها في الإسلام، وبعد القضاء على تحالف قبائل هوازن في غزوة حنين زالت أكبر عقبة أمام انتشار الإسلام في ربوع جزيرة العرب وبين قبائلها،، فقد كانت القبائل الأخرى تتربص ما يؤول إليه الصراع بين محمَّد وقريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام بادرت القبائل الأخرى بالدخول في الإسلام[1] وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ففي العام التالي لفتح مكة

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي/ باب غزوة الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨/ ٢٢.

العام التاسع من الهجرة تدفقت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة، حتى سمي هذا العام عام الوفود[١] وقد ذكر أن عدد تلك الوفود بلغ أكثر من ستين وفداً[٢] وأوصلها البعض إلى مائة وفد[٣] وشملت تلك الوفود قبائل العرب في جنوب جزيرة العرب وشمالها ووسطها وشرقها وغربها[٤].

فقد شهدت المدينة حركة كثيفة لاستقبال وفود القبائل التي جاءت لتعلن إسلامها وخضوعها لدولة الإسلام، وتختلف أعداد تلك الوفود من وفد إلى آخر، فحين بلغ بعضها التسعة العشرة نجد أن بعضها بلغ الأربعمائة رجل[٥] وقد أعطى ﷺ هذه الوفود أهمية كبرى، ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام:

- أناب عنه أبا بكر لقيادة المسلمين لأداء فريضة الحج في هذا العام لانشغاله باستقبال تلك الوفود التي لم تنقطع طوال العام[٦].
- حسن استقبال لتلك الوفود وإكرامهم وتأمين مقر سكنهم وضيافتهم إما في المسجد أو بعض منازل أصحابه، وبذلك العطايا تأليفاً لقلوبهم.
- استماعه لخطبهم وأشعار شعرائهم وتلطفه في الإجابة على أسئلتهم، وحمله على بعض ما يصدر من بعضهم من غلظة وجفاء في المعاملة كعادة الأعراب.

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢١، ٢٢٢.
(٢) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٤١.
(٣) كما ذكرهم الشامي في سيرته، انظر: مهدى رزق الله: السيرة النبوية ٦٣٩.
(٤) للوقوف على تفاصيل أخبار تلك الوفود انظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢١ وما بعدها الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٩١ – ٢٥٩.
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥
(٦) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة: ٢٦٤.

• كان يرسل مع بعض تلك الوفود عند عودتها بعض أصحابه لتعليم أفراد تلك القبائل القرآن وتعاليم الدين الإسلامي، ووضع على كل قبيلة وناحية أميراً ينوب عنه في الحكم وجباية الصدقات.

وبهذا نجد أن الجزيرة العربية ولأول مرة تتوحد سياسياً تحت لواء قيادة واحدة، وذلك نتيجة لتوحد قلوبهم على الدين الإسلامي بعبادة الله وحده ونبذ ما سواه.

حجة الوداع:

في السنة العاشرة من الهجرة عقد ﷺ العزم على أداء فريضة الحج، فأعلن ذلك لأصحابه في المدينة وللمسلمين عامة، وحرصاً من المسلمين على حضور تلك الفريضة مع رسول الله ﷺ أخذوا يستعدون لذلك فقدم المدينة قبل تحركه للحج أعداد كبيرة من المسلمين، ومنهم من لحق به في الطريق ومنهم من وافاه بمكة، وكانوا من الكثرة حتى ما يستطيع الرسول تبليغهم كلامه إلا عن طريق مبلغ يرفع صوته ليسمعوا الناس كلام رسول الله[١] وقد ذكر أن عددهم أربعون ألفا[٢].

وتسمى حجة النبي ﷺ هذه بحجة الوداع لأنه ودع أصحابه بقوله: (لعلي لا أحج بعد عامي هذا)[٣] كما تسمي حجة البلاغ لأنه ﷺ بلغ فيها أصحابه أحكام الحج وأوصاهم بوصايا عديدة وأمرهم أن يبلغوا عنه ما سمعوا.

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٧٦.
(٢) فدرهم بذلك أبو زرعة. العمري: السيرة النبوية الصحية: ٢/ ٥٤٩.
(٣) سنن الترمذي: كتاب الحج / ٥٥. مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٢.

مبادئ ووصايا في حجه الوداع:

خطب رسول الله ﷺ خلال حجة الوداع عدة خطب بعضها في الطريق وبعضها في المشاعر خلال أداء مناسك الحج، ومن أهم المبادئ والوصايا التي وردت في تلك الخطب:

١- بيان مناسبك الحج.

٢- تعظيم حرمة سفك الدماء وسلب الأموال وهتك الأعراض.

٣- تأكيد الأخوة الإسلامية وبيان حقوق المسلم على أخيه المسلم.

٤- التأكيد على الاعتصام بالكتاب والسنة، وتحريم الكذب على رسول الله.

٥- التحذير من التفرق والنزاع بين المسلمين وتحذيرهم من إتباع سبل الشيطان المؤدية إلى ذلك.

٦- تحريم التعامل بالرباء والظلم بين الناس.

٧- التأكيد على الالتزام بأركان الإسلام وشرائعه.

٨- وصية الرجال بالإحسان إلى النساء والرفق بهن ومراعاة حقوقهن. وبيان حق الزوج على زوجته.

٩- الأمر بطاعة ولاة الأمر والسمع لهم.

١٠- الوصية بالأرقاء[١].

وبتمام أعمال حجة الوداع وما بينه الرسول ﷺ فيها من توجيهات ووصايا يكون الدين الإسلامي قد اكتمل وأتم الله نعمته على المسلمين

(١) عن خطب رسول الله في الحج انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حجة الوداع حديث: ٤٤٠٣، ٤٤٠٦ صحيح مسلم: ٢/ ٨٨٩ – ٨٩٠. مهدى رزق الله: السيرة النبوية ٦٨٣.

بتمامه فأنزل الله أخر آية يذكر عباده بهذه النعمة وهي قوله تعالي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

مرض الرسول ﷺ ووفاته:

بنهاية حجة الوداع كانت شرائع الإسلام قد كملت، ورسالة الإسلام التي جاء بها محمَّد ﷺ قد تمت، لذا فإن مهمة محمَّد كمبلغ عن ربه لعباده قد انتهت بتمام الدين، وبقي تطبيق تلك التعاليم التي بلغها عن ربه، وهذه يقوم هو بها أو غيره حيث إن الرسل كغيرهم من البشر يموتون: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِينْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فقد أشعر الله نبيه بقرب أجله وهو في حجه الوداع وذلك حين أنزل الله سورة النصر: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ فعلم الرسول بقرب أجله، وهذا واضح في خطبه في الحج وبعد عودته.

وبعد عودته من الحج بثلاثة أشهر ألم به المرض حتى اشتد به فاستأذن نساءه أن يبقى في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له، وأمر أبا بكر رضي الله عنه ليصلي بالناس، وفي اليوم الأخير أحس بتحسن ونشاط فأطل على المسلمين في المسجد وهم يصلون فكادوا يخرجون من صلاتهم لفرحهم بذلك، وتأخر أبوبكر ظناً منه أن الرسول سيصلي بالناس ولكنه أشار إليهم أن أتموا صلاتكم وعاد إلى فراشه[1].

وبعد مرور عشرة أيام على مرضه توفي ﷺ ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها، وذلك في يوم الإثنين الثاني من ربيع الأول من السنة

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب مرض النبي ووفاته: حديث رقم ٤٤٤٨ في فتح الباري.

الحادية عشرة للهجرة، وعمره ثلاث وستون سنة. وقد وقع خبر وفاته على المسلمين كالصاعقة، فمن يهون عليه فراق الحبيب ﷺ؟ ومن شدة الهول لم يصدق بعضهم بموته، وكان أبو بكر رضى الله عنه غائبًا في بعض نواحي المدينة، فلما قدم دخل على الرسول ﷺ وهو مغطى فكشف الغطاء وقبله وبكى وقال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ثم خرج إلى الناس وهم ما بين مصدق ومكذب فقال: أما بعد من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فكأن الناس ما سمعوا بهذه الآية من قبل، وهذا موقف من مواقف تميز أبي بكر وقوة إيمانه رضي الله عنه.

تجهيز الرسول ودفنه:

وفي اليوم التالي لموته(يوم الثلاثاء) غُسل رسول الله وكُفن في حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم دخل عليه الناس أرسالاً أرسالاً، أي مجموعة مجموعة، يدخلون من باب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر لا يؤمهم أحد. فلما فرغوا من الصلاة عليه اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما قَبَضَ اللهُ نَبيًّا إلَّا في المَوضِعِ الذي يُحِبُّ أنْ يُدفَنَ فيه) وأمرهم أن يدفنوه في موضع فراشه[1]، فدفن ﷺ في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[2].

(١) سنن الترمذي: ٣/ ٣٣٨ -وصححه الألباني- وورد هذا الحديث بصيغة أخرى «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض» في مسند أبي يعلى: ١/ ٣١. وسنن البيهقي: ٤/ ٣٠.

(٢) عن تجهيز الرسول والصلاة عليه ودفنه انظر: السيرة النبوية- ابن هشام: ٤/ ٣٤١. ابن كثير:

أثر وفاة الرسول ﷺ:

لقد أحدث موت النبي ﷺ صدمة موجعة لأصحابه، وعلت وجوههم الكآبة، وأطبق الحزن على أهل المدينة خاصة والمسلمين في أرجاء الجزيرة عامة. لقد كان حزنهم عليه عظيمًا. كيف لا وقد كان وجوده بينهم عظيمًا وأثره في حياتهم كبيرًا، فأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وجمع به قلوبهم بعد الفرقة والشتات، كما فقدوا بفقده نزول الوحي الذي كان يصلهم بربهم. فزار مرة أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أم أيمن حاضنة رسول الله بعد وفاته، فلما انتهيا إليها بكت فقالا لها ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ فقالت ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[(١)].

لقد أحس المسلمون بموته بالوحشة تملأ نفوسهم، والظلمة تغشى الكون من حولهم. فقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا[(٢)].

أمَّا غير المسلمين من المنافقين واليهود والنصارى والأعراب فقد فرحوا بموت الرسول ﷺ فارتد كثير من الأعراب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وتطلع النصارى واليهود لضعف المسلمين وسقوط

٤/ ٣٢٩- ٥٣٣.

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٠٧ حديث رقم ٢٤٥٤.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٨. وقال هذا حديث صحيح غريب. ومسند أحمد: ٣/ ٢٢١. وصححه الحكم في المستدرك: ٣/ ٥٩.

دولتهم الناشئة. وأصبح المسلمون في خطر من أعدائهم، ولكن الله هيأ لهم أبا بكر رضي الله عنه فشد من أزر المسلمين وحارب بهم أعداء الإسلام في كل صوب حتى أعاد للإسلام هيبته وقوته في أرجاء الجزيرة.

شمائل النبي ﷺ ومعجزاته

شمائل النبي وخصائصه:

البحث في شمائل المصطفى ﷺ بحر لا ساحل له، فهي شاملة كاملة شمول الإسلام وكماله، فما من خلق حسن جاء في القرآن الكريم أو حث عليه الرسول ﷺ إلا وهو متجسد فيه، تقول زوجه عائشة رضى الله عنها وهي من أقرب الناس إليه: كان خلقه القرآن[1] وقد أثنى الله عليه في القرآن بعظيم خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وكفى بشهادة الله له شهادة.

(١) صحيح مسلم: كتاب المسافرين باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض. مسند الإمام أحمد: ٦/ ٢١٦. تفسير ابن كثير: ٨/ ٢١٤.

مصادر وكتب شمائله:

لقد اهتم علماء المسلمين -رحمهم الله- بجمع شمائل الرسول ﷺ وإفرادها بكتب خاصة غير كتب السيرة العامة، حرصًا منهم على إبراز أخلاق المصطفى لأمته ليقتدوا بها، ومن هذه المصادر:

• كتاب الشمائل للإمام محمَّد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ.

• كتاب أخلاق النبي وآدابه للحافظ(أبو الشيخ) عبد الله بن محمَّد الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩هـ.

• كتاب الشمائل لأبي العباس جعفر بن محمَّد المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢هـ.

• كتاب الأنوار في شمائل النبي المختار لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى سنة ٥١٦هـ. وهو من أضخم ما كتب في الشمائل وقد ذكر فيه مؤلفه سبعة وخمسين ومائتين وألفًا(١٢٥٧) من الأحاديث والآثار التي تتعلق بشمائل الرسول ﷺ.

• كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ رحمهم الله جميعًا[١].

(١) عن مصادر وكتب شمائل المصطفى ﷺ انظر: فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها: ٤٢، ٤٣. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٣٥.

من أخلاق النبي ﷺ وشمائله:

من العسير الحديث بإلمام عن أخلاق النبي ﷺ وشمائله في مثل هذا الفصل، ولكن نذكر طرفًا منها في جوانب ثلاثة، منها ما يتعلق بتعامله مع ربه، ومنها ما يتعلق بتعامله مع أصحابه، ومنها ما يتعلق بتعامله مع أعدائه.

تعامله مع ربه:

لما كان ﷺ أعلم الناس بربه تعامل معه بهذا العلم، فكان أعبدهم له، وأتقاهم له، وأقربهم منه، وأكثرهم حبًا له، وأشدهم شوقًا لما عنده، وأعظمهم ثقة به. ويظهر كل ذلك جليا في سلوكه وتعامله مع ربه. ففي عبادته لا يدانيه أحد، سئل علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن تطوع رسول الله ﷺ في الصلاة فقال: (إِنَّكُمْ لا تُطِيقُونَهُ)[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته[2]. في ذكر دائم لربه في جميع أحواله وبكل جوارحه، فما من عمل أو حال إلا شرع له ذكرًا يقال فيه وحث أمته عليه[3]. ففي المجلس الواحد يعد له مائة استغفار[4]، بل إن قلبه في حال ذكر دائم لله لا ينام، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتنام قبل الوتر؟ فقال: (يا عائشةُ إنَّ عينيَّ تَنامانِ ولا يَنامُ قلبي)[5] ويتجلى ذكره لله وصلته به كذلك حين يشتد به الأمر، فكثيرًا ما يبتهل ويتضرع

(١) سنن الترمذي: ٢/ ٤٩٣. مسند الإمام أحمد: ١/ ١٦٠. السنن الكبرى للبيهقي: ١/ ١٧٨.
(٢) صحيح البخاري: كتاب التهجد - باب قيام الليل رقم ٢٠١١/ ٤٦.
(٣) انظر زاد المعاد لابن القيم: فصل في هديه ﷺ في الذكر: ٢/ ٣٦٥ - ٤٦٧.
(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٤٩٤. وقال حسن غريب صحيح، وصححه الألباني.
(٥) صحيح البخاري: كتاب التهجد - باب ٢٠٦١/ ٤٨.

بالدعاء في معاركه طالبًا منه النصر ليقينه أنه صانع النصر.

وهو في هذه العبادة المتواصلة لله لا يقوم بها على أنها عمل إلزامي يجب أن يتخفف منه بأسرع وقت، كلا؛ بل إنه يمارسها وهو يشعر حين أدائها بسعادة غامرة ولذة ماتعة. فهو يقول(وجعلت قرة عيني في الصلاة)[1] كما يؤديها طلبًا لرضا ربه وعرفانًا بالجميل له، فحين أخبره الله بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. ما زاده ذلك إلا اجتهادًا ودأبًا في العبادة، فكان يصلي في الليل حتى تفطرت قدماه، فقيل له: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أَفَلا أَكُونُ عبدا شَكُورًا)[2].

وهذه العبادة الدؤوبة، وهذا التعامل المتصل بالله كان خير معين له على النهوض بأعباء الرسالة وتبعاتها الجسام، وكذا يجب أن يكون أتباعه في صلتهم وتعاملهم بربهم ليكون ذلك خير معين لهم في قيامهم بواجباتهم في حياتهم، ومحققًا لهم الفوز برضوان الله وجناته في آخرتهم.

تعامله مع أصحابه:

أ- تعامله مع أهله وخاصته:

من الممكن أن يتصنع المرء ويتكلف في رسم صورة حسنة لتعامله مع قوم يخالطهم وقتًا دون آخر وفي بعض أحواله دون سائرها، ولكن

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٢٨. مستدرك الحاكم: ٢/ ١٧٤. وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب: قيام النبي/ ٦.

من الصعب أن ينجح في ذلك مع من يعيش معهم سائر وقته وفي جميع أحواله الخاصة والعامة. لذا فإن أخلاق المرء ومعاملته تظهر على حقيقتها في بيته ومع ذويه.

ولقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة ومثالًا عاليًا في رسم صورة فريدة في تعامل المرء مع أهله وذويه. عاش ﷺ مع إحدى عشرة زوجة، وعدد من الإماء والموالي، وكان له أربع بنات ولهن عدد من الأولاد. فكيف تعامل مع هؤلاء كزوج كريم، وأب رحيم، وسيدٍ رؤوف.

كان تعامله مع زوجاته من منطلق قوله ﷺ: (خيْرُكم خيْرُكم لأهْلِه، وأنا خيْرُكم لأهْلي)[1] وقوله: (خِيارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنِسائِهِمْ)[2] فقد تعامل ﷺ مع زوجاته على الرغم من كثرتهن وانتشار الغيرة بينهن بلطف وحلم وصبر وتقدير واحترام، مما يدل على معرفته بطبيعة المرأة حق المعرفة، فكان يقدر عواطف الغيرة الراسخة في تكوين المرأة، فتعامل معها بواقعية. فكان يومًا عند عائشة رضي الله عنها فأرسلت له صفية رضي الله عنها قصعة فيها طعام فغضبت عائشة فضربت بيدها القصعة حتى سقطت وانكسرت وتناثر الطعام، فقال ﷺ: غارت أمكم وقام وضم القصعة المكسورة بعضها إلى بعض وجمع الطعام وجعله فيها وقال كلوا، وحبس الخادم، فلما فرغوا من الأكل جاء بقصعة سليمة من عند عائشة وأعطاها الخادم وقال إناء بإناء[3].

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٧٠٩، ح/ ٣٨٩٥. حديث الألباني.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ٤٦٦ - ح/ ١١٦٢ - وقال حديث حسن صحيح. مسند أحمد: ٢/ ٤٧٢. ح/ ١٠١١٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المظالم. باب ٣٤. ولم يصرح بذكر أسماء زوجات النبي. سنن الترمذي: ٣/ ٦٤٠. ح/ ١٣٥٩. وفيه تصريح بذكر عائشة وصفية. سنن أبي داود: ٣/ ٢٩٧. ح/ ٣٥٦٧.

وهذه البساطة واللطافة مع نسائه لم يكن ليخفيها عن أصحابه، ففي سفر مع أصحابه ومعه زوجته صفية كان يضع لها ركبته لتضع رجلها عليها حتى تركب بعيرها[١]. وفي سفر آخر قال لأصحابه تقدموا ثم تأخر وعائشة وتسابق معها فسبقته، ولما كبرت وثقل وزنها أجرى معها سباقًا آخر فسبقها وقال: هذه بتلك[٢].

ومع هذا كان متواضعًا في بيته يشارك في القيام ببعض مهن أهله[٣]، فيخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[٤].

أما في تعامله مع الأولاد والأطفال من حوله فكان لهم أبًا رحيمًا، ومربيًا حكيمًا، يسعى لإدخال السرور إلى نفوسهم، ويتبسط معهم بما يناسب عقولهم وأعمارهم. فكان يحملهم ويقبلهم، ويحادثهم، فروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ أخذ بيدي الحسن أو الحسين وقدميه على قدمي رسول الله وأمره أن يرقى عليه حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ فأمره أن يفتح فاه ثم قبله[٥]. وكان يحمل إمامة بنت ابنته زينب رضي الله عنها في الصلاة فإذا ركع وضعها وإذا قام رفعها[٦]. وصلى بأصحابه مرة فجاء الحسين ابن علي رضي الله عنه فركب على عنقه وهو ساجد فأطال السجود، فسأله أصحابه فقال: إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته[٧].

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر/ ٣٨.
(٢) سنن أبي داود: ٣/ ٢٩ ح/ ٢٥٧٨. السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٣٠٤. ح/ ٨٩٤.
(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب ٤٠.
(٤) فتح الباري: ١٠/ ٤٦١. وذكر حديثا في هذا وقال أخرجه الإمام أحمد وابن سعد وصححه وابن حبان.
(٥) رواه البخاري في الأدب، والطبراني. انظر: محمد نور سويد: منهج التربية النبوية للطفل: ١٨٢.
(٦) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب رحمة الوالد/ ١٨.
(٧) مسند أحمد: ٦/ ٩١. وقال العراقي في الإحياء: ٢/ ٢١٨. رواه النسائي ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين.

ولم يكن هذا التعامل خاصًا بأولاده ﷺ وأحفاده فحسب، بل كان عامًا لأطفال المسلمين، فكثيرًا ما يتوقف للأطفال إذا مر بهم يمازحهم، ويمسح على رؤوسهم ووجوههم، ويلاطفهم، ويسائلهم[١].

أما تعامله مع خدمه ومواليه فكان تعاملًا لطيفًا رقيقًا، يقول أنس ابن مالك رضي الله عنه: خدمته عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟[٢] وكان يأخذ ابن مولاه أسامة بن زيد ويضعه على فخذه والحسن ابن علي رضي الله عنهما على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ويقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما[٣]. وحين علم أن أبا ذر رضي الله عنه نال من مولى عنده وعيره بأمه قال له ﷺ: (إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ قُلتُ علَى حِينِ سَاعَتِي هذِه مِن كِبَرِ السِّنِّ؟ قالَ: نَعَمْ، هُمْ إخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أيْدِيكُمْ، فمَن جَعَلَ اللَّهُ أخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ ممَّا يَأْكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، ولَا يُكَلِّفُهُ مِنَ العَمَلِ ما يَغْلِبُهُ، فإنْ كَلَّفَهُ ما يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عليه)[٤]. وبلغ من شدة اهتمامه بأمر الأرقاء أن وصى بحسن معاملتهم وهو على فراش الموت[٥].

ب - تعامله مع عامة أصحابه:

بلغت معاملته ﷺ لأصحابه الغاية في حسن المعاملة، وتنوعت في

(١) للوقوف على مواقفه ﷺ في هذا الباب انظر: محمد نور سويد: منهج التربية النبوية للطفل: ١٧٩ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: حسن الخلق/ ٣٩. ورواه صحيح مسلم والترمذي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: ٢٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: ٤٤.

(٥) مسند أحمد: ٣/ ١١٧. سنن أبي داود: ٥/ ٣٥٩: كتاب الأدب ح/ ٣١٥٦. وللوقوف على مزيد من تعامله ﷺ مع الخدم والمماليك انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٢٣، ٧٢٤.

جوانبها حتى استوعبت جميع الصفات الحسنة والأخلاق العالية التي لا يبلغها إلا سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفيما يلي أورد جملة يسيرة منها:

التواضع ولين والجانب:

فكانت الامة من إماء أهل المدينة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت[1]. وبلغ من تبسطه مع أصحابه ما جعل النساء يجرؤن على سؤاله حقوقهن ورفع أصواتهن عنده بما لا يجرؤن فيه على غيره فدخل مرة عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وعنده عدد من النساء يسألنه وقد علت أصواتهن، فلما سمعن صوت عمر انقطعت أصواتهن فجأة فلما دخل عمر ضحك النبي ﷺ، فسأله عمر عن سر ضحكه فقال: (عَجِبْتُ مِن هَؤُلَاءِ اللَّاتي كُنَّ عِندِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجَابَ) فَقَالَ عُمَرُ: فأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ...[2].

زيارتهم في منازلهم ومؤانستهم:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله زار أهل بيت من الأنصار، فطعم عندهم طعامًا، فلما أراد الخروج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط فصلى عليه ودعا لهم[3].

قبول هداياهم والاستجابة لدعواتهم:

فكان يقبل هداياهم ويستجيب لدعوتهم مهما كانت متواضعة فقد قال ﷺ: (لَوْ دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أوْ كُراعٍ لَأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ أوْ

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الكبر/ ٦١.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب باب التبسم/ ٦٨.
(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الزيارة/ ٦٥.

كُـراعٌ لَقَبِلْـتُ)[١].

عيادة مريضهم ومواساة مصابهم:

كان ﷺ يأمـر بعيـادة المريـض ويحـث أصحابـه عليهـا، ومـا يسـمع بمـرض أحـد مـن أصحابـه إلا زاره ودعـا لـه[٢] وقـد جـاء زواجـه لعـدد مـن نسـائه مواسـاة لهـن بعـد فقـد أزواجهـن ومراعـاة منـه لأولادهـن، كزواجـه بـأم سـلمة رضي الله عنها حيـن مـات زوجهـا وخلـف معهـا أربعـة مـن الأولاد[٣]. وكـذا زواجـه مـن سـودة بنـت زمعـة حيـن توفـي زوجهـا وخـاف عليهـا مـن بطـش أخيهـا وقومهـا الذيـن هـم علـى الكفـر[٤].

التلطف بالمخطئين منهم وعدم تعنيفهم:

كان ﷺ حريصًـا علـى مشـاعر أصحابـه رفيقًـا بمـن يخطـئ منهـم، فـإذا بلغـه عـن أحدهـم شـيء لـم يقـل لـه قلت كـذا وكـذا، ولكـن يقـول: (مـا بَالُ أَقْـوَامٍ قالـوا كَـذَا وَكَـذَا)[٥] وحيـن جـاء أعرابـي وبـال فـي المسـجد جاهـلاً ثـار عليـه النـاس ليقعـوا فيـه، فقـال لهـم رسـول الله ﷺ: (دَعُـوهُ، وأَهْرِيقُـوا علَـى بَوْلِـهِ ذَنُوبًـا مِـن مَـاءٍ، أوْ سَـجْلًا مِـن مَـاءٍ، فإنَّمـا بُعِثْتُـمْ مُيَسِّـرِينَ ولَـمْ تُبْعَثُـوا مُعَسِّـرِينَ)[٦].

سخاؤه لهم وعدم رد حاجة من سأله منهم:

فقـد جـاءت امـرأة إلـى النبـي ﷺ وأهدتـه بـردة فقبلهـا وكان محتاجًـا

(١) صحيح البخاري: كتاب الهبة: باب القليل من الهبة/ ٢.
(٢) صحيح البخاري: كتاب المرضى: الأبواب: ٤، ٥، ١٠، ١٣، ١٥.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨/ ٨٧ - ٨٩. وانظر مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٠٢.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨/ ٥٢ - ٥٣.
(٥) سنن أبي داود: ٥/ ١٤٣. ح/ ٤٧٨٨. وانظر: صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب فضل من لم يواجه الناس بالعتاب/ ٧٢.
(٦) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب يسروا ولا تعسروا/ ٨٠.

إليها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال: نعم، فلما قام ﷺ لأمه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها[1].

هذه جملة يسيرة من أخلاقه ﷺ في تعامله مع أصحابه، ولا يتسع المجال مهما امتد لذكر بقيتها، فقد كان يلقاهم بالبشاشة ويتبسم في وجوههم، ويصبر على غلظة طباع بعضهم، ويوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويساعد محتاجهم ﷺ.

تعامله مع أعدائه:

لم يكن الرسول ﷺ يضمر عداوة لأحد، ولكن أعداءه يعادونه من طرف واحد، فقد جاء لهداية البشر جميعًا وسعى بكل الطرق والوسائل لإنقاذهم من الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية. لقد كان يسعد كلما أنقذ نفسًا من شقائها إلى سعادتها، ومن ضلالها إلى هداها، وهذا يفسر حلمه ﷺ بقومه على شدة إيذائهم له وصبره على أذاهم طمعًا في هدايتهم. وفيما يلي جملة من أخلاقه ﷺ وتعامله مع أعدائه.

حرصه على هدايتهم:

كان ﷺ شديد الحرص على هداية أعدائه كما كان يحزن ويتأمل حين يرى إعراضهم عن دعوته، فهو يحرص على هدايتهم أشد من حرصهم على إيذائه، وقد ذكر الله في كتابه تلك الخصلة السامية في

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب ٣٩.

تعامله مع أعدائه، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. أي مهلك نفسك بحزنك عليهم لبعدهم عن الإيمان[١].

دعاؤه لهم بالهداية والبعد عن الغواية:

كثيرًا ما كان ﷺ يدعو ربه بأن يهدي المعرضين عن الدين المعادين له أفرادًا وجماعات، وقد شرح الله صدور الكثير من المشركين للإسلام بسبب تلك الدعوات، كدعائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: (اللَّهمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بأَحَبِّ هذَينِ الرَّجُلَينِ إليكَ بأبي جهلٍ، أو بعُمرَ بنِ الخطَّابِ)[٢] وجاء إسلام قبيلة دوس نتيجة لدعائه لهم. فحين أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي عاد إلى قومه(دوس) يدعوهم إلى الإسلام فلما امتنعوا رجع إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو عليهم، لكنه أبى ودعا لهم بقوله: (اللَّهمَّ اهْدِ دَوْسًا) وقال: (ارجِعْ إلى قومِكَ فادعُهم وارفُقْ بِهِم) فعاد فدعاهم فأسلموا[٣]. وحين استعصى على المسلمين فتح الطائف ودعا الرسول ﷺ أصحابه إلى فك الحصار عن ثقيف، طلب منه بعض المسلمين أن يدعو عليهم فرفض ذلك ودعا لهم بقوله: (اللهمَّ اهدِ ثَقِيفًا)[٤] ، فلم تلبث ثقيف حتى جاءت تعلن إسلامها.

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٣٢. ٦/ ١٤٤.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٩٥. سنن الترمذي.

(٣) قصة إسلام الطفيل ودعوته قومه في أسد الغابة لابن الأثير: ٤/ ٥٤. عن ابن إسحاق. وفي صحيح البخاري: خبر عودته للرسول ونص الدعاء «اللهم اهد دوسا وائت بهم» المغازي: باب قصة دوس/ ٧٥.

(٤) سنن الترمذي: مناقب ثقيف. وقال صحيح غريب.

العفو عنهم عند المقدرة:

فحين اشتد أذى قريش عليه بعد وفاة عمه وزوجته خرج إلى الطائف فلقي من أهلها أشد مما لقي من أهل مكة، وفي طريق عودته من الطائف جاءه جبريل عليه السلام وقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم» فناداه ملك الجبال: «يا محمَّد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»[1] «فقال ﷺ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعبد اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا)[2]. وقد سبق ذكر عفوه عن قريش بعد فتح مكة وقوله لهم: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[3]. وعفا عن غورث ابن الحارث على الرغم من محاولته قتل الرسول ﷺ، فلما عاد إلى قومه قال: (جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدَ خَيْرِ النَّاس)[4].

احترم عهودهم ومواثيقهم:

لم يشهد التاريخ أنَّ محمَّدًا ﷺ أبرم عهدًا مع أحد غيره ثم نقضه حتى مع أعدائه، ويشهد لذلك أعداؤه أنفسهم، فحين قدم اليهودي حيي ابن أخطب على كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة يريده على نقض عهده مع النبي ﷺ والانضمام إلى الأحزاب، كان مما قاله كعب لحيي أول الأمر: «إني عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني

(١) جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب/ ٧ ح/ ٣٢٣١ في الفتح ٦/ ٣١٢، ٣١٣. صحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠ ح/ ١٧٩٥.

(٣) أبو عبيد: كتاب الأموال: ١/ ٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢. وفيها اذهبوا فأنتم الطلقاء. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث يتقوى بهذه الطرق.

(٤) صحيح البخاري: المغازي: باب غزوة ذات الرقاع/ ٣١. صحيح مسلم: الصلاة: باب صلاة الخوف.

وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا»[1].

حصر القتال معهم في أضيق نطاق:

يختلف قتال الرسول ﷺ لأعدائه عن أي قتال على وجه الأرض، فلم يكن يريد بالقتال إبادة خصمه، وإنما اضطر لقتالهم حين سدوا أمامه كل الطرق لقبول دعوته ولم يخلوا بينه وبين الناس ليبلغهم رسالة ربه، لذا كان لابد من قتالهم حتى لا يفتنوا الناس عن الدخول في دين الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]. ولكن قتاله لهم كان محصورًا في ميدان القتال وعلى من عاند وجعل من نفسه محاربًا لله ورسوله، فكان إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «أغزو باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزو ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإذا أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم... فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[2].

أداء حقوق وواجبات من يعايش منهم:

هناك بعض من غير المسلمين عاشوا مع المسلمين ممن لهم عهد وذمة، أو من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦. السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ١٩٨. كلاهما عن ابن إسحاق البيهقي: دلائل النبوة: ٣/ ٤٠٠.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٥٧ ح/ ١٧٣١. سنن الترمذي: ٤/ ١٦٢. مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٥٨. والمثلة قطع أجزاء من جسم الإنسان وهو حي.

والعداوة للمسلمين، فكان ﷺ يؤدي ما لهؤلاء من حقوق وواجبات كحق الجوار إن كانوا جيرانًا، أو حق القرابة إن كانوا أقرباء، فقد كان بجواره ﷺ يهودي وله غلام يخدمه، فلما مرض الغلام وفقده زاره ﷺ ودعاه إلى الإسلام فأسلم[1].

وتلك الأخلاق والشمائل غيض من فيض وقطرة من بحر من شمائله ﷺ، فعدها لا ينتهي، ولكن نذكر بأن هناك من الأخلاق الذاتية المتعلقة بحياته الخاصة كزهده في الحياة والبعد عن مظاهر النعيم، ونظافته وحبه للجميل من اللباس والطيب، وطريقته في الأكل واللباس، والنوم، والمشي، وشجاعته، وغيرها من الشمائل والأخلاق التي لا يمكن استيعابها في مثل هذا المقام، وهي مبسوطة في كتب الشمائل والسنن.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي/ ٧٩. ح/ ١٣٥٦. سنن أبي داود: ٣/ ١٨٥. مسند أحمد: ٣/ ١٧٥.

دلائل نبوَّة محمَّد ﷺ ومعجزاته

المعجزة هي: الأمر الخارق للعادة والمخالف للمألوف في سنن الكون[1] وما أرسل الله نبيًا إلا وجعل له معجزة أو عددًا من المعجزات تدل على أنه نبي مرسل من الله تعالى إلى خلقه. وفي هذا المبحث نذكر أهم معجزات المصطفى ﷺ ودلائل نبوته.

(١) عدنان محمد زرزور: علوم القرآن: ٢١٨.

المعجزة الخالدة(القرآن الكريم)

تعريف القرآن بإيجاز هو: كلام الله المنزل على النبي محمَّد ﷺ، المتعبد بتلاوته[١]. وهو المعجزة الكبرى لمحمَّد ﷺ وجاءت هذه المعجزة موازية لعظم رسالته وشمولها لجميع الجنِّ والإنس وصلاحها لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، فلما كانت طبيعة رسالة الأنبياء من قبل محدودة بأقوام معينين، أو بزمان ومكان محددين كانت معجزاتهم محدودة تبعًا لذلك. وجاءت معجزة محمَّد ﷺ في القرآن لتبقى خالدة يلمسها ويحس بها كل إنسان إلى يوم القيامة. ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مِنْ الآيات[٢] مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣] وكثرة أتباعه تأتي من استمرار معجزته تلك فيكثر من يؤمن به[٤]. ويأتي إعجاز القرآن الكريم من وجوه عدة أهمها:

١- الإعجاز اللغوي: ويظهر في فصاحة القرآن وبلاغته، وجمال تركيبه وأساليبه. ويأتي وجه الإعجاز هنا حيث إنه نزل في مجتمع العرب وهم أرباب الفصاحة المفتونون بأساليب الكلام وأسرار البلاغة، وبلغوا في ذلك شأنًا لم يبلغه غيرهم. ومع هذا تحداهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور بل تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا

(١) المصدر السابق: ٤٦.

(٢) أي العلامات والدلائل.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٩٦. كتاب فضائل القرآن: باب كيف نزول الوحي. صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ.

(٤) قد بسط ابن كثير رحمه الله القول حول هذا الحديث في البداية والنهاية: ٦/ ٦٩.

نَزَّلْنَا عَلَى عبدنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]. وتحدي العرب بالقرآن هنا فيه وجه شبه بمجزات الأنبياء السابقين حيث جاءت معجزاتهم تتناسب مع واقع أقوامهم، «فكانت عصا موسى عليه السلام في قوم قد برعوا في السحر، وجاء إحياء عيسى عليه السلام للموتى وإبراء الأكمه والأبرص، في قوم برعوا في الطب»[١].

٢- وهو معجز من حيث إنه اشتمل على كم هائل من الأحكام، والأوامر والنواهي، والآداب، والأخبار، ومع ذلك جاء متناسقًا لا اختلاف فيه ولا تعارض ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٣- تأثيره النافذ إلى أعماق القلوب لمن سمعه حتى ولو لم يكن يؤمن به، وكم من أناس دخلوا في الإسلام لمجرد سماعهم لتلاوة آيات منه، وقد كان المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يدركون هذا الأثر، لذا كانوا يحاولون منع الناس من سماعه والتشويش على من يريد سماعه كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وكانوا إذا قدم مكة أحد خوفوه من محمَّد بأنه ساحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجه، وقالوا له: فلا تكلمه ولا تسمع منه[٢]. ومع ذلك فلا يملكون قلوبهم من التأثر بسماع القرآن حين

(١) عدنان محمد زرزور: علوم القرآن: ٢١٩.
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة: ٣/ ٥٤.

تتاح لأحدهم الفرصة، فبعد معركة بدر قدم جبير ابن المطعم المدينة قبل أن يسلم في شأن أسرى بدر، ويقول عن نفسه: فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ يصلي المغرب فقرأ بالطور فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن[1].

٤- إخباره عن أخبار الماضيين، فقد جاء فيه ذكر الأمم الماضية وأخبارهم مع رسلهم وما حدث لهم، مع أن محمدًا أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن صاحب أسفار يطلع من خلالها على بعض تلك الأخبار، ففي مجمل ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] ولولا ذكر القرآن لكثير من تلك الأخبار الماضية لم يعلم بها أحد، وجاء ذكر بعضها في الكتب السابقة فصدقها القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٥- إخباره عن أحداث في المستقبل، ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أمور في المستقبل ووقعت كما أخبر، وهي كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ١ - ٥]. فقد نزلت هذه الآيات والفرس قاهرون للروم، وكان هذا يسر كفار قريش لأنهم وثنيون مثل الفرس، والمسلمون يرجون الروم

(١) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٨٣. وفي صحيح البخاري: قال «كاد قلبي يطير» كتاب التفسير: باب تفسير سورة الطور.

لأنهم أهل كتاب، فلم تمض سبع سنوات حتى انتصر الروم على الفرس وهزموهم ففرح المسلمون لذلك، وأسلم أناس بسبب ذلك[1].

٦- اشتماله على أسرار عملية وسنن كونية لم تعرف إلا بعد نزوله بزمن طويل. وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذا بابه واسع، فلا يزال التطور العلمي يكشف لنا عن أسرار ذلك الإعجاز العلمي للقرآن. في مجال النفس البشرية، أو مجال هذا الكون الفسيح وما يجري فيه، في أعماق البحار، أو في طبقات الفضاء، أو فوق سطح الأرض أو في باطنها. ومن تلك الآيات الكثيرة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فلم يعلم بأن الإنسان كلما صعد إلى أعلى كلما ضاق به التنفس لنقص الأكسجين إلا في العصر الحديث.

٧- حفظ الله له على مر العصور، فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفل الله بحفظه من التحريف، أو الزيادة والنقص، وسيبقى ذلك إلى قيام الساعة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٣٠٤ - ٣٠٦.

معجزات أخرى:

كان للنبي ﷺ بالإضافة إلى معجزة القرآن الخالدة عدد كبير من المعجزات الحسية كغيره من الأنبياء ونذكر جملة يسيرة منها بإيجاز:

أ- الإسراء والمعراج:

حدثت قصة الإسراء والمعراج للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، وما ترتب على ذلك من اشتداد أذى المشركين عليه، فجاءت تثبيتًا وتسلية له في تلك الظروف. ومجمل هذه المعجزة أن الله أسرى بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، على دابة أعدها الله لذلك تسمى: «البراق» ومن المسجد الأقصى عرج به إلى السماوات السبع، ولقي فيها عددًا من الأنبياء عليهم السلام، ورأى سدرة المنتهى، ورأى في الجنة صورًا من النعيم التي أعدها الله لأهلها، كما نظر في النار فرأى صورًا من أحوال المعذبين فيها، وهناك فرضت عليه الصلوات الخمس، ثم نزل إلى بيت المقدس، وصلى فيه بالنبيين وعاد إلى مكة، كل ذلك في ليلة واحدة. وحين أصبح تحدث عن رحلته تلك فدهش من سمعه من قريش وزادهم ذلك سخرية به على الرغم من أنهم طلبوا منه دليلًا حسيًا على ذلك فوصف لهم المسجد الأقصى وهم يعلمون أنه لم يره وصدقه من رآه منهم على وصفه، كما أخبرهم ببعض ما شاهده في طريقه ومن ذلك قافلة تجارية قادمة من الشام فأخبرهم بأنه لقيهم في طريقه وذكر بعض ما حدث للقافلة في تلك اللحظات فلما قدمت القافلة وسألوهم صدقوه، ولكن مع هذا كذبه الكفار[1].

(١) عن قصة الإسراء والمعراج انظر: صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله أسرى بعبد ه

ب- انشقاق القمر:

كان كفار قريش يطلبون من النبي ﷺ المعجزات دليلًا على صدقه، ولكن الله يرد عليهم بأن مثل هذه المعجزات لن تزيدهم إلا عنادًا كما حدث مع الأنبياء السابقين، ولكن حين ألحوا على الرسول بأن يريهم آية قال لهم: انظروا إلى القمر، فإذا هو منشق فرقتين يفصل بينهما جبل حراء[1]. ولكن كما أخبر الله لم يزدهم ذلك إلا عنادًا لأن سؤالهم كان من أجل التعجيز لا من أجل الوقوف على الحقيقة.

ج- إخبار الرسول بأمور مستقبلية:

أخبر الرسول ﷺ بعدد من الأمور في المستقبل وحدثت كما أخبر بها، وهي كثيرة[2] نذكر منها:

١- إخباره بما سيحدث من الفتوحات على أيدي المسلمين من بعده، مثل فتح بلاد فارس والشام ومصر وغيرها، ومنها قوله: (إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ)[3] وكل ذلك حدث.

٢- قوله ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما: (ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللَّهَ أنْ

ليلا. ح/ ٤٧٠٩، ٤٧١٠، وكتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة. ح/ ٣٤٩. صحيح مسلم: ١/ ١٤٩، ١٥٦. خير الدين وائلي: الصحيح من معجزات المصطفى ﷺ: ٢٣.

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية. ٤/ ١٨٦. صحيح مسلم: كتاب المنافقين: باب انشقاق القمر. ح/ ٢٨٠٢.

(٢) ذكر صاحب كتاب الصحيح من معجزات المصطفى ١٢٦ معجزة من هذا النوع.

(٣) البخاري: المناقب: باب علامات النبوة، مسلم: فتن: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت ح/ ٢٩١٨.

يُصْلِحَ بـه بيْـنَ فِئَتَيْـنِ مِـنَ المُسْـلِمِينَ)[١] وقـد حـدث هـذا فعلًا عـام الجماعة سـنة ٤١هـ حيـن تنـازل الحسـن رضي الله عنه لمعاويـة بـن أبـي سـفيان رضي الله عنه.

٣- هنـاك أمـور أخبـر بوقوعهـا ﷺ ولـم تقـع بعـد ولكنهـا سـتقع حتمًـا، ومنهـا قولـه ﷺ: (لا تقـوم السـاعة حتـى تقاتلـوا اليهـود حتـى يقـول الحجـر وراءه اليهـودي يـا مسـلم هـذا يهـودي ورائـي فاقتلـه)[٢].

د- تكثير الطعام والشراب:

حـدث تكثيـر الرسـول ﷺ للطعـام والشـراب مـرات كثيـرة حيـث يدعوه أحـد أصحابـه إلـى طعـام لا يكفـي لعشـرة أشـخاص فيأتـي الرسـول ويضـع يـده أو يبصـق فيـه ثـم يدعـو بالبركـة فيـأكل منـه جيـش بأكملـه والطعـام علـى حالـه لـم ينقـص. حـدث هـذا فـي غـزوة الخنـدق حيـن دعـاه جابـر ابـن عبـد الله رضي الله عنه علـى طعـام لـه[٣] وحـدث ذلـك حيـن دعـاه أبـو طلحـة رضي الله عنه علـى طعـام لـه كذلـك[٤].

وكذلـك حـدث كثيـرًا تكثيـره للمـاء فـي غزواتـه وأسـفاره مـع أصحابـه حيـن يدركهـم العطـش ولا مـاء عندهـم، فيؤتـى بالمـاء القليـل فـي الإنـاء ويدعـو ويتوضـأ منـه، ثـم يتوضـأ منـه أصحابـه ويشـربون ويبقـى منه بقيـة[٥].

(١) البخاري: فضائل الصحابة: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما. سنن الترمذي: مناقب، مناقب الحسن والحسين.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب قتال اليهود. مسلم فتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت.

(٣) البخاري: المغازي: باب غزوة الخندق. مسلم: كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق به.

(٤) البخاري: أطعمة باب من أدخل الضيفان عشرة عشرة. مسلم: الباب السابق.

(٥) البخاري: الأنبياء: باب علامات النبوة. مسلم: مساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة. سنن أبي داود: كتاب الصلاة باب من نام عن صلاة.

هـ- تكليم الجمادات له:

ومن معجزاته ﷺ تكليم بعض الأشجار والأحجار وغيرها له، وجاء ذلك في مواقف كثيرة منها قوله ﷺ: (إنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بمَكَّةَ كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ أُبْعَثَ إنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ)[1] وجاء أعرابي إلى الرسول ﷺ فقال له الرسول: «أتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله؟» قال الأعرابي: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «هذا السلمة» -وهي نوع من الشجر- فدعاها الرسول ﷺ فأقبلت حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثًا فشهدت ثم رجعت إلى منبتها[2].

(١) مسلم: فضائل: باب فضل نسب لنبي وتسليم الحجر عليه. سنن الترمذي: ٤/ ١٧٨٢. مناقب: ٩.

(٢) سنن الدارمي: صحيح ابن حبان: ١٤/ ٤٣٤. مسند أبي يعلى: ١٠/ ٤٣.

الفهرس

التفسير

تقديم	٣
أولًا: مدخل	٤
١- فضل القرآن	٤
أ-فضل تلاوته	٤
ب- فضل تدبره	٧
ج- فضل الحفظ	٨
د- فضل العمل به	١٠
هـ- فضل تعليمه	١١
ب- آداب تلاوة القرآن	١٣
ج- قواعد مهمَّة في فهم القرآن	١٧
١- أفضل أنواع التفسير وأصحها وأقواها	١٧
٢- فيما أُبْهِمَ مِن القرآن	١٩
٣- العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.	٢١
ثانيًا: التفسير	٢٢
١- تفسير بعض السُّور والآيات التي تتكرر قراءة المسلم لها، ومن ذلك تفسير ما يلي	٢٢
أ- تفسير سورةِ الفاتحة	٢٢
ب- تفسير آية الكرسي	٢٧
ج- تفسيرُ خواتيم سورةِ البقرة -الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة	٣١
د- تفسير سورةِ العصر	٣٦
هـ- تفسير سورة الكافرون	٣٩

و- تفسير سورة الإخلاص ٤٢

ز- تفسير سورة الفلق ٤٤

ح- تفسير سورة الناس ٤٧

٢- تفسير بعض الآيات التي تتناول بعض صفات المؤمنين في القرآن، ويشمل ذلك ما يلي ٤٩

أ- تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة ٤٩

ب- تفسير الآية (١٩٥) من سورة البقرة ٥٣

ج- تفسير الآية (٥٨) من سورة النساء ٥٥

تفسير الآية (١١٩) من سورة التوبة ٥٨

تفسير الآيات (٢٣-٢٤) من سورة الأحزاب ٦٠

تفسير الآيات (٧٢-٧٣) من سورة الأحزاب ٦٣

تفسير الآيات (١٥-١٩) من سورة الذاريات ٦٦

٣- تفسير بعض الآيات التي تتناول قصص القرآن، ومن ذلك ما يلي ٦٨

أ- تفسير الآيات (٩-٢٦) من سورة الكهف ٦٨

ب- تفسير الآيات (٢٦-٤٦) من سورة المؤمن ٧٥

الثقافة الإسلاميَّة

تقديم ٨٦

مدخل ٨٧

أوَّلاً: مفهوم الثقافة ٨٧

ثانيًا: مفهوم الثقافة الإسلاميَّة ٩٠

ثالثًا: نشأة الثقافة الإسلاميَّة ومصادرها ٩١

رابعًا: الثقافات الأخرى ومرتكزاتها ٩٣

خصائص دين الإسلام	٩٥
أولاً: الربانية	٩٦
ثانيًا: ملاءمة الفطرة	٩٨
ثالثًا: اليُسر ورفع الحرج	١٠١
رابعًا: الشمول	١٠٤
خامسًا: الخيرية	١٠٦
سادسًا: العالمية	١٠٧
النظم الإسلامية	١٠٨
أولاً: تعريف النظم	١٠٨
ثانيًا: مصادر النظم الإسلاميَّة	١١١
ثالثًا: قصور العقل البشري عن سنِّ النظم كاملة	١١٤
رابعًا: إقامة الإسام النظم الفريدة الصحيحة للحياة البشرية جميعها	١١٨
خامسًا: بيانٌ مجملٌ بأبرز النظم الإسلاميَّة	١٢٢
أ- النظام السياسي	١٢٢
ب- النظام الاقتصادي	١٢٧
ج- النظام الاجتماعي والأخلاقي	١٣٥
قضايا العصر الحاضر	١٤٤
أولاً: التدين	١٤٦
تعريف الدين والتدين	١٤٦
شمولية الدين للاعتقاد والقول والعمل	١٤٧
أبرز صورة للتدين بالإسلام في تاريخ المسلمين	١٤٨
التدين بين التقصير والغلو	١٤٩

ثانيًا: قضية العقلانية ١٥٣
ثالثًا: الحرية ١٦٢
مفهوم الحرية عند المسلمين ١٦٢
الحرية في الغرب المعاصر ١٦٣
الحرية في منهج الإسلام ١٦٧
رابعًا حقوق الإنسان ١٧٤

السيرة النبوية

تقديم ١٨٧
مداخل عامة ١٨٨
أولاً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسل ١٨٨
١- تعريف البشر بخالقهم وحكمة وجودهم ١٨٨
٢- الإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة ١٨٩
٣- تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر ١٨٩
٤- حاجة البشر في الدنيا إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم ١٩٠
ثانيًا: مضمون دعوة الأنبياء ١٩١
ما يجب على المسلم تجاه الأنبياء ١٩٤
تفضيل الأنبياء ١٩٥
ثالثًا: أهمية سيرة النبي محمَّد ﷺ ومظاهر تميزها ١٩٧
١- تكامل حلقاتها ودقة تفاصيل أطوارها من الولادة حتى الوفاة ١٩٧
٢- صحة نقلها إلينا وثقة مصدرها ٢٠٠
٣- شمولها لجميع جوانب الحياة البشرية ٢٠٢

موضوعات مختارة من السيرة النبوية قبل البعثة	٢٠٤
نسبه ﷺ	٢٠٤
مولده وطفولته	٢٠٥
رضاعته وشق صدره	٢٠٦
حادثة شق الصدر الأولى	٢٠٧
وفاة أمه وجده	٢٠٨
رعيه الغنم	٢٠٩
أخلاقه ومكانته قبل البعثة	٢١٠
زواجه من خديجة رضي الله عنها	٢١٢
البعثة النبوية	٢١٤
حالة العرب قبل البعثة	٢١٤
الحالة الدينيَّة	٢١٤
الحالة السياسية	٢١٥
الحالة الاجتماعية	٢١٥
بدء الوحي	٢١٧
الدعوة في العهد المكي	٢١٨
المرحلة السرية	٢١٩
الجهر بالدعوة والابتلاء	٢١٩
اضطهاد أتباعه وفتنتهم	٢٢٢
المساومة والمفاوضات	٢٢٣
محاولة إحراج الرسول ﷺ وطلب المعجزات	٢٢٤

مقاطعة قريش بني هاشم	٢٢٤
ابتلاؤه ﷺ بوفاة عمه وزوجته	٢٢٥
موقف الرسول ﷺ من هذه الابتلاءات	٢٢٦
الهجرة إلى المدينة	٢٢٩
مقدمات الهجرة	٢٢٩
بدء إسلام الأنصار وبيعتا العقبة	٢٢٩
بيعة العقبة الأولى	٢٣١
بيعة العقبة الثانية	٢٣٣
هجرة المسلمين	٢٣٤
الهجرة النبويَّة	٢٣٧
المجتمع في المدينة	٢٤١
بناء المسجد	٢٤١
المؤاخاة	٢٤٢
المعاهدة مع اليهود	٢٤٤
موقف الرسول ﷺ من أعداء الدعوة في العهد المدني	٢٤٦
أولاً: موقف الرسول ﷺ من المشركين	٢٤٧
المرحلة الأولى: غزو المشركين للمسلمين	٢٤٧
غزوة بدر	٢٤٨
غزوة أحد	٢٥٢
عزوة الأحزاب	٢٥٧
المرحلة الثانية: مرحلة الصلح	٢٦٠

بيعة الرضوان	٢٦٠
المرحلة الثالثة: غزو المسلمين للمشركين	٢٦٤
فتح مكة	٢٦٤
ثانيًا: موقف الرسول ﷺ من أهل الكتاب	٢٦٧
موقفه من اليهود	٢٦٧
نقض بني قينقاع العهد	٢٦٨
نقض يهود بني النضير العهد وجلاؤهم	٢٦٩
نقض يهود بني قريظة العهد وموقف الرسول ﷺ منهم	٢٧١
موقف الرسول ﷺ من يهود خيبر	٢٧٣
موقف الرسول ﷺ من النصارى	٢٧٦
نصارى نجران	٢٧٦
نصارى الشمال	٢٧٧
موقف الرسول ﷺ من المنافقين	٢٧٩
النفاق وأنواعه	٢٧٩
ظهور النفاق	٢٧٩
أساليب المنافقين في مقاومة الإسلام	٢٨٠
موقف الرسول ﷺ من المنافقين	٢٨٣
الأحداث الأخيرة في حياة الرسول ﷺ	٢٨٦
الوفود إلى رسول الله ﷺ	٢٨٦
حجة الوداع	٢٨٨

مبادئ ووصايا في حجه الوداع	٢٨٩
مرض الرسول ﷺ ووفاته	٢٩٠
تجهيز الرسول ﷺ ودفنه	٢٩١
أثر وفاة الرسول ﷺ	٢٩٢
شمائل النبي ﷺ ومعجزاته	٢٩٤
شمائل النبي وخصائصه	٢٩٤
مصادر وكتب شمائله	٢٩٥
من أخلاق النبي ﷺ وشمائله	٢٩٦
تعامله مع ربه	٢٩٦
تعامله مع أصحابه	٢٩٧
التواضع ولين والجانب	٣٠١
تعامله مع أعدائه	٣٠٣
دلائل نبوَّة محمد ﷺ ومعجزاته	٣٠٨
المعجزة الخالدة (القرآن الكريم)	٣٠٩
معجزات أخرى	٣١٣
أ- الإسراء والمعراج	٣١٣
ب- انشقاق القمر	٣١٤
ج- إخبار الرسول بأمور مستقبلية	٣١٤
د- تكثير الطعام والشراب	٣١٥
هـ- تكليم الجمادات له	٣١٦
الفهرس	٣١٧